

مناع القطّان

مباحث في علوم القرآن

الدار السعودية للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد :

فهذه مباحث في علوم القرآن توخيت فيها الإلمام بما يحتاج إليه الطالب الدارس في دراسته ، والشاب المسلم في ثقافته ، مع وضوح المعنى ، وسهولة اللفظ ، وجودة السبك ، وحسن الترتيب ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، والله المستعان .

هذا وقد طبع الكتاب الطبعة الأولى ثم نفدت ، وهذه هي الطبعة الثانية أقدمها للقراء مزيدة منقحة ، عسى الله أن ينفع بها ، إنه سميع الدعاء .

مناع خليل القطان

أستاذ التفسير بكلية الشريعة

ومحاضر بالمعهد العالي للقضاء

في الرياض

التعريف بالعلم وبَيَان نشأته وتطوّره

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التي لا يزيدها التقدم العلمي إلا رسوخاً في الإعجاز ، أنزله الله على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يبلغه لصحابته — وهم عرب خلص — فيفهمونه بسليقتهم ، وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال : « لما نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا لإيمانهم بظلم ٨٢ — الأنعام) شق ذلك على الناس ، فقالوا يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم . ١٣ — لقمان) ؟ إنما هو الشرك » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر لهم بعض الآيات .

أخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . ٦٠ — الأنفال) ألا إن القوة الرمي » .

وحرص الصحابة على تلقي القرآن الكريم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظه وفهمه ، وكان ذلك شرفاً لهم .

عن أنس رضي الله عنه قال : « كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جدد فينا » أي عظم .

وحرصوا كذلك على العمل به والوقوف عند أحكامه .

روي عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال : « حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن ، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا » .

ولم يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابة شيء عنه سوى القرآن خشية أن يلتبس القرآن بغيره .

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه ، وحدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

ولئن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن لبعض صحابته بعد ذلك في كتابة الحديث فإن ما يتصل بالقرآن ظل يعتمد على الرواية بالتلقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . جاءت خلافة عثمان^(١) رضي الله عنه ، واقتضت الدواعي - التي سنذكرها فيما بعد^(٢) - إلى جمع المسلمين على مصحف واحد ، فتم ذلك ، وسمى بالمصحف الإمام ، وأرسلت نسخ منه إلى الأمصار ، وسميت كتابته بالرسم العثماني ، نسبة إليه ، ويعتبر هذا بداية « لعلم رسم القرآن » .

ثم كانت خلافة علي رضي الله عنه ، فوضع أبو الأسود الدؤلي بأمر منه قواعد النحو ، صيانة لسلامة النطق ، وضبطا للقرآن الكريم ، ويعتبر هذا كذلك بداية « لعلم إعراب القرآن » .

(١) لقد جمع القرآن الكريم أول جمع في عهد الخليفة أبي بكر رضي الله تعالى عنه بعد معركة اليمامة كاسياتي .

(٢) أنظر بحث جمع القرآن في عهد عثمان .

استمر الصحابة يتناقلون معاني القرآن وتفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم ، لتفاوت قدرتهم على الفهم ، وتفاوت ملازمتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتناقلهم ذلك تلاميذهم من التابعين .

ومن أشهر المفسرين من الصحابة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله ابن الزبير .

وقد كثرت الرواية في التفسير عن : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب . وما روي عنهم لا يتضمن تفسيراً كاملاً للقرآن ، وإنما يقتصر على معاني بعض الآيات ، بتفسير غامضها ، وتوضيح مجملها . أما التابعون ، فاشتهر منهم جماعة ، أخذوا عن الصحابة ، واجتهدوا في تفسير بعض الآيات .

فاشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومولى ابن عباس ، وطاوس بن كيسان اليماني ، وعطاء بن أبي رباح . واشتهر من تلاميذ أبي بن كعب بالمدينة : زيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظي .

واشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود بالعراق : علقمة بن قيس ، ومسروق ، والأسود بن يزيد ، وعامر الشعبي ، والحسن البصري ، وقتادة بن دعامة السدوسي . قال ابن تيمية : « وأما التفسير ، فأعلم الناس به أهل مكة ، لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم من أصحاب ابن عباس ، كطاوس ، وأبي الشعثاء ، وسعيد بن جبير وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم ، وعلماء أهل المدينة في التفسير ، مثل : زبير بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذ عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن ، وعبد الله بن وهب »^(١)

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير صفحة ١٥ .

والذي روي عن هؤلاء جميعا يتناول : علم التفسير ، وعلم غريب القرآن ،
وعلم أسباب النزول ، وعلم المكي والمدني ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، ولكن هذا
كله ظل معتمدا على الرواية بالتلقين .

جاء عصر التدوين في القرن الثاني ، وبدأ تدوين الحديث بأبوابه المتنوعة ،
وشمل ذلك ما يتعلق بالتفسير ، وجمع بعض العلماء ما روي من تفسير للقرآن
الكريم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن الصحابة ، أو عن التابعين .

واشتهر منهم : يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة ١١٧ هجرية ، وشعبة
ابن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية ، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧
هجرية ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هجرية ، وعبد الرزاق بن همام
المتوفى سنة ٢١١ هجرية .

وهؤلاء جميعا كانوا من أئمة الحديث ، فكان جمهم للتفسير جمعا لباب
من أبوابه ، ولم يصلنا من تفاسيرهم شيء مكتوب .

ثم نهج نهجهم بعد ذلك جماعة من العلماء وضعوا تفسيراً متكاملاً للقرآن
وفق ترتيب آياته ، واشتهر منهم ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هجرية .

وهكذا بدأ التفسير أولاً بالنقل عن طريق التلقي والرواية ، ثم كان تدوينه
على أنه باب من أبواب الحديث ، ثم دون على استقلال وانفراد ، وتتابع التفسير
بالمأثور ، ثم التفسير بالرأي .

وبإزاء علم التفسير كان التأليف الموضوعي في موضوعات تنصل بالقرآن
ولا يستغني المفسر عنها .

فألف علي بن المديني شيخ البخاري المتوفى سنة ٢٣٤ هجرية في أسباب النزول .

وألف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هجرية في الناسخ
والمنسوخ ، وفي القراءات .

وألف ابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هجرية في مشكل القرآن .
 وهؤلاء من علماء القرن الثالث الهجري .
 وألف محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية الحاوي في
 علوم القرآن .
 وألف أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨ هجرية في
 علوم القرآن .
 وألف أبو بكر السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠ هجرية في غريب القرآن .
 وألف محمد بن علي الأدفوي المتوفى سنة ٣٨٨ هجرية « الاستغناء في علوم
 القرآن » .
 وهؤلاء من علماء القرن الرابع الهجري .
 ثم تتابع التأليف بعد ذلك .
 فألف علي بن إبراهيم بن سعيد الحرفي المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية « البرهان في
 علوم القرآن » و « إعراب القرآن » .
 والعز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هجرية في مجاز القرآن .
 وعلم الدين السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ هجرية في علم القراءات .
 وأبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ ه في إعجاز القرآن .
 والماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ ه في أمثال القرآن .
 وابن القيم المتوفى ٧٥١ هجرية في « أقسام القرآن » .
 وأول من جمع شتات علوم القرآن ونسقها ورتبها في مؤلف واحد هو :
 علي بن سعيد الحوفي في كتابه « البرهان في علوم القرآن » (١) .
 (١) يوجد منه (١٥) مجلدا غير مرتبة في نسخة مخطوطة يدار الكتب في القاهرة .

ثم تبعه ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية في كتابه « فنون الأفتان في عجائب علوم القرآن »^(١) .

ثم جاء بدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هجرية وألف كتابا وافيا سماه « البرهان في علوم القرآن »^(٢) .

ثم أضاف إليه بعض الزيادات جلال الدين البلقيني المتوفى سنة ٨٢٤ هجرية في كتابه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » .

ثم ألف جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية كتابه المشهور « الإتقان في علوم القرآن » .

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف في عصر النهضة الحديثة أقل من العلوم الأخرى . فقد اتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامي اتجاهها سديدا في معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر ، مثل كتاب « إعجاز القرآن » لمصطفى صادق الرافعي ، وكتابي : « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » للشهيد سيد قطب . و « ترجمة القرآن » للمراغي ، وبحث فيها لمحي الدين الخطيب ، و « النبأ العظيم » للدكتور محمد عبد الله دراز ، ومقدمة تفسير « محاسن التأويل » لمحمد جمال الدين القاسمي .

وألف الشيخ محمد علي سلامة كتابه « منهج الفرقان في علوم القرآن » تناول فيه المباحث المقررة بكلية أصول الدين بمصر .

وتلاه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني فألف كتابه « مناهل العرفان في علوم القرآن » .

ثم الشيخ أحمد أحمد علي في « مذكرة علوم القرآن » التي ألفها على طلابه بالكلية ، قسم إجازة الدعوة والإرشاد .

(١) توجد منه نسخة مخطوطة غير كاملة في المكتبة التيمورية .

(٢) نشره وحققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم في أربعة أجزاء .

هذه المباحث جميعها هي التي تعرف بعلوم القرآن ، حتى صارت علماً على العلم المعروف بهذا الاسم .

والعلوم : جمع علم ، والعلم : الفهم والإدراك . ثم نقل بمعنى المسائل المختلفة المضبوطة ضبطاً علمياً .

والمراد بعلوم القرآن : العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول ، وجمع القرآن وترتيبه ، ومعرفة المكي والمدني ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن .

وقد يسمى هذا العلم بأصول التفسير ، لأنه يتناول المباحث التي لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها في تفسير القرآن .

القرآن

من فضل الله على الإنسان أنه لم يتركه في الحياة يستهدي بما أودعه الله فيه من فطرة سليمة، تقوده إلى الخير، وترشده إلى البر فحسب، بل بعث إليه بين فترة وأخرى رسولا يحمل من الله كتابا يدعوه إلى عبادة الله وحده، ويبشر وينذر، لتقوم عليه الحجة (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . ١٦٥ - النساء) .

وظلت الإنسانية في تطورها ورفيها الفكري والوحي يعاودها بما يناسبها ويحل مشاكلها الوقتية في نطاق قوم كل رسول، حتى اكتمل نضجها، وأراد الله لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن تشرق على الوجود، فبعثه على فترة من الرسل . ليكمل صرح إخوانه الرسل السابقين بشريعته العامة الخالدة، وكتابه المنزل عليه، وهو القرآن الكريم... «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون منه، ويقولون: لولا هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين» (١) .

فالقرآن رسالة الله إلى الإنسانية كافة، وقد تواترت النصوص الدالة على ذلك

(١) متفق عليه .

في الكتاب والسنة (قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا . ١٥٨ - الأعراف)
(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا - ١ - الفرقان) « وكان
كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس كافة » ^(١) . ولن يأتي
بعده رسالة أخرى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم
النبيين ٤٠ - الأحزاب) .

فلا غرو من أن يأتي القرآن وافيًا بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس
الأولى للأديان السماوية (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا
إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين لا تتفرقوا فيه - ١٣ -
الشورى) .

وتحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بالقرآن ، وقد نزل بلسانهم ،
وهم أرباب الفصاحة والبيان ، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ،
أو بسورة من مثله ، فثبت له الإعجاز ، وبإعجازه ثبتت الرسالة .

وكتب الله له الحفظ والنقل المتواتر دون تحريف أو تبديل ، فمن أوصاف
جبريل الذي نزل به (نزل به الروح الأمين - ١٩٣ - الشعراء) ومن أوصافه
وأوصاف المنزل عليه (إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ،
مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على
الغيب بضنين ١٩ - ٢٤ - التكويد) (إنه لقول كريم ، في كتاب مكنون ،
لا يمسه إلا المطهرون ، ٧٧ - ٧٩ - الواقعة) .

ولم تكن هذه الميزة لكتاب آخر من الكتب السابقة لأنها جاءت موقوتة
بزمان خاص ، وصدق الله إذ يقول (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون -
٩ - الحجر) .

وتجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن

(١) في الصحيحين من حديث « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي .. »

يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين ،
قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى
الحق وإلى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به - ٢٩ - ٣١ -
الأحقاف) .

والقرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية في شتى مرافق الحياة ،
الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجا حكيما ،
لأنه تنزيل الحكيم الحميد ، ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافي في أسس عامة ،
ترسم الإنسانية خطاها ، وتبني عليها في كل عصر ما يلائمها ، فاكتمب بذلك
صلاحيته لكل زمان ومكان ، فهو دين الخلود ، وما أروع ما قاله داعية الإسلام
في القرن الرابع عشر « الإسلام نظام شامل ، يتناول مظاهر الحياة جميعاً ،
فهو دولة ووطن ، أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة ، أو رحمة وعدالة ، وهو
ثقافة وقانون ، أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة ، أو كسب وغنى ، وهو جهاد
ودعوة ، أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة ، وعبرة صحيحة سواء
بسواء » (١) .

والإنسانية المعذبة اليوم في ضميرها ، المضطربة في أنظمتها ، المتداعية في
أخلاقيها ، لا عاصم لها من الهاوية التي تردى فيها إلا القرآن (فمن اتبع هداي
فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره
يوم القيامة أعمى - ١٢٣ ، ١٢٤ - طه) .

والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط دياجير النظم والمبادئ
الأخرى ، فحري بهم أن ينفصوا أيديهم من كل بهرج زائف ، وأن يقودوا
الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام . وكما
كانت لهم الدولة بالقرآن في الماضي ، فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به في الحاضر .

(١) من رسالة التعاليم للإمام الشهيد حسن البنا .

تعريف القرآن

قرأ : تأتي بمعنى الجمع والضم ، والقراءة : ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل ، والقرآن في الأصل كالقراءة ، مصدر قرأ قراءة وقرآنا . قال تعالى (إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه - ١٧ ، ١٨ - القيامة) أي قراءته ، فهو مصدر على وزن « فُعْلان » بالضم كالغفران والشكران ، تقول : قرأته قرءا وقراءة وقرآنا ، بمعنى واحد . سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر . وقد خص القرآن بالكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فصار له كالعلم الشخصي .

ويطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع القرآن ، وعلى كل آية من آياته ، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا - ٢٠١ - الأعراف) .

وذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعا لثمره كتبه ، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم . كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء - ٨٩ - النحل) وقوله (ما فرطنا في الكتاب من شيء - ٣٨ - الأنعام) .

وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن غير مهموز الأصل في الاشتقاق ، إما لأنه وضع علما مرتجلا على الكلام المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وليس مشتقا من قرأ ، وإما لأنه من قرن الشيء بالشيء إذا ضمه إليه ، أو من القرائن لأن آياته يشبه بعضها بعضا فالنون أصلية - وهذا رأي مرجوح ، والصواب الأول .

والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص . بحيث يكون تعريفه حدا حقيقيا ، والحد الحقيقي له هو استحضاره معهودا في الذهن أو مشاهدا بالحس كأن تشير إليه مكتوبا في المصحف أو

مقروءا باللسان فتقول هو ما بين هاتين الدفتين ، أو تقول : هو (بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين إلى قوله : من الجنة والناس) .

ويذكر العلماء تعريفا له يقرب معناه ويميزه عن غيره ، فيعرفونه بأنه :

كلام الله ، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، المتعبد بتلاوته . « قال الكلام » جنس في التعريف ، يشمل كل كلام ، وإضافته إلى « الله » يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة .

و « المنزل » يخرج كلام الله الذي استأثر به سبحانه (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا — ١٠٩ — الكهف) (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله — ٢٧ — لقمان) .

وتفيد المنزل بكونه « على محمد صلى الله عليه وسلم » يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما .

و « المتعبد بتلاوته » يخرج قراءات الآحاد ، والأحاديث القدسية — إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها — لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة ، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك .

أسماءه وأوصافه

وقد سماه الله بأسماء كثيرة :

منها « القرآن » (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ٩ — الإسراء)

و « الكتاب » (لقد أنزلنا إليك كتابا فيه ذكركم ١٠ — الأنبياء) .

و « الفرقان » (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا — ١ — الفرقان) .

و « الذكر » (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - ٩ - الحجر)
و « التنزيل » (وإنه لتنزيل رب العالمين ١٩٢ - الشعراء) إلى غير ذلك
مما ورد في القرآن .

وقد غلب من أسمائه: القرآن والكتاب ، قال الدكتور محمد عبد الله دراز :
« روعي في تسميته قرآنا كونه متلوا باللسن ، كما روعي في تسميته كتابا
كونا مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه .

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين
لا في موضع واحد ، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا ، أن
تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق
الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التي
وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ
بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها
بقي القرآن محفوظا في حرز حريز ، لإنجازا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث
يقول : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ولم يصبه ما أصاب الكتب
الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند » ^(١) .

وبين سر هذه التفرقة بأن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا
التأييد ، وأن هذا القرآن جيء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمننا عليها ،
فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة زائدا عليها بما شاء الله زيادته ، وكان
سائرا مسيرها ، ولم يكن شيء منها ليسد مسده ، ففضى الله أن يبقى حجة إلى
قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه - وهو الحكيم العليم - وهذا تعليل
جيد .

(١) النبأ العظيم - صفحة ١٢ ، ١٣ - طبعة دار القلم بالكويت .

ووصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك : —

منها « نور » (يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ١٧٤ — النساء) .

و « هدى » و « شفاء » و « رحمة » و « موعظة » (يأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ٥٧ — يونس) .
و « مبارك » (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ٩٢ — الأنعام) .

و « مبين » (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ١٥ — المائدة) .
و « بشرى » (مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ٥٧ — البقرة) .
و « عزيز » (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز ٤١ — فصلت) .

و « مجيد » (بل هو قرآن مجيد ٢١ — البروج) .
و « بشير » و « نذير » (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا — ٣ ، ٤ — فصلت) .

وكل تسمية أو وصف فهو باعتبار معنى من معاني القرآن .

الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي .

سبق تعريف القرآن ، ولكي نعرف الفرق بينه وبين الحديث القدسي والحديث النبوي نعطي التعريفين الآتين :

الحديث النبوي : —

الحديث في اللغة : ضد القديم ، ويطلق ويراد به كل كلام يتحدث به وينقل ويبلغ الانسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه ، وبهذا المعنى

سمي القرآن حديثاً (ومن أصدق من الله حديثاً ٣٤ - الطور) وسمي ما يحدث به الإنسان في نومه (وعلمني من تأويل الأحاديث ١٠١ - يوسف) .

والحديث في الاصطلاح : ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة .

فالقول : كقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ... » ^(١) .

والفعل : كالذي ثبت من تعليمه لأصحابه كيفية الصلاة ثم قال : « صلوا كما رأيتموني أصلي » ^(٢) وما ثبت من كيفية حججه ، وقد قال : « خذوا عني مناسككم » ^(٣) .

والإقرار : كأن يقر أمراً علمه عن أحد الصحابة من قول أو فعل . سواء أكان ذلك في حضرته صلى الله عليه وسلم ، أم في غيبته ثم بلغه ، ومن أمثلته « أكل الضب على مائدته صلى الله عليه وسلم » « وما روي من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم : (قل هو الله أحد) فلما رجعوا ذكروا ذلك له عليه الصلاة والسلام ، فقال : سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟ فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أخبروه أن الله يحبه » ^(٤) .

والصفة ! كما روي : « من أنه صلى الله عليه وسلم ، كان دائماً البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ... » .

(١) من حديث طويل رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب .

(٢) رواه البخاري .

(٣) أخرجه مسلم وأحمد والنسائي .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

الحديث القدسي : —

عرفنا معنى الحديث لغة ، والقدسي : نسبة إلى القدس ، وهي نسبة تدل على التعظيم ، لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير في اللغة ، فالتقديس : تنزيه الله تعالى ، والتقديس : التطهير ، وتقديس : تطهر ، قال الله تعالى على لسان ملائكته (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ٣١ - البقرة) أي نطهر أنفسنا لك .

والحديث القدسي في الاصطلاح : هو ما يضيفه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى : أي أن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه على أنه من كلام الله ، فالرسول راوٍ لكلام الله بلفظ من عنده وإذا رواه أحد رواه عن رسول الله مستنداً إلى الله عز وجل ، فيقول : —

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل ، أو يقول : —

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى .

ومثال الأول : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل : « يد الله مألئ لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار .. » (١) .

ومثال الثاني : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه .. » (٢) .

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه البخاري وسلم .

الفرق بين القرآن والحديث القدسي : —

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسي أهمها : —

١ — أن القرآن الكريم كلام الله أوحى به إلى رسول الله بلفظه ، وتحدى به العرب ، ففجزوا عن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، ولا يزال التحدي به قائما ، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين .

والحديث القدسي لم يقع به التحدي والإعجاز .

٢ — والقرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى ، فيقال : قال الله تعالى .

والحديث القدسي — كما سبق — قد يروى مضافا إلى الله وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال : قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى ، وقد يروى مضافا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار لأنه عليه الصلاة والسلام هو المخبر به عن الله ، فيقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل .

٣ — والقرآن الكريم جميعه منقول بالتواتر ، فهو قطعي الثبوت . والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد ، فهي ظنية الثبوت . وقد يكون الحديث القدسي صحيحا ، وقد يكون حسنا ، وقد يكون ضعيفا .

٤ — والقرآن الكريم من عند الله لفظا ومعنى ، فهو وحى باللفظ والمعنى .

والحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه من عند الرسول صلى الله عليه وسلم على الصحيح فهو وحى بالمعنى دون اللفظ ، ولذا تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين .

٥ — والقرآن الكريم متعبد بتلاوته ، فهو الذي تتعين القراءة به في الصلاة (فاقراءوا ما تيسر من القرآن ٢٠ — المزمل) وقراءته عبادة يثيب الله عليها بما جاء في الحديث « من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ،

لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ^(١) .
والحديث القدسي لا يجزىء في الصلاة ، ويشيب الله على قراءته ثوابا عاما ،
فلا يصدق فيه الثواب الذي ورد ذكره في الحديث على قراءة القرآن ، بكل
حرف عشر حسنات .

الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي : -

الحديث النبوي قسمان :

« قسم توقيفي » وهو الذي تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم مضمونه من
الوحي فبينه للناس بكلامه ، وهذا القسم وإن كان مضمونه منسوبا إلى الله فإنه
- من حيث هو كلام - حريّ بأن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ،
لأن الكلام إنما ينسب إلى قائله وإن كان ما فيه من المعنى قد تلقاه عن غيره .

و « قسم توقيفي » وهو الذي استنبطه الرسول صلى الله عليه وسلم من فهمه
للقرآن ، لأنه مبين له ، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد . وهذا القسم الاستنباطي
الاجتهادي يقره الوحي إذا كان صوابا ، وإذا وقع فيه خطأ جزئي نزل الوحي بما
فيه الصواب ^(٢) وليس هذا القسم كلام الله قطعاً .

ويتبين من ذلك : أن الأحاديث النبوية بقسميها : التوقيفي ، والتوقيفي
الاجتهادي الذي أقره الوحي ، يمكن أن يقال فيها إن مردّها جميعاً يجملتها إلى
الوحي ، وهذا معنى قوله تعالى في رسولنا صلى الله عليه وسلم (وما ينطق عن
الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ٣ ، ٤ - النجم) .

والحديث القدسي معناه من عند الله عز وجل ، يلقي إلى الرسول صلى
الله عليه وسلم بكيفية من كيفيات الوحي - لا على التعيين . أما ألفاظه فمن

(١) رواه الترمذي عن ابن مسعود وقال حديث حسن صحيح .

(٢) وشاله ما كان في أسرى بدر ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ برأي أبي بكر وقبل منهم
الفداء ، فنزل القرآن الكريم معاتباً له (ما كان لذي أن يكون له أسرى ... - ٦٧ الأنفال) .

عند الرسول صلى الله عليه وسلم على الراجح ونسبته إلى الله تعالى نسبة لمضمونه لا نسبة لألفاظه ، ولو كان لفظه من عند الله لما كان هناك فرق بينه وبين القرآن ، ولوقع التحدي بأسلوبه والتعبد بتلاوته .

ويرد على هذا شبهتان !

الشبهة الأولى : أن الحديث النبوي وحى بالمعنى كذلك ، واللفظ من الرسول صلى الله عليه وسلم فلماذا لا نسميه قدسيا أيضا ؟

والجواب : أننا نقطع في الحديث القدسي بنزول معناه من عند الله لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله بقوله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى » ولذا سميناه قدسيا ، بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لم يرد فيها مثل هذا النص ، ويجوز في كل واحد منها أن يكون مضمونه ومُعْلَمًا بالوحي (أي توقيفيا) وأن يكون مستنبطا بالاجتهاد (أي توقيفيا) ولذا سميناه الكل نبوياً وقوفا بالتسمية عند الحد المقطوع به ، ولو كان لدينا ما يميز الوحي التوقيفي لسميناه قدسيا كذلك .

الشبهة الثانية : أنه إذا كان لفظ الحديث القدسي من الرسول صلى الله عليه وسلم فما وجه نسبته إلى الله بقوله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى » .

والجواب : أن هذا سائغ في العربية ، حيث ينسب الكلام باعتبار مضمونه لا باعتبار ألفاظه ، فأنت تقول حينما تنثر بيتا من الشعر : يقول الشاعر كذا ، وحينما تحكي ما سمعته من شخص : يقول فلان كذا ، وقد حكى القرآن الكريم عن موسى وفرعون وغيرهما مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم ، وأسلوب غير أسلوبهم ، ونسب ذلك إليهم (وإذ نادى ربك موسى ، أن اتت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون : قال رب إني أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ، ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ، قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ، فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب

العالمين ، أن أرسل معنا بني إسرائيل ، قال ألم نريك فينا وليدا وليث فينا من
عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ، قال فعلتها إذا
وأنا من الضالين ، فقررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من
المرسلين ، وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ، قال فرعون وما رب
العالمين ؟ ، قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين - ١٠ -
٢٤ - الشعراء (١)

(١) من ذهب إلى أن الحديث القدسي وحي باللفظ كذلك يجعل هذا قرآنا أساسيا بينه وبين الحديث النبوي ،
ويبقى الفرق بينه وبين القرآن الكريم في عدم التحدي وعدم الإعجاز وعدم التعبد بتلاوته وعدم
التواتر في معظمه .

الوحي

إمكانية الوحي ووقوعه :

ازدهرت الحياة العلمية وبددت أشعتها كل رية كانت تساور الناس إلى عهد قريب فيما وراء المادة من روح ، وآمن العلم المادي الذي وضع جل الكائنات تحت التجربة والاختبار بأن هناك عالما غيبيا وراء هذا العالم المشاهد ، وأن عالم الغيب أدق وأعمق من عالم ، وأكثر المخترعات الحديثة التي أخذت بآليات الناس تحجب وراءها هذا السر الخفي الذي عجز العلم عن إدراك كنهه وإن لاحظ آثاره ومظاهره ، وقرب هذا بعد الشقة بين التمسك للأديان والإيمان بها مصداقا لقوله تعالى (سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ٥٣ - فصلت) وقوله (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ٨٥ - الإسراء) .

فالبحوث النفسية الروحية لها في مضمار العلم الآن مكانتها ، ويساندها ويقربها إلى الأفهام تفاوت الناس في مداركهم وميولهم وغرائزهم ، فمن العقول العبقري الفذ الذي يبتكر كل جديد ، ومنها الغبي الذي يستعصي عليه إدراك بديهي الأمور ، وبين المنزلتين درجات . والنفوس كذلك ، منها الصافي المشرق ، والخبيث المغم .

وجسم الإنسان يطوي وراءه روحا هي سر حياته ، وإذا كان الجسم

قبلى ذراته وتفننى أنسجته وخلاياه ما لم يتناول قسطه من الغذاء فجدير بالروح أن يكون لها غذاء يمدّها بالطاقة الروحية كي تحتفظ بمقاماتها وقيمها .

وليس بعيد على الله تعالى أن يختار من عباده نفوسا لها من نقاء الجوهر وسلامة الفطرة ما يعدها للفيض الالهي ، والوحي السماوي ، والاتصال بالملأ الأعلى ، ليلقي إليها برسالاته التي تسد حاجة البشر في رقي وجدانه ، وسمو أخلاقه ، واستقامة نظامه ، وهؤلاء هم رسله وأنبيأؤه .

ولا غرابة في هذا الاتصال بالوحي السماوي .

فالناس اليوم يشاهدون التنويم المغناطيسي ، وهو أن توضح لهم أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها يحدث أثرا يقرب إلى الافهام ظاهرة الوحي — حيث يستطيع الرجل القوي الإرادة أن يتسلط بإرادته على من هو أضعف منه فينام نوما عميقا ، ويكون رهن اشارته ، ويلقنه ما يريد فيجري على قلبه ولسانه ، وإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟ (١)

ويسمع الناس الأحاديث المسجلة التي تحملها اليوم موجات الأثير ، عابرة الوهاد والنجداد ، والسهول والبحار ، دون رؤية ذويها ، بل بعد وفاتهم . وأصبح الرجال يتخاطبان في الهاتف ، أحدهما في أقصى المشرق ، والآخر في أقصى المغرب ، وقد يتراءيان مع هذا التخاطب ، ولا يسمع الجالسون بجانبهما شيئا سوى أزيز كدوي النحل الذي في صفة الوحي .

ومن منا ليس له حديث نفس في يقظته أو منامه يدور في خلده دون أن يرى متكلمها أمامه ؟

هذه وغيرها أمثلة تفسر لعقولنا حقيقة الوحي .

وقد شاهد الوحي معاصروه ، ونقل بالتواتر المستوفي لشروطه بما يفيد العلم

(١) أنظر النبا العظيم صفحة (٧٥) .

القطعي إلى الأجيال اللاحقة ، ولمست الإنسانية أثره في حضارة أمته ، وقوة أتباعه ، وعزتهم ما استمسكوا به ، وانهيار كياناتهم وتخللاتهم ما فرطوا في جنبه ، مما لا بدع مجالاً للشك في إمكان الوحي وثبوته ، وضرورة العودة إلى الاهتداء به إطفاء للظلمة النفسي بمثله العليا ، وقيمه الروحية .

ولم يكن رسولنا صلى الله عليه وسلم أول رسول أوحى إليه ، بل أوحى الله تعالى إلى الرسل قبله بمثل ما أوحى إليه (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ١٦٣ ، ١٦٤ - النساء) .

فليس هناك في نزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم ما يدعو إلى العجب ، ولذا أنكر الله على العقلاء هذا في قوله (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ٢ - يونس) .

معنى الوحي

يقال : وحيت إليه وأوحيت : إذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحي : الإشارة السريعة ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد ، وبإشارة ببعض الجوارح .

والوحي مصدر ، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين ، هما : الخفاء والسرعة ، ولذا قيل في معناه : الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره ، وهذا معنى المصدر ، ويطلق ويراد به الموحى ، أي بمعنى اسم المفعول . والوحي بمعناه اللغوي يتناول :

١ - الإلهام الفطري للإنسان ، كالوحي إلى أم موسى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ٧ - القصص) .

٢ - والإلهام الغريزي للحيوان ، كالوحي إلى النحل (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون ٦٨ - النحل) .

٣ - والإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ١١ - مريم) .

٤ - ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ١٢١ - الأنعام) (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا - ١١٢ - الأنعام) .

٥ - وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا - ١٢ - الأنفال) .

ووحى الله إلى أنبيائه قد عرفوه شرعا بأنه : -

كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه . وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي الموحى .

وعرفه الأستاذ محمد عبده في رسالة التوحيد بأنه :

«عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام : وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » .

وهو تعريف للوحي بالمعنى المصدري ، وبدايته وإن كانت توهم شبهة بحديث النفس أو الكشف إلا أن الفرق بينه وبين الإلهام الذي لجاء في عجز التعريف ينفي هذا .

كيفية وحي الله إلى ملائكته

١ - جاء في القرآن الكريم ما ينص على كلام الله للملائكة :

(وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ... - ٣٠ - البقرة) .

وعلى إيحائه إليهم :

(إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ١٢ - الأنفال) .
وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره :

(فالمقسمات أمرا - ٤ - الذاريات) (فالمدبرات أمرا - ٥ - النازعات)
وهذه النصوص متآزرة تدل على أن الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه .

ويؤيد هذا ما جاء في الحديث عن النّوّاس بن سميّان رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي ، أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة خوفا من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها ، ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل (قال الحق وهو العلي الكبير) فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل » .

فهذا الحديث يبين أن كيفية الوحي تكلم من الله ، وسماع من الملائكة ، وهول شديد لأثره ، وإذا كان ظاهره - في مرور جبريل وانتهائه بالوحي - يدل على أن ذلك خاص بالقرآن فإن صدره يبين كيفية عامة ، وأصله في الصحيح « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان » .

(١) أخرجه الطبراني .

٢ - وثبت أن القرآن الكريم كتب في اللوح المحفوظ لقوله تعالى (بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ ٢١ ، ٢٢ - البروج) كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا في ليلة القدر من شهر رمضان (إنا أنزلناه في ليلة القدر - ١ - القدر) (إنا أنزلناه في ليلة مباركة ٣ - الدخان) .
(شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ١٨٥ - البقرة) .

وفي السنة ما يوضح هذا النزول ، ويدل على أنه غير النزول الذي كان على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعن ابن عباس موقوفا : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ (ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) ^(١) (وقرأنا فرقناه لتقرأ على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً) ^(٢) » ^(٣) وفي رواية « فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم » ^(٤) .

ولذلك ذهب العلماء في كيفية وحي الله إلى جبريل بالقرآن إلى المذاهب الآتية : -

- ١ - أن جبريل تلقفه سماعاً من الله بلفظه المخصوص .
 - ب - أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ .
 - ج - أن جبريل ألقى إليه المعنى - والألفاظ لجبريل ، أو لمحمد صلى الله عليه وسلم .
- والرأي الأول هو الصواب ، وهو ما عليه أهل السنة والجماعة ، ويؤيده حديث النّوّاس بن سميّان السابق .

(١) ٢٣ - الفرقان .

(٢) ١٠٦ - الإسراء .

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقي والنسائي .

(٤) أخرجه الحاكم وابن أبي شيبة .

ونسبة القرآن إلى الله في أكثر من آية : -

(وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم - ٦ - النمل) .

(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ٦ - التوبة) .

(وإذا تنلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي ١٥ - يونس) .

فالقرآن الكريم كلام الله بألفاظه لا كلام جبريل أو محمد .

أما الرأي الثاني فلا اعتبار له ، إذ أن ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ كثبوت سائر المغيبات التي لا يخرج القرآن عن أن يكون من جملتها .

والرأي الثالث أنسب بالسنة لأنها وحي من الله أوحى إلى جبريل ثم إلى محمد صلى الله عليه وسلم بالمعنى ، فعبّر عنه رسول الله بعبارته (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ٣ ، ٤ - النجم) ولذا جازت رواية السنة بالمعنى لعارف بما لا يحيل المعاني دون القرآن .

وسبق أن ذكرنا الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي .

فمن خصائص القرآن : ١ - أنه معجز - ٢ - قطعي الثبوت ٣ - يتعبد بتلاوته - ٤ - ويجب اداؤه بلفظه ، والحديث القدسي - على القول بتزول لفظه - ليس كذلك .

والحديث النبوي قسمان : الأول : ما اجتهد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس وحياً ويكون إقرار الوحي له بسكوته إذا كان صواباً ، والثاني : ما أوحى إليه بمعناه واللفظ لرسول الله ، ولذا يجوز روايته بالمعنى . والحديث القدسي على القول الراجح بتزول معناه دون لفظه يكون من هذا القسم ونسبته إلى الله في الرواية لورود النص الشرعي على ذلك دون الأحاديث النبوية .

كيفية وحي الله إلى رسله

يوحي الله إلى رسله بواسطة وبغير واسطة .

فالأول : بواسطة جبريل ملك الوحي وسيأتي بيانه .

والثاني : وهو الذي لا واسطة فيه .

أ - منه الرؤيا الصالحة في المنام ، فمن عائشة رضي الله عنها قالت : « أول ما بدىء به صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » ^(١) وكان ذلك تهيئة لرسول الله حتى ينزل عليه الوحي يقظة ، وليس في القرآن شيء من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظة ، خلافا لمن ادعى نزول سورة « الكوثر » مناما للحديث الوارد فيها ، ففي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا في المسجد إذ أغشى إغفاء ثم رفع رأسه مبتسما فقلت : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : « نزلت علي آتفا سورة ، فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الابتر ») فلعل الإغفاء هذه هي الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي .

ومما يدل على أن الرؤية الصالحة للأنبياء في المنام وحي يجب اتباعه ما جاء في قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل ^(٢) (فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، ونادياه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على

(١) متفق عليه .

(٢) هذا هو الصواب ، خلافا لمن ذهب إلى أنه اسحاق ، فإن البشارة كانت أولا بإسماعيل قبل اسحاق ، وإسماعيل هو الذي نشأ في الجزيرة العربية حيث كانت قصة الذبح ، وهو الحري بأن يوصف بالحلم .

إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين - ١٠١ - ١١٢ - الصافات) ولو لم تكن هذه الرؤيا وحيا يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن من الله عليه بالفداء .

والرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول ، فهي باقية للمؤمنين وإن لم تكن وحيا كما قال عليه الصلاة والسلام « انقطع الوحي وبقيت المبشرات ، رؤيا المؤمن » .

والرؤيا الصالحة في المنام للأنبياء هي القسم الأول من أقسام التكليم الإلهي المذكور في قوله تعالى (ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم ٥١ - الشورى) .

ب - ومنه الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة يقظة :

وهو ثابت لموسى عليه السلام (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ١٤٣ - الأعراف) (وكلم الله موسى تكليما ١٦٤ - النساء) . كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج . وهذا النوع هو القسم الثاني المذكور في الآية (أو من وراء حجاب) وليس في القرآن شيء منه كذلك .

كيفية وحي الملك إلى الرسول

وحي الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة ، وهو ما ذكرناه آنفا ، وكان منه الرؤيا الصالحة في المنام ، والكلام الإلهي من وراء حجاب يقظة - وإما أن يكون بواسطة ملك الوحي وهو الذي يعيننا في هذا الموضوع لأن القرآن الكريم نزل به .

ولا تخلو كيفية وحي الملك إلى الرسول من إحدى حالتين : -

الحالة الأولى : — وهي أشد على الرسول — أن يأتيه مثل صلصلة الجرس والصوت القوي يثير عوامل الانتباه فتها النفس بكل قواها لقبول أثره ، فإذا نزل الوحي بهذه الصورة على الرسول صلى الله عليه وسلم نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية لتلقيه وحفظه وفهمه ، وقد يكون هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه في الحديث « إذا قضى الله لأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله كالسلسلة على صفوان » (١) وقد يكون صوت الملك نفسه في أول سماع الرسول له .

والحالة الثانية : — أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه في صورة بشر ، وهذه الحالة أخف من سابقتها ، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع ، ويأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحي ، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان .

والهيئة التي يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها أن يتجرد من روحانيته ، ولا يعني أن ذاته انقلبت رجلاً . بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أنسا الرسول البشري ، ولا شك أن الحالة الأولى — حالة الصلصلة — لا يوجد فيها هذا الإناس ، وهي تحتاج إلى سمو روحي من رسول الله يتناسب مع روحانية الملك فكانت أشد الحالتين عليه ، لأنها كما قال ابن خلدون « انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية ، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية » .

وكلتا الحالتين مذكور فيما روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الجارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال . وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول »؟ وروى

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري .

عائشة رضي الله عنها ما كان يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة
فقالت : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن
جبينه ليتفصد عرقا » (١) .

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهي المشار إليه في الآلة
(وما كان لبشر أن يكلمه الله .

١ - إلا وحيا

٢ - أو من وراء حجاب

٣ - أو يرسل رسولا فيوحي بإذن منه ما يشاء إنه علي حكيم ٥١ - الشورى) .

أما النفث في الروح ، أي القلب ، فقد ذكر في قول الرسول صلى الله عليه وسلم
« إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها
وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » (٢) والحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة ،
فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين في حديث عائشة ، فيأتيه
الملك في مثل الصلصلة وينفث في روعه ، أو يتمثل له رجلا وينفث في روعه .
وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم .

شبه الجاحدين على الوحي

وقد حرص الجاهليون قديما وحديثا على إثارة الشبه في الوحي عتوا واستكبارا ،
وهي شبه واهية مردودة .

١ - زعموا أن القرآن الكريم من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، ابتكر
معانيه ، وصاغ أسلوبه ، وليس وحيا يوحى .

وهذا زعم باطل ، فإنه عليه الصلاة والسلام إذا كان يدعي لنفسه الزعامة
ويتحدى الناس بالمعجزات لتأييد زعامته فلا مصلحة له في أن ينسب ما يتحدى
به الناس إلى غيره ، وكان في استطاعته أن ينسب القرآن لنفسه ، ويكون ذلك كافيا

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية بسند صحيح .

لرفعة شأنه ، والتسليم بزعامته ، ما دام العرب جميعا على فصاحتهم قد عجزوا عن معارضته ، بل ربما كان هذا أدعى للتسليم المطلق بزعامته لأنه واحد منهم أتى بما لم يستطيعوه .

ولا يقال إنه أراد بنسبة القرآن إلى الوحي الإلهي أن يجعل لكلامه حرمة تفوق كلامه حتى يستعين بهذا على استجابة الناس لطاعته وإنفاذ أوامره ، فإنه صدر عنه كلام نسبه لنفسه فيما يسمى بالحديث النبوي ولم ينقص ذلك من لزوم طاعته شيئا ، ولو كان الأمر كما يتوهمون لجعل كل أقواله من كلام الله تعالى .

وهذا الادعاء يفترض في رسول الله أنه كان من أولئك الزعماء الذين يعبرون الطريق في الوصول إلى غايتهم على قنطرة من الكذب والتمويه ، وهو افتراض يأباه الواقع التاريخي في سيرته عليه الصلاة والسلام ، وما اشتهر به من صدق وأمانة شهد له بهما أعداؤه قبل أصدقائه .

لقد اتهم المنافقون زوجة عائشة بحديث الإفك ، وهي أحب زوجاته إليه ، واتهامها بمس كرامته وشرفه ، وأبطأ الوحي ، وتحرَّج الرسول صلى الله عليه وسلم وتحرَّج صحابته معه حتى بلغت القلوب الحناجر ، وبذل جهده في التحري والاستشارة ، ومضى شهر بأكمله ، ولم يزد على أن قال لها آخر الأمر « أما إنه بلغني كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت أَلَمْتُ بذنب فاستغفري الله » (١) وظل هكذا إلى أن نزل الوحي ببراءتها ، فماذا كان يمنعه لو أن القرآن كلامه من أن يقول كلاما يقطع به السنة المتخرصين ، ويحمي عرضه ؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله (ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ٤٤ - ٤٧ - الخاقية) .

واستأذن جماعة في التخلف عن غزوة تبوك وأبدوا أعذارا وكان منهم من

(١) راجع حديث الإفك في الصحيحين وفي غيرهما ، وتفسير القصة في سورة النور .

التحل هذه الأعذار من المنافقين وأذن لهم ، فنزل القرآن الكريم معاتباً له لخطأ رآه (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟ ٤٣ - التوبة) ولو كان هذا العقاب صادراً عن وجدانه تعبيراً عن ندمه حين تبين له فساد رأيه لما أعلنه عن نفسه بهذا التعنيف الشديد والعتاب القاسي .

ونظير هذا معاتبته صلى الله عليه وسلم في قبول الفداء من أسرى بدر (ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ٦٧ ، ٦٨ - الأنفال) ومعاتبته في توليه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضى الله عنه اهتماماً بنفر من أكابر قريش في دعوتهم إلى الإسلام (عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنتعه الذكري ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة ١ - ١١ - عبس) .

والمعهود في سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان منذ نعومة أظفاره مثلاً فريداً في حسن الخلق ، وكريم السجيا .. وصدق اللهجة ، وإخلاص القول والعمل ، وقد شهد له بهذا قومه عندما دعاهم في مطلع الدعوة وقال لهم : « أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بظهر هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم ، ما جربنا عليك كذباً » وكانت سيرته العطرة مهوى أفئدة الناس إليه للدخول في الإسلام ، عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، انجفل الناس إليه ، وقيل : قدم رسول الله ، قدم رسول الله ، فجئت في الناس لأنظر إليه فلما استثبت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب » .

وصاحب هذه الصفات العظيمة التي يتوجها الصدق ما ينبغي لأحد أن

(١) رواه الترمذي بسند صحيح .

يمتري في قوله حينما أعلن عن نفسه بأنه ليس واضح ذلك الكتاب (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلى ١٥ - يونس) .

٣ - وزعم الجاهليون قديما وحديثا أنه عليه الصلاة والسلام كان له من حدة الذكاء ، ونفاذ البصيرة ، وقوة الفراسة ، وشدة الفطنة ، وصفاء النفس ، وضدق التأمل ، ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشر ، والحق والباطل ، بالإلهام ، ويتعرف على خفايا الأمور بالكشف والوحي النفسي ، ولا يخرج القرآن عن أن يكون أثرا للاستنباط العقلي ، والإدراك الوجداني عبر عنه محمد بأسلوبه وبيانه .

وأي شيء في القرآن يعتمد على الذكاء والاستنباط والشعور ؟

فالجانب الأخباري - وهو قسم كبير من القرآن - لا يماري عاقل في أنه لا يعتمد إلا على التلقي والتعلم .

لقد ذكر القرآن أنباء من سبق من الأمم والجماعات والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة كما يذكر شاهد العيان مع طول الزمن الذي يضرب في أغوار التاريخ إلى نشأة الكون الأولى بما لا يدع مجالاً لإعمال الفكر ودقة الفراسة ، ولم يعاصر محمد صلى الله عليه وسلم تلك الأمم وهذه الأحداث في قرونها المختلفة حتى يشهد وقائعها وينقل أنباءها ، كما لم يتوارث كتبها ليدرس دقائقها ويروي أخبارها (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتاول عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين ٤٤ ، ٤٥ - القصص) (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ٤٩ - هود) (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ٣ - يوسف) (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ٤٤ - آل عمران) .

ومنها أنباء دقيقة تتناول الأرقام الحسابية التي لا يعلمها إلا الدارس البصير ،

ففي قصة نوح (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ١٤ - العنكبوت) وهذا موافق لما جاء في سفر التكوين من التوراة . وفي قصة أصحاب الكهف (وليثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ٢٥ - الكهف) وهي عند أهل الكتاب ثلاثمائة سنة شمسية ، السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية .

فمن أين أتى محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الدقائق الصحيحة لو لم يكن يوحى إليه وهو الرجل الأمي الذي عاش في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب ؟ وقد كان أهل الجاهلية الأولى أذكي من ملاحدة الجاهلية المعاصرة ، فإن أولئك لم يقولوا إن محمدا استقى هذه الأخبار من وحي نفسه كما يقول هؤلاء ، بل قالوا إنه درسها وأمليت عليه (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ١٠٥ - الفرقان) ولم يتلق رسول الله صلى الله عليه وسلم درسا على معلم قط - كما سيأتي - فمن أين جاءته هذه الأنباء فجأة بعد أن بلغ سن الأربعين ؟ (إن هو إلا وحي يوحى ٤ - النجم) .

هذا في الجانب الأخباري .

أما في سائر العلوم التي تضمنها القرآن فإن قسم العقائد يتناول كذلك أمورا تفصيلية عن بدء الخلق ونهايته . والحياة الآخرة وما فيها من الجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ، وما يتبع ذلك من الملائكة وأوصافهم ووظائفهم - وهذه معلومات لا مجال فيها لذكاء العقل وقوة الفراسة البتة (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ٣١ - المدثر) (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ٣٧ - يونس) .

ناهيك بما تضمنه القرآن من أحكام قاطعة عن أخبار المستقبل التي تجري على سنن الله الاجتماعية ، في القوة والضعف ، والصعود والهبوط ، والعزة والذلة ،

والبناء والدمار (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوني لا يشركون بي شيئا ٥٥ - النور)
(ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ٤٠ ، ٤١ - الحج) (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ٥٣ - الأنفال) .

أضف إلى هذا أن القرآن الكريم قد حكى عن رسول الله اتباعه للوحي (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ٢٠٣ - الأعراف) وأنه بشر لا يعلم الغيب ولا يملك من أمر نفسه شيئا (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد ١١٠ - الكهف) (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير ١١٨ - الأعراف) .

وقد كان عليه الصلاة والسلام عاجزا عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين شاهدين أمامه ليقضي بينهما وهو يسمع أقوالهما فهو بلا شك أشد عجزا عن إدراك ما فات وما هو آت : « سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خصومة بيباب حجرته فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأحسب أنه صدق ، فأقضي له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليركها » (١) .

قال الدكتور محمد عبد الله دراز « هذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم « الوحي النفسي » زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد ، وما هو بجديد ، وإنما هو الرأي الجاهلي القديم ، لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله ، فقد صوروا النبي صلى الله عليه وسلم رجلا ذا خيال واسع

(١) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن .

ولإحساس عميق فهو إذا شاعر ، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيرا على حواسه حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصا يكلمه ، وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذا الجنون أو أضغاث الأحلام ، على أنهم لم يطبقوا الثبات طويلا على هذه التعليقات ، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة « الوحي النفسي » حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلية ، فقالوا : لعله تلقفها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة ، فهو إذا قد علمه بشر ، فأى جديد ترى في هذا كله ؟ أليس كله حديثا معادا يضاھون به قول جهال قریش ؟ وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الحديد صورة متسخة ، بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه ، وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة في العصر الحديث مستمدا من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) .

وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله أنه كان صادقا أمينا ، وأنه كان معذورا في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلهي ، لأن أحلامه القوية صورتها له وحيا إلهيا ، فما شهد إلا بما علم ، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ٣٣ - الأنعام) فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه فما عذره في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأنباء لا هو ولا قومه من قبل هذا ، بينما هو قد سمعها بزعمهم من قبل ؟ فليقولوا إذا إنه افتراه ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل ، ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنصاف والتعقل ، ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون » (١) .

٣ - وزعم الجاهليون قديما وحديثا أن محمدا قد تلقى العلوم القرآنية على يد معلم .

(١) راجع النبأ العظيم .

وهذا حق ، إلا أن المعلم الذي تلقى عنه القرآن هو ملك الوحي ، أما أن يكون له معلم آخر من قومه ، أو من غير قومه فلا .

إنه عليه الصلاة والسلام قد نشأ أميا وعاش أميا ، في أمة أمية لم يُعرف فيها أحد يحمل وسام العلم والتعليم ، وهذا واقع يشهد به التاريخ ، ولا مزية فيه . أما أن يكون له معلم من غير قومه فإن الباحث لا يستطيع أن يقع في التاريخ على كلمة واحدة تشهد بأنه لقي أحدا من العلماء حدثه عن الدين قبل إعلان نبوته .

حقيقة إنه رأى في طفولته بحيرا الراهب في سوق بُصرى بالشام ، ولقي في مكة ورقة بن نوفل إثر مجيء الوحي ، ولقي بعد الهجرة علماء من اليهود والنصارى ، لكن المقطوع به أنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء شيئا من الأحاديث قبل نبوته ، أما بعد النبوة ، فقد كانوا يسألونه مجادلين فيستفيدون منه ويأخذون عنه ، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ شيئا عن واحد منهم لما سكنت التاريخ عنه . لأنه ليس من الهنات الهيئات التي يتغاضى عنها الناس ، لا سيما الذين يقفون للإسلام بالمرصاد ، والكلمات التي ذكرها التاريخ عن راهب الشام أو ورقة بن نوفل كانت بشارة بنبوته عليه الصلاة والسلام ^(١) أو اعترافا بها ^(٢) .

وتقول هؤلاء الذين يزعمون أن محمدا كان يعلمه بشر : ما اسم هذا المعلم ؟ وعندئذ نرى الجواب المتهافت المتداعي في « حداد رومي » ينسبون إليه ذلك ، فكيف يستساغ عقلا أن تكون العلوم القرآنية صادرة من رجل لم تعرفه مكة عالما متفرغا لدراسة الكتب ؟ بل عرفته حدادا منهمكا في مطرقته وسندانه ،

(١) قال بحيرى عندما رأى في رسول الله صلى الله عليه وسلم سيما النبوة : « ان هذا الغلام سيكون له شأن عظيم » .

(٢) قال ورقة عندما سمع قصة النبي صلى الله عليه وسلم من صفة الوحي وقد أخذته خديجة إليه يرجف فؤاده « هذا هو التاموس الذي أنزله الله على موسى ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ، قال : أو مخرجي هم ؟ قال نعم ، لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا أؤذي ، وإن يدركني قومك انصركم مؤزرا » .

هامي الفؤاد ، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة بالنسبة إلى العرب
(ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا
لسان عربي مبين ١٠٣ - النحل) .

ولقد كان العرب أحرص الناس على دفع هذا القرآن إمعانا في خصومة محمد
صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم عجزوا ووجدوا السبل أمامهم مغلقة ، وباعت
كل محاولاتهم بالفشل ، فما للملحدين اليوم - وقد مضى نيف وثلاثة عشر
قرنا على ذلك - يبحثون في قمامات التاريخ ملتصين سبيلا من تلك السبل
الفاشلة نفسها ؟ !

وبهذا يتبين أن القرآن الكريم لا يوجد له مصدر إنساني ، لا في نفس
صاحبه ، ولا عند أحد من البشر ، فهو تنزيل الحكيم الحميد .

المكي والمدني

تولي الأمم اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكري ومقومات حضارتها ، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السبق في عنايتها بتراث الرسالة المحمدية التي شرفت بها الإنسانية جمعاء ، لأنها ليست رسالة علم أو إصلاح يحدد الاهتمام بها مدى قبول العقل لها واستجابة الناس إليها ، وإنما هي - فوق زادها الفكري وأسسها الإصلاحية - دين يخامر الألباب ويمتزج بحبات القلوب ، فتجد أعلام الهدى من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يضبطون منازل القرآن آية آية ضبطاً يحدد الزمان والمكان ، وهذا الضبط عماد قوي في تاريخ التشريع يستند إليه الباحث في معرفة أسلوب الدعوة ، وألوان الخطاب ، والتدرج في الأحكام والتكاليف ، ومما روي في ذلك ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه : « والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ ولو أعلم أن أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه » (١) .

والدعوة إلى الله تحتاج إلى نهج خاص في أسلوبها إزاء كل فساد في العقيدة والتشريع والخلق والسلوك ، ولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة

(١) أخرجه البخاري .

لها وتربية اللبنة التي تأخذ على عاتقها القيام بها ، ولا تسن أسسها التشريعية ونظمها الاجتماعية إلا بعد طهارة القلب وتحديد الغاية حتى تكون الحياة على هدى من الله وبصيرة .

والذي يقرأ القرآن الكريم يجد للآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية في وقعها ومعانيها ، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى في الأحكام والتشريع .

فحيث كان القوم في جاهلية تعمي وتصم ، يعبدون الأوثان ، ويشركون بالله ، وينكرون الوحي ، ويكذبون بيوم الدين ، وكانوا يقولون : (أئذامتنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ١٦ - الصافات) (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ٢٤ - الجاثية) وهم ألداء في الحصومة ، أهل ممارسة ولحاجة في القول عن فصاحة وبيان - حيث كان القوم كذلك نزل الوحي المكي قوارع زاجرة ، وشهبا منذرة ، وحججا قاطعة ، يحطم وثنياتهم في العقيدة ، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية والربوبية ، ويهتك أستار فسادهم ، ويسفه أحلامهم ، ويقيم دلائل النبوة ، ويضرب الأمثلة للحياة والآخرة وما فيها من جنة ونار ، ويتحداهم - على فصاحتهم - بأن يأتوا بمثل القرآن ، ويسوق إليهم قصص المكذبين الغابرين عبرة وذكرى ، فتجد في مكي القرآن ألفاظا شديدة القرع على المسامع ، تقذف حروفها شرر الوعيد والسنة العذاب ، فكلا الرادعة الزاجرة ، والصاخة والقارعة ، والغاشية والواقعة ، وألفاظ الهجاء في فواتح السور ، وآيات التحدي في ثناياها ، ومصير الأمم السابقة ، وإقامة الأدلة الكونية ، والبراهين العقلية - كل هذا نجده في خصائص القرآن المكي .

وحين تكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وامتحن في عقيدتها بأذى المشركين فصبرت وهاجرت بدينها مؤثرة ما عند الله على منع الحياة - حين تكونت هذه الجماعة - نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع ، تتناول أحكام الإسلام وحدوده ، وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، وتفصل أصول التشريع ، وتصنع قواعد

المجتمع ، وتحديد روابط الأسرة ، وصلات الأفراد ، وعلاقات الدول والأمم ،
كما تفصح المنافقين وتكشف دخيلتهم ، وتجادل أهل الكتاب وتلجم أفواههم -
وهذا هو الطابع العام للقرآن المدني .

عناية العلماء بالمكي والمدني وأمثلة ذلك وفوائده

وقد عني العلماء بتحقيق المكي والمدني عناية فائقة ، فتبعوا القرآن آية آية ،
وسورة سورة ، لترتيبها وفق نزولها ، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب ،
لا يكتفون بزمن النزول ، ولا بمكانه ، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب ،
وهو تحديد دقيق يعطي للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمي في علم المكي
والمدني ، وهو شأن علمائنا في تناولهم لمباحث القرآن الأخرى .

إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحي في جميع مراحلها ، ويتناول
آيات القرآن الكريم فيعين وقت نزولها ، ويحدد مكانه ، ويضم إلى ذلك الضوابط
القياسية لأسلوب الخطاب فيها ، أهو من قبيل المكي أم من قبيل المدني ؟ مستعينا
بموضوع السورة أو الآية ، أهو من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة
الإسلامية في مكة أم من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة في المدينة ؟
وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة رجع بينها فجعل
بعضها شبيها بما نزل في مكة ، وبعضها شبيها بما نزل في المدينة .

وإذا كانت الآيات نزلت في مكان ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها
لإبلاغها في مكان آخر ضبط العلماء هذا كذلك ، فقالوا : ما حمل من مكة
إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى مكة .

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري في كتاب التنبيه
على فضيل علوم القرآن : « من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب
ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي ،
وما نزل بمكة في أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة في أهل مكة ، وما يشبه نزول

المكي في المدني ، وما يشبه نزول المدني في المكي ، وما نزل بالجحفة ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف ، وما نزل بالحديبية ، وما نزل ليلا ، وما نزل نهارا ، وما نزل مشيّا ، وما نزل مفردا ، والآيات المدنية من السور المكية ، والآيات المكيات في السور المدنية ، وما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى مكة ، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مجملا ، وما نزل مفسرا ، وما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي ، فهذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى ^(١).

وحرص العلماء على الدقة ، فرتبوا السور حسب منازلها سورة بعد سورة ، وقالوا سورة كذا نزلت بعد سورة كذا ، وزادوا الحرص في الاستقصاء . ففرقوا بين ما نزل ليلا وما نزل نهارا ، وما نزل صيفا وما نزل شتاء ، وما نزل في الحضر وما نزل في السفر .

وأهم الأنواع التي يتدارسها العلماء في هذا المبحث :

- ١ - ما نزل بمكة - ٢ - ما نزل بالمدينة - ٣ - ما اختلف فيه - ٤ -
- الآيات المكية في السور المدنية - ٥ - الآيات المدنية في السور المكية - ٦ -
- ما نزل بمكة وحكمه مدني - ٧ - ما نزل بالمدينة وحكمه مكي - ٨ - ما يشبه نزول المكي في المدني - ٩ - ما يشبه نزول المدني في المكي - ١٠ - ما حمل من مكة إلى المدينة - ١١ - ما حمل من المدينة إلى مكة - ١٢ - ما نزل ليلا وما نزل نهارا - ١٣ - ما نزل صيفا وما نزل شتاء - ١٤ - ما نزل في الحضر وما نزل في السفر .

فهذه أنواع أساسية ، يركز محورها على المكي والمدني ، ولذا سمي هذا « بعلم المكي والمدني » .

(١) أنظر « الإتيقان في علوم القرآن » للسيوطي ج ١ ، صفحة (٨) الطبعة الثالثة للحلي .

أمثلة : -

١ ، ٢ ، ٣ - أقرب ما قيل في تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة ،
أن المدني عشرون سورة : ١ - البقرة - ٢ - آل عمران - ٣ - النساء - ٤ -
المائدة - ٥ - الأنفال - ٦ - التوبة - ٧ - النور - ٨ - الأحزاب - ٩ -
محمد - ١٠ - الفتح - ١١ - الحجرات - ١٢ - الحديد - ١٣ - المجادلة -
١٤ - الحشر - ١٥ - الممتحنة - ١٦ - الجمعة - ١٧ - المنافقون - ١٨ -
الطلاق - ١٩ - التحريم - ٢٠ - النصر .

وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة - ١ - الفاتحة - ٢ - الرعد - ٣ -
الرحمن - ٤ - الصف - ٥ - التغاين - ٦ - التطهيف - ٧ - القدر - ٨ -
البينة - ٩ - الزلزلة - ١٠ - الإخلاص - ١١ - الفلق - ١٢ - الناس .

وأن ما سوى ذلك مكي . وهو اثنتان وثمانون سورة ، فيكون مجموع سور
القرآن مائة وأربع عشرة سورة .

٤ - الآيات المكية في السور المدنية : لا يقصد بوصف السورة بأنها مكية
أو مدنية أنها بأجمعها كذلك ، فقد يكون في المكية بعض آيات مدنية ، وفي
المدنية بعض آيات مكية ، ولكنه وصف أعلي حسب أكثر آياتها ، ولذا يأتي
في التسمية : سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية ، وسورة كذا مدنية إلا
آية كذا فإنها مكية - كما نجد ذلك في المصاحف .

ومن أمثلة الآيات المكية في السور المدنية « سورة الأنفال » مدنية ، واستثنى
منها كثير من العلماء قوله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك
أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ٣٠ - الأنفال) قال مقاتل في
هذه الآية : نزلت بمكة ، وظاهرها كذلك ، لأنها تضمنت ما كان من المشركين
في دار الندوة عند تأمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة . واستثنى
بعضهم كذلك (بآيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ٦٤ - الأنفال) لما
أخرجه البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٥ - الآيات المدنية في السور المكية ، ومن أمثلة الآيات المدنية في السور المكية « سورة الأنعام » قال ابن عباس نزلت بمكة جملة واحدة . فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة (قل تعالوا أتل ... إلى تمام الآيات الثلاث - ١٥١ - ١٥٣ - الأنعام) ، و « سورة الحج » مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، من أول قوله تعالى (هذان خصمان اختصموا في ربهم .. - ١٩ - الحج) .

٦ - ما نزل بمكة وحكمه مدني . ويمثلون له بقوله تعالى (يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير - ١٣ - الحجرات) فإنها نزلت بمكة يوم الفتح ، وهي مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة ، والخطاب فيها عام ، ومثل هذا لا يسميه العلماء مكية ، كما لا يسمونه مدنيا على وجه التعيين ، بل يقولون فيه : ما نزل بمكة وحكمه مدني .

٧ - ما نزل بالمدينة وحكمه مكي : ويمثلون له بسورة الممتحنة ، فإنها نزلت بالمدينة ، فهي مدينة باعتبار المكان ، ولكن الخطاب في ثناياها توجه إلى مشركي أهل مكة ... ومثل هذا صدر سورة براءة نزل بالمدينة ، والخطاب فيه لمشركي أهل مكة .

٨ - ما يشبه نزول المكي في المدني : ويعني العلماء به ما كان في السور المدنية من آيات جاء أسلوبها في خصائصه وطابعه العام على نمط السور المكية ، ومن أمثلته قوله تعالى في سورة الأنفال - وهي مدنية (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم - ٣٢ - الأنفال) فإن استعجال المشركين للعذاب كان بمكة .

٩ - ما يشبه نزول المدني في المكي : ويعني العلماء به ما يقابل النوع السابق ، ويمثلون له بقوله تعالى في سورة النجم (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم - ٣٢ - النجم) قال السيوطي : فإن الفواحش كل ذنب

فيه حد ، والكبائر كل ذنب عاقبته النار ، واللمم ما بين الحدين من الذنوب ، ولم يكن بمكة حد ولا نحوه ^(١) .

١٠ - ما حمل من مكة إلى المدينة : ومن أمثلته سورة « سبح اسم ربك الأعلى » أخرج البخاري عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلنا يقرئنا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين . ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، فما جاء حتى قرأت (سبح اسم ربك الأعلى) في سور مثلها « وهذا المعنى مصدق على كل حملة المهاجرون من القرآن وعلموه الأنصار .

١١ - ما حمل من المدينة إلى مكة : ومن أمثلته أول سورة براءة ، حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر على الحج في العام التاسع ، فلما نزل صدر سورة براءة حمّله رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ليلحق بأبي بكر حتى يبلغ المشركين به . فأذن فيهم بالآيات وأبلغهم ألا يحج بعد العام مشرك .

١٢ - ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً : أكثر القرآن نزلاً نهاراً أما ما نزل بالليل فقد تتبعه أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري واستخرج له أمثلة منها : أواخر آل عمران ، أخرج ابن حبان في صحيحه ، وابن المنذر ، وابن مردويه وابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها : أن بلالا أتى النبي صلى الله عليه وسلم يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكي ، فقال : يا رسول الله ما يبكيك ؟ قال : وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي هذه الليلة (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب - ١٩٠ - آل عمران) ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر « ومنها : آية الثلاثة الذين خلفوا ، ففي الصحيحين من حديث كعب « فأنزل الله توبتنا حين بقي الثلث الأخير من

(١) الإتيان . ج ١ صفحة (١٨) .

الليل « ^(١) ومنها : أول سورة الفتح ، ففي البخاري من حديث عمر « لقد نزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ، فقراً (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) » .

١٣ - ما نزل صيفاً وما نزل شتاء : ويمثل العلماء لما نزل صيفاً بآية الكلاله التي في آخر سورة النساء ، ففي صحيح مسلم عن عمر : « ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ما راجعته في الكلاله ، وما أغلظ في شيء ما أغلظ لي فيه ، حتى طعن بإصبعه في صدري وقال يا عمر : ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء ؟ » ^(٢) . ومن أمثله الآيات التي نزلت في غزوة تبوك ، فإنها كانت في الصيف في شدة الحر كما في القرآن نفسه ^(٣) .

ويمثلون للشتائي بآيات حديث الإفك في سورة النور (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ... إلى قوله تعالى : لهم مغفرة ورزق كريم ١١ - ٢٦ - النور) ففي الصحيح عن عائشة « أنها نزلت في يوم شات » ومن أمثله الآيات التي في غزوة الخندق من سورة الأحزاب حيث كانت في شدة البرد . أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن حذيفة قال : « تفرق الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب إلا اثني عشر رجلاً ، فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب ، قلت يا رسول الله : والذي بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء ، من البرد ، فأنزل الله (يأياها الذين آمنوا اذكروا

(١) « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليقولوا إن الله هو التواب الرحيم ١١٧ ، ١١٨ - التوبة) وهم الذين قبل الله عذرهم في التخلف بغزوة تبوك .

(٢) (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله ١٧٦ - النساء) والكلالة كما في صريح الآية : الميت الذي لا ولد له وله مال يرث .

(٣) وقد حكى القرآن عن المنافقين قوليهم (وقالوا لا تنفروا في الحر ... ٨١ - التوبة ، فأمر الله رسوله أن يجيبهم (قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون : ٨١ - التوبة) .

نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ٩ - الأحزاب) « .

١٤ - ما نزل في الحضر وما نزل في السفر : أكثر القرآن نزل في الحضر ، ولكن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت عامرة بالجهاد والغزو في سبيل الله حيث يتنزل عليه الوحي في مسيره ، وقد ذكر السيوطي لما نزل في السفر كثيرا من الأمثلة ^(١) . منها أول سورة الأنفال ، نزلت ببدر عقب الواقعة ، كما أخرجه أحمد عن سعد بن أبي وقاص - وقوله تعالى (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ٣٤ - التوبة) أخرج أحمد عن ثوبان أنها نزلت في بعض أسفاره صلى الله عليه وسلم - وأول سورة الحج ، أخرج الترمذي والحاكم عن عمران بن حصين قال : « لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ... إلى قوله تعالى : ولكن عذاب الله شديد ١ ، ٢ - الحج) أنزلت عليه هذه وهو في سفر » - وسورة الفتح ، أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : « نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها » .

فوائد العلم بالمكي والمدني : -

وللعلم بالمكي والمدني فوائد أهمها :

١ - الاستعانة به في تفسير القرآن : فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيراً صحيحاً ، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يميز بين الناسخ والمنسوخ ، فإن المتأخر يكون ناسخاً للمتقدم .

ب - تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله ، فإن لكل مقام مقالا ، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة ، وخصائص

(١) صفحة (١٨) وما بعدها في الإتيان ج ١ .

أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهاجا لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب ، ويمتلك عليه لبه ومشاعره ، ويعالج فيه دخليته بالحكمة البالغة ، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها ، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم ، ويبدو هذا واضحا جليا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب .

ج - الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية :

فإن تتابع الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم سابر تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والعهد المدني منذ بدأ الوحي حتى آخر آية نزلت ، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالا للشك فيما روي عن أهل السير موافقا له ، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات .

معرفة المكي والمدني وبيان الفرق بينهما

اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسيين : المنهج السماعي الثقلي ، والمنهج القياسي الاجتهادي .

والمنهج السماعي الثقلي يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحي ، وشاهدوا نزوله ، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه ، ومعظم ما ورد في المكي والمدني من هذا القبيل ، وفي الأمثلة السابقة خير دليل على ذلك ، وقد حفلت بها كتب التفسير بالمأثور ، ومؤلفات أسباب النزول ، ومباحث علوم القرآن ، ولم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء في ذلك ، حيث إنه ليس من الواجبات التي تجب على الأمة إلا بالقدر الذي يعرف به الناسخ والمنسوخ ، قال القاضي أبو بكر ابن الطيب الباقلاني في « الانتصار » « إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين ، ولم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك قول لأنه لم

يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب في بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ النسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول » (١) .

والمنهج القياسي الاجتهادي يستند إلى خصائص المكي وخصائص المدني ، فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني أو تتضمن شيئا من حوادثه قالوا إنها مدنية ، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي أو تتضمن شيئا من حوادثه قالوا إنها مكية ، وإذا وجد في السورة خصائص المكي قالوا إنها مكية ، وإذا وجد فيها خصائص المدني قالوا إنها مدنية ، وهذا قياس اجتهادي ، ولذا قالوا مثلا : كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية ، وكل سورة فيها فريضة أو حد مدنية ، وهكذا ، قال الجعبري : « لمعرفة المكي والمدني طريقان : سماعي وقياسي » (٢) ولا شك أن السماعي يعتمد على النقل ، والقياس يعتمد على العقل ، والنقل والعقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمي .

الفرق بين المكي والمدني : -

للعلماء في الفرق بين المكي والمدني ثلاثة آراء اصطلاحية ، كل رأي منها بني على اعتبار خاص .

الأول : اعتبار زمن النزول : فالمكي : ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة ، والمدني : ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة ، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة : أو عرفة مدني ، كالذي نزل عام الفتح ، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ٣ - المائدة) (٣) وهذا الرأي أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده .

(١) أنظر الإتيقان صفحة (٩) ج ١ .

(٢) أنظر الإتيقان ، صفحة (١٧) ج ١ .

(٣) في الصحيح عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع .

الثاني : اعتبار مكان النزول : فالمكي : ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية . **والمدني :** ما نزل بالمدينة وما جاورها كأحد وقباء وشلح .

ويترتب على هذا الرأي عدم ثنائية القسمة وحصرها ، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة ، فلا يسمى مكيا ولا مدنيا ، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكيا .

الثالث : اعتبار المخاطب ، فالمكي : ما كان خطابا لأهل مكة ، **والمدني :** ما كان خطابا لأهل المدينة .

وينبغي على هذا الرأي عند أصحابه أن ما في القرآن من قوله تعالى (يا أيها الناس) مكي ، وما فيه من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) مدني .

وبالملاحظة يتبين أن أكثر سور القرآن لم تفتح بأحد الخطابين ، وأن هذا الضابط لا يطرد ، فسورة البقرة مدنية ، وفيها (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ٢١ - البقرة) وقوله تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ١٦٨ - البقرة) وسورة النساء مدنية وأولها (يا أيها الناس) وسورة الحج مكية ، وفيها (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ٧٧ - الحج) والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين ، ويجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسمهم وجنسهم ، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منها .

مميزات المكي والمدني

استقرأ العلماء السور المكية والسور المدنية ، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكي والمدني ، تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التي يتناولها . وخرجوا من ذلك بقواعد ومميزات .

ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية .

- ١ - كل سورة فيها سجدة فهي مكية .
 - ٢ - كل سورة فيها لفظ (كلا) فهي مكية ، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن .
 - ٣ - كل سورة فيها (يأيها الناس) وليس فيها (يأيها الذين آمنوا) فهي مكية ، إلا سورة الحج ففي أواخرها (يأيها الذين آمنوا أركعوا أو اسجدوا) ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك .
 - ٤ - كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة .
 - ٥ - كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة كذلك .
 - ٦ - كل سورة تفتح بحروف التهجي كـ « ألم » و « الر » و « حم » ونحو ذلك فهي مكية سوى الزهراوين : وهما البقرة وآل عمران ، واختلفوا في سورة الرعد .
- هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي :
- ١ - الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، وإثبات الرسالة ، وإثبات البعث والجزاء ، وذكر القيامة وهولها ، والنار وعذابها ، والجنة ونعيمها ، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية ، والآيات الكونية .
 - ٢ - وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع ، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء ، وأكل أموال اليتامى ظلماً ، وواد البنات ، وما كانوا عليه من سوء العادات .
 - ٣ - ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير المكذابين قبلهم ، وتسليةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم .

٤ - قصر الفواصل مع قوة الألفاظ ، وإيجاز العبارة ، بما يصحح الآذان ، ويشند قرعه على المسامع ، ويصعق القلوب ، ويؤكد المعنى بكثرة القسم ، كقصار المفصل إلا نادرا .

ضوابط المدني ومميزاته الموضوعية : -

- ١ - كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية .
 - ٢ - كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سنوى العنكبوت فإنها مكية
 - ٣ - كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية .
- هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي :
- ١ - بيان العبادات ، والمعاملات ، والحدود ، ونظام الأسرة ، والمواثيق وفضيلة الجهاد ، والصلات الاجتماعية ، والعلاقات الدولية في السلم والحرب ، وقواعد الحكم ، ومسائل التشريع .
 - ٢ - مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وبيان تحريفهم لكتب الله ، وتجنبيهم على الحق ، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم .
 - ٣ - الكشف عن سلوك المنافقين ، وتحليل نفسياتهم ، وإزاحة الستار عن خباياهم ، وبيان خطرهم على الدين .
 - ٤ - طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ووراميتها .

مَعْرِفَةُ أَوَّلِ مَا نَزَلَ وَأَخِرَ مَا نَزَلَ

التعبير عن تلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن بنزوله عليه يشعر بقوة يلمسها المرء في تصور كل هبوط من أعلى . ذلك لعلو منزلة القرآن وعظمة تعاليمه التي حولت مجرى حياة البشرية وأحدثت فيها تغييراً ربط السماء بالأرض ، ووصل الدنيا بالآخرة ، ومعرفه تاريخ التشريع الإسلامي في مصدره الأول والأصيل - وهو القرآن - تعطي الدارس صورة عن التدرج في الأحكام ومناسبة كل حكم للحالة التي نزل فيها دون تعارض بين السابق واللاحق ، وقد تناول هذا أول ما نزل من القرآن على الإطلاق وآخر ما نزل على الإطلاق ، كما تناول أول ما نزل وآخر ما نزل في كل تشريع من تعاليم الإسلام ، كالأطعمة ، والأشربة ، والقتال ، ونحو ذلك .

وللعلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ، وآخر ما نزل كذلك أقوال ، نجملها ونرجح بينها فيما يأتي :

أول ما نزل :

١ - أصح الأقوال أن أول ما نزل هو قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ،

علم الإنسان ما لم يعلم) ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حجب اليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء ، فعجاءه الملك فيه فقال اقرأ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال اقرأ ، فقلت ما أنا بقارئ ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ ، فقلت ما أنا بقارئ ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق) حتى بلغ (ما لم يعلم) فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره ... » الحديث .

٢ - وقيل أن أول ما نزل هو قوله تعالى : « يا أيها المدثر » لما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت جابر بن عبد الله : أي القرآن أنزل قبل ؟ قال : يا أيها المدثر ، قلت : أو اقرأ باسم ربك ؟ قال : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادي ، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالى ، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو - يعني جبريل - فأخذني رجفة ، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني ، فأنزل الله (يا أيها المدثر ، قم فأندر) .

وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان عن نزول سورة كاملة ، فبين جابر أن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة اقرأ ، فإن أول ما نزل منها صدرها - ويؤيد هذا ما في الصحيحين أيضاً عن أبي سلمة عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : بينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرجعت ، فقلت : زملوني ، فدثروني ، فأنزل الله « يا أيها المدثر » فهذا الحديث يدل على أن هذه القصة

متأخرة عن قصة حراء - أو تكون المدثر أول سورة نزلت بعد فترة الوحي - وقد استخرج جابر ذلك باجتهاده فتقدم عليه رواية عائشة . ويكون أول ما نزل من القرآن على الإطلاق « اقرأ » وأول سورة نزلت كاملة ، أو أول ما نزل بعد فترة الوحي « يأياها المدثر » .

٣ - وقيل إن أول ما نزل هو سورة « الفاتحة » .

٤ - وقيل : « بسم الله الرحمن الرحيم » ودليل هذين أحاديث مرسلة ، والقول الأول المؤيد بحديث عائشة هو القوي الراجح المشهور .

آخر ما نزل :

١ - قيل آخر ما نزل آية الربا : لما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال : « آخر آية نزلت آية الربا » والمراد بها قوله تعالى (يأياها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا) الآية ^(١) .

٢ - وقيل آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ...) الآية ، لما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس وسعيد بن جبير : « آخر شيء نزل من القرآن (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) الآية ^(٢) » .

٣ - وقيل آخر ما نزل آية الدين ، لما روي عن سعيد بن المسيب : « انه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين » والمراد بها : (يأياها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) الآية ^(٣) .

ويجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ، آية الربا ، آية « واتقوا يوماً » آية الدين ، لأنها في قصة واحدة .

(١) الآية (٢٧٨) البقرة .

(٢) الآية (٢٨١) البقرة .

(٣) الآية (٢٨٢) البقرة .

فأخبر كل راو عن بعض ما نزل بأنه آخر ، وذلك صحيح ، وبهذا لا يقع التناقض بينها .

٤ - وقيل آخر ما نزل آية الكلاله . فقد روى الشيخان عن البراء بن عازب قال : آخر آية (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله) الآية ^(١) وحملت الأخيرة هنا في قول البراء على أنها مقيدة بما يتعلق بالمواريث .

٥ - وقيل آخر ما نزل قوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة . ففي المستدرک عن أبي بن كعب قال : آخر آية نزلت (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة ^(٢) .

٦ - وعن ابن عباس قال : آخر سورة نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) .

وهذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وكل قال بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن . ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من الرسول ، أو قال ذلك باعتبار آخر ما نزل في تشريع خاص أو آخر سورة نزلت كاملة .

أما قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ٣ - المائدة) فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع ، ويدل ظاهرها على إكمال الفرائض والأحكام ، وقد سبقت الإشارة إلى ما روي في نزول آية الربا ، وآية الدين ، وآية الكلاله ، وغيرها بعد ذلك . لذا حمل كثير من العلماء إكمال الدين في هذه الآية على أن الله أتم عليهم نعمته بتمكينهم من البلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، وحجهم وحدهم دون أن يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين ، وقد كان المشركون يحجون معهم من قبل وذلك من تمام النعمة (وأتممت عليكم نعمتي) قال القاضي أبو بكر الباقلاني في « الانتصار » معلقاً على اختلاف الروايات في آخر ما نزل « هذه الأقوال

(١) الآية (١٧٦) النساء .

(٢) (١٢٨ ، ١٢٩) التوبة .

ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ما قاله ضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو ، ويحتمل أيضا أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول صلى الله عليه وسلم مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك ، فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب « (١) » .

أوائل موضوعية :

وتناول العلماء أوائل ما نزل بالنسبة إلى موضوعات خاصة ، ومن ذلك :

١ - أول ما نزل في الأطعمة : أول آية نزلت بمكة آية الأنعام

(قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ١٤٥ - الأنعام) .

ثم آية النحل (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون ، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ١١٤ ، ١١٥ - النحل) .

ثم آية البقرة (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ١٧٣ - البقرة) .

ثم آية المائدة (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تحوشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ٣ - المائدة) .

(١) أنظر الإتيان صفحة (٢٧) ج ١ .

٢ - أول ما نزل في الأشربة : أول آية نزلت في الخمر آية البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ٢١٩ - البقرة) .

ثم آية النساء (يأياها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ٤٣ - النساء) .

ثم آية المائدة (يأياها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ٩٠ ، ٩١ - المائدة) .

عن ابن عمر قال : « نزل في الخمر ثلاث آيات ، فأول شيء (يسألونك عن الخمر والميسر) الآية . فقل حرمت الخمر ، فقالوا يا رسول الله : دعنا نتنفع بها كما قال الله ، فسكت عنهم ، ثم نزلت هذه الآية (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فقل حرمت الخمر ، فقالوا يا رسول الله ألا نشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم ثم نزلت (يأياها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمت الخمر » (١) .

٣ - أول ما نزل في القتال : عن ابن عباس قال : أول آية نزلت في القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ٣٩ - الحج) (٢) .

(١) رواه الطيالسي في مسنده .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک .

أَسْبَابُ النَّزُولِ

نزل القرآن ليهدي الإنسانية إلى المحجة الواضحة ، ويرشدها إلى الطريق المستقيم ، ويقيم لها أسس الحياة الفاصلة التي تقوم دعائمها على الإيمان بالله ورسالاته ، ويقرر أحوال الماضي ، ووقائع الحاضر ، وأخبار المستقبل .

وأكثر القرآن نزول ابتداء لهذه الأهداف العامة ، ولكن الصحابة رضي الله عنهم في حياتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شاهدوا أحداث السيرة ، وقد يقع بينهم حادث خاص يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه ، أو يلتبس عليهم أمر فيسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه ، فيتنزل القرآن لذلك الحادث ، أو لهذا السؤال الطارئ ، ومثل هذا يعرف بأسباب النزول .

غناية العلماء به :

وقد اعتنى الباحثون في علوم القرآن بمعرفة سبب النزول ، ولمسوا شدة الحاجة إليه في تفسير القرآن فأوردته جماعة منهم بالتأليف ، ومن أشهرهم : « علي بن المديني » شيخ البخاري ، ثم « الواحدي »^(١) في كتابه : أسباب النزول ، ثم

(١) هو أبو الحسن علي بن أحمد النحوي المفسر ، توفي سنة ٤٢٧ هجرية .

« الجعبري » ^(١) الذي اختصر كتاب « الواحدي » بحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئاً ، ثم شيخ الإسلام « ابن حجر » ^(٢) الذي ألف كتاباً في أسباب النزول أطلع السيوطي على جزء من مسودته ولم يتيسر له الوقوف عليه كاملاً ، ثم « السيوطي » ^(٣) الذي قال عن نفسه : « وقد ألفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله في هذا النوع ، سميته « لباب المنقول في أسباب النزول » ^(٤) .

ما يعتمد عليه في معرفة سبب النزول

والعلماء يعتمدون في معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن الصحابة ، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحاً لا يكون بالرأي ، بل يكون له حكم المرفوع ، قال الواحدي : « لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسمع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلب » وهذا هو نهج علماء السلف ، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئاً في ذلك دون تثبت ، قال « محمد بن سيرين » ^(٥) « سألت « عبدة » عن آية من القرآن فقال : اتق الله وقل سداً ، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن » وهو يعني الصحابة . وإذا كان هذا هو قول « ابن سيرين » من أعلام علماء التابعين تحريماً للرواية ، ودقة في الفصل ، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة ،

(١) هو برهان الدين إبراهيم بن عمر ، كان له عناية بعلوم القرآن ، ألف « روضة الطوائف في رسم المصاحف » و « كنز المعاني » وهو شرح للشاطبية في القراءات ، توفي سنة ٧٣٢ هجرية .
(٢) هو أبو الفضل شهاب الدين الحافظ ابن حجر المسقلاني واسمه أحمد بن علي . ينسب إلى عقلان بفلسطين . كان له عناية بالحديث ، واشتهر بعلومه ، وكتبه عماد في هذا الفن - توفي سنة ٨٥٢ هجرية .

(٣) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية

(٤) انظر الإتيقان صفحة (٢٨) ج ١

(٥) تابعي من علماء البصرة ، اشتهر بعلوم الحديث ، وتعبير الرؤيا ، وتوفي سنة ١١٠ هجرية .

ولذا فإن المعتمد من ذلك فيما روي من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند ، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول .

وذهب « السيوطي » إلى أن قول التابعي إذا كان صريحا في سبب النزول فإنه يقبل ، ويكون مرسلا ، إذا صح المسند إليه وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كجهاد وعكرمة وسعيد بن جبير ، واعتضد بمرسل آخر ^(١) .
وقد أخذ « الواحدي » على علماء عصره تساهلهم في رواية سبب النزول ، ورماهم بالإفك والكذب ، وحذرهم من الوعيد الشديد ، حيث يقول : « أما اليوم فكل أحد يخترع شيئا ، ويخلق إفكا وكذبا ، ملقيا زمامه إلى الجهالة ، غير مفكر في الوعيد للجاهل بسبب الآية » .

تعريف السبب

وسبب النزول بعد هذا التحقيق يكون قاصرا على أمرين : —

١ — أن تحدث حادثة فيتنزل القرآن الكريم بشأنها ، وذلك كالذي روي عن ابن عباس قال : « لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) ^(٢) خرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فهتف : يا صباحاه (فاجتمعوا إليه) ، فقال : رأيتمكم لو أخبرتمكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب ^(٣) : تبأ لك ، إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام ، فنزلت هذه السورة (تبت يدا أبي لهب وتب) ^(٤) » .

٢ — أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فيتنزل القرآن ببيان

(١) انظر الإتيقان صفحة (٣١) ج ١

(٢) الآية (٢١٤) الشعراء

(٣) اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم

(٤) أخرجه البخاري ومسلم وغيرها .

الحكم فيه ، كالذي كان من خولة بنت ثعلبة عندما ظاهر ^(١) منها زوجها أوس بن الصامت ، فذهبت تشتكي من ذلك : عن عائشة قالت : « تبارك الذي وسع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي تقول : يا رسول الله ، أكل شبابي ونثر له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني ! اللهم إني أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) وهو أوس بن الصامت » ^(٢) .

ولا يعني هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سببا ، فإن القرآن لم يكن نزوله وقفا على الحوادث والوقائع ، أو على السؤال والاستفسار ، بل كان القرآن ينزل ابتداء ، بعقائد الإيمان ، وواجبات الاسلام ، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد وحياة الجماعة ، قال « الجعبري » : « نزل القرآن على قسمين : قسم نزل ابتداء ، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال » ^(٣)

ولذا يعرف سبب النزول بما يأتي :

هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال .

ومن الإفراط في علم سبب النزول أن نتوسع فيه ، ونجعل منه ما هو من قبيل الأخبار عن الأحوال الماضية ، والوقائع الغابرة ، قال « السيوطي » والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ، ليخرج ما ذكره الواحد في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء ، بل هو من باب الأخبار عن الوقائع الماضية ، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك ، وكذلك ذكره في قوله

(١) الظهار : ان يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، واختلفوا في غير هذه الصيغة .

(٢) أخرجه ابن ماجة وابن أبي حاتم - والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي -

(٣) انظر الاتقان ، صفحة (٢٨) ج ١ .

(واتخذ الله إبراهيم خليلاً)^(١) سبب اتخاذه خليلاً ، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى »^(٢)

فوائد معرفة سبب النزول

لمعرفة سبب النزول فوائد أهمها : -

١ - بيان الحكمة التي دعت إلى تشريع حكم من الأحكام ، وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة في علاج الحوادث رحمة بالامة .

ب - تخصيص حكم ما نزل ان كان بصيغة العموم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ، وهي مسألة خلافية سيأتي لها مزيد من الإيضاح ، وقد يمثل لهذا بقوله تعالى (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ١٨٨ - آل عمران) « فقد روي أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ مما فرح بما أوتي وأحب أن يحمدا بما لم يفعل يعذبوا لعذبين أجمعون ، فقال ابن عباس : ما لكم ولهذا الآية ، إنما نزلت في أهل الكتاب . ثم تلا (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب .. - ١٨٧ - آل عمران) الآية قال ابن عباس : سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخذوا بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم عنه »^(٣)

ح - إذا كان لفظ ما نزل عاماً وورد دليل على تخصيصه فمعرفة السبب تقصر التخصيص على ما عدا صورته ، ولا يصح إخراجها ،

(١) الآية (١٢٥) النساء

(٢) انظر الإتيان - صفحة (٣١) ج ١

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما

لأن دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعي ، فلا يجوز إخراجها بالاجتهاد لأنه ظني ، وهذا هو ما عليه الجمهور وقد يمثل لهذا بقوله تعالى (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ٢٣ - ٢٥ - النور) فإن هذه الآية نزلت في عائشة خاصة ، أو فيها وفي سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، « عن ابن عباس في قوله (إن الذين يرمون المحصنات) الآية : نزلت في عائشة خاصة » ^(١) وعن ابن عباس في هذه الآية أيضا « هذه في عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة ، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم التوبة - ثم قرأ (والذين يرمون المحصنات ... إلى قوله ... إلا الذين تابوا - ٤ ، ٥ - النور) » ^(٢) وعلى هذا فإن قبول توبة القاذف وإن كان مخصصا لعموم قوله تعالى (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) لا يتناول بالتخصيص من قذف عائشة ، أو قذف سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا لا توبة له ، لأن دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعي .

د - ومعرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معاني القرآن ، وكشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات في تفسيرها ما لم يعرف سبب نزولها ، قال « الواحدي » لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها « وقال ابن دقيق العيد » « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن » وقال « ابن تيمية » « معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب » ^(٣) ومن أمثلة ذلك : ما أشكل على مروان بن الحكم في فهم الآية

(١) أخرجه ابن أبي حاتم - وإلحاقه وصححه ، وابن مردويه

(٢) أخرجه سديد بن منصور وابن جرير والطبراني وابن مردويه (راجع تفسير ابن جرير ، وتفسير ابن كثير) .

(٣) انظر الاتقان . صفحة (٢٨) ج ١ .

الآئفة الذكر (لا تحسن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب . ولهم عذاب أليم ١٨٨ - آل عمران) حتى أورد له ابن عباس سبب النزول .

ومثله آية (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ١٥٨ - البقرة) فإن ظاهر لفظ الآية لا يقتضي أن السعي فرض ، لأن رفع الجناح يفيد الإباحة لا الوجوب ، وذهب بعضهم إلى هذا تمسكا بالظاهر ^(١) ، وقد ردت عائشة على عروة بن الزبير في فهمه ذلك بما ورد في سبب نزولها ، وهو أن الصحابة تأثموا من السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية ، حيث كان على الصفا إساف ، وعلى المروة نائلة ، وهما صنمان ، وكان أهل الجاهلية إذا سعا مسحوهما : « عن عائشة أن عروة قال لها : رأيت قول الله (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) ؟ فما أرى على أحد جناحا أن لا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : بئس ما قلت يا ابن أخي ، إنها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت ، إن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها ، وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله (إن الصفا والمروة من شعائر الله) الآية قالت عائشة : ثم قد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما » ^(٢) .

هـ - ويوضح سبب النزول من نزلت فيه الآية حتى لا تحمل على غيره بدافع الخصومة والتحامل . كالذي ذكر في قوله تعالى (والذي قال لوالديه أفك لكم أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك

(١) حكى الزخشي في الكشف عن أبي حنيفة أنه يقول : إن السعي واجب وليس بركن وعلى تاركه دم - وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين .

(٢) أخرجه الشيخان وغيرهما .

آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ١٧ - الأحقاف) فقد أراد « معاوية » أن يستخلف « يزيد » وكتب إلى « مروان » عامله على المدينة بذلك ، فجمع الناس وخطبهم ودعاهم إلى بيعة « يزيد » فأبى عبد الرحمن بن أبي بكر أن يبايع ، فأراده « مروان » بسوء لولا أن دخل بيت عائشة ، وقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه (والذي قال لوالديه ، أف لكما أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي) فردت عليه عائشة وبينت له سبب نزولها ، « عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبي سفيان ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أنزل فيه (والذي قال لوالديه أف لكما) فقالت عائشة : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري » (١) وفي بعض الروايات « أن مروان لما طلب البيعة ليزيد قال : سنة أبي بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن : سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان : هذا الذي قال الله فيه (والذي قال لوالديه أف لكما) الآية ، فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب مروان ، والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمى الذي نزلت فيه لسميته » (٢) .

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

إذا اتفق ما نزل مع السبب في العموم ، أو اتفق معه في الخصوص ، حمل العام على عمومته ، والخاص على خصوصه .

ومثال الأول قوله تعالى (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن

(١) أخرجه البخاري

(٢) أخرجه عبد بن حميد والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن محمد بن زياد ، قال : لما يبايع مروان لابنه قال مروان : الخ ..

الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ٢٢٢ - البقرة) عن أنس قال : « إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجمعوها في البيوت ، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فأَنزل الله (ويسألونك عن المحيض) الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جامعوهن في البيوت ، واصنعوا كل شيء إلا النكاح » (١) .

ومثال الثاني قوله (وسيجنبها الأتقى) الذي يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ١٧ - ٢١ - الليل) فإنها نزلت في أبي بكر ، والأتقى : أفعل تفضيل مقرون بأل العهدية فيختص بمن نزل فيه ، وإنما تفيد آل العموم إذا كانت موصولة أو معرفة في جمع على الراجع ، وأل في الأتقى ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل ، والأتقى ليس جمعا بل هو مفرد ، والعهد موجود لا سيما وأن صيغة أفعل تدل على التمييز ، وذلك كاف في قصر الآية على من نزلت فيه : ولذا قال الواحدي : الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين : « عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يغضب في الله : بلال ، وعامر بن فهيرة ، والنهدية وابنتها ، وأم عيسى ، وأمة بني الموثل ، وفيه نزلت (وسيجنبها الأتقى) إلى آخر السورة » (٢) . وروى نحوه عن عامر بن عبد الله بن الزبير وزاد فيه : « فنزلت فيه هذه الآية (فأما من أعطى واتقى) إلى قوله (وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى) » (٣) .

أما إذا كان السبب خاصا ونزلت الآية بصيغة العموم فقد اختلف الأصوليون : أتكون العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب ؟

١ - فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ،

(١) أخرجه مسلم وأهل السنن وغيرهم .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه الحاكم وصححه .

فالحكم الذي يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها ،
 كآيات اللعان التي نزلت في قذف هلال بن أمية زوجته « فعن ابن عباس :
 أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء .
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم : البينة وإلا حد في ظهرك ، فقال : يا رسول
 الله : إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يقول : البينة وإلا حد في ظهرك ، فقال هلال : والذي
 بعثك بالحق إنني لصادق ، ولينزلن الله ما يبريء ظهري من الحد ، ونزل جبريل
 فأنزل عليه (والذين يرمون أزواجهم) حتى بلغ (إن كان من الصادقين ٦ - ٩ -
 النور) ^(١) ... فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام (والذين يرمون أزواجهم)
 غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر .

وهذا هو الرأي الراجح والأصح ، وهو الذي يتفق مع عموم أحكام الشريعة ،
 والذي سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدوا بحكم الآيات إلى غير
 صورة سببها . كنزول آية الظهار في أوس بن الصامت ، أو سلمة بن صخر -
 على اختلاف الروايات في ذلك ، والاحتجاج بعموم آيات نزلت على أسباب
 خاصة شائع لدى أهل العلم ، قال ابن تيمية : « قد يجيء كثيرا من هذا
 الباب قولهم : هذه الآية نزلت في كذا ، لا سيما إن كان المذكور شخصا
 كقولهم : إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت ، وأن آية الكلاله نزلت
 في جابر بن عبد الله ، وأن قوله (وأن أحكم بينهم) ^(٢) نزلت في بني قريظة
 والنضير ، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة ، أو في
 قوم من اليهود والنصارى ، أو في قوم من المؤمنين ، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا
 أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، هذا لا يقوله مسلم ولا
 عاقل على الإطلاق ، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل
 يختص بسببه فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين ،

(١) أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه .

(٢) الآية ٤٩ - المائدة

ولأنها غاية ما يقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص ، فتعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ ، والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرا أو نهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره من كان بمنزله ، وإن كانت خبرا يمدح أو يذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزله .

٢ - وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ، فاللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص ، ولا بد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس ونحوه ، حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة ، ويتطابق السبب والمسبب تطابق السؤال والجواب .

صيغة سبب النزول

صيغة سبب النزول إما أن تكون نصا صريحا في السببية ، وإما أن تكون محتملة .

فتكون نصا صريحا في السببية إذا قال الراوي : « سبب نزول هذه الآية كذا » أو إذا أتى بفاء تعقيبية داخلية على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال ، كما إذا قال : « حدث كذا » أو « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كذا فنزلت الآية » - فهاتان صيغتان صريحتان في السببية سيأتي لهما أمثلة (١)

وتكون الصيغة محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام إذا قال الراوي : « نزلت هذه الآية في كذا » فذلك يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أنه داخل في معنى الآية .

وكذلك إذا قال : « أحسب هذه الآية نزلت في كذا » أو « ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا » فإن الراوي بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب - فهاتان صيغتان تحتلان السببية وغيرها كذلك . ومثال الصيغة الأولى ما روي عن ابن

(١) انظر أمثلة تعدد الروايات في سبب النزول التي ستأتي بعد هذه الفقرة .

عمر رضي الله عنه قال : « أنزلت (نساؤكم حرث لكم) ^(١) الآية في إتيان النساء في أدبارهن » ^(٢) .

ومثال الصيغة الثانية ما روي عن عبد الله بن الزبير « أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرة ، وكانا يسقيان به كلاهما النخل ، فقال الأنصاري سرح الماء يمر ، فأبى عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسق يا زبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك ، فغضب الأنصاري وقال : يا رسول الله ، أن كان ابن عمك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اسق يا زبير ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك . واستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له وللأنصاري ، فلما أحفظ رسول الله الأنصاري استوعى للزبير حقه في صريح الحكم ، فقال الزبير : ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ٦٥ - النساء) » ^(٣) قال ابن تيمية : « قولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب ، وقد تنازع العلماء في قول الصحابي : نزلت هذه الآية في كذا ، هل يجري مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند ؟ فالبخاري يدخله في المسند ، وغيره لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره ، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند » ^(٤) وقال الزركشي في

(١) الآية ٢٢٣ - البقرة .

(٢) أخرجه البخاري .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم .

(٤) المراد بالإسناد هنا أن يكون مسنداً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بمعنى أن يكون مرفوعاً . وإن كان من قول الصحابي ، لأنه لا مجال للاجتهاد فيه .

البرهان « قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع » ^(١)

تعدد الروايات في سبب النزول

قد تتعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة ، وفي مثل هذه الحالة يكون موقف المفسر منها على النحو الآتي : -

أ - إذا لم تكن الصيغة الواردة صريحة مثل : « نزلت هذه الآية في كذا » أو « أحسبها نزلت في كذا » فلا منافاة بينها ، إذ المراد التفسير ، وبيان أن ذلك داخل في الآية ومستفاد منها ، وليس المراد ذكر سبب النزول ، إلا إن قامت قرينة على واحدة بأن المراد بها السببية .

ب - إذا كانت إحدى الصيغ غير صريحة كقوله « نزلت في كذا » وصرح آخر بذكر سبب مخالف فالمعتمد ما هو نص في السببية ، وتحمل الأخرى على دخولها في أحكام الآية ، ومثال ذلك ما ورد في سبب نزول قوله تعالى (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) ^(٢) « عن نافع قال : قرأت ذات يوم (نساؤكم حرث لكم) فقال ابن عمر : أتدري فيم أنزلت هذه الآية ؟ قلت : لا ، قال : نزلت في إتيان النساء في أدبارهن » ^(٣) فهذه الصيغة من ابن عمر غير صريحة في السببية ، وقد جاء التصريح بذكر سبب يخالفه « عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول ، فنزلت (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) » ^(٤) فجابر هو المعتمد لأن

(١) انظر الاتقان صفحة (٣١) ج ١

(٢) الآية ٢٢٣ - البقرة .

(٣) أخرجه البخاري وغيره .

(٤) أخرجه البخاري وأهل السنن وغيرهم

كلامه نقل صريح ، وهو نص في السبب ، أما كلام ابن عمر فليس بنص فيحمل على أنه استنباط وتفسير .

ج - وإذا تعددت الروايات وكانت جميعها نصا في السببية وكان إسناد أحدها صحيحا دون غيره فالمتعمد الرواية الصحيحة ، مثل : ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب البجلي قال : « اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا ، فأتته امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، لم يقربك ليلتين أو ثلاثا ، فأنزل الله (والضحي والليل إذا سجي ، ما ودعك ربك وما قلى) » وأخرج الطبراني وابن أبي شيبه عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمتها ، وكانت خادما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إن جروا دخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل تحت السرير ، فمات ، فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي ، فقال : يا خولة ، ما حدث في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ جبريل لا يأتيني ! فقلت في نفسي : لو هيات البيت وكنته ، فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فأخرجت الجرو ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ترعد لحيته ، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة ، فأنزل الله (والضحي) إلى قوله (فترضى) .. قال ابن حجر في شرح البخاري : « قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريب ، وفي إسناده من لا يعرف ، فالمتعمد ما في الصحيحين » ^(١) .

د - فإذا تساوت الروايات في الصحة ووجد وجه من وجوه الترجيح كحضور القصة مثلا أو كون إحداها أصح قدمت الرواية الراجحة ، ومثال ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال : « كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وهو يتوكأ على عسيب ، فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : لو سألتموه ، فقالوا : حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ورفع رأسه ، فعرفت أنه يوحى إليه ، حتى صعد الوحي ، ثم قال (قل الروح من أمر ربي

(١) انظر الإتيان . صفحة (٣٢) ج ١

وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (١) » وقد أخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس قال : « قالت قرينش لليهود : أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : لسألوه عن الروح ، فسألوه فأنزل الله (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) الآية » فهذه الرواية تقتضي أنها نزلت بمكة حيث كانت قرينش . والرواية الأولى تقتضي أنها نزلت بالمدينة ، وترجح الرواية الأولى لحضور ابن مسعود القصة . ثم لما عليه الأمة من تلقي صحيح البخاري بالقبول وترجيحه على ما صح في غيره .

هـ - إذا تساوت الروايات في الترجيح جمع بينها إن أمكن ، فتكون الآية قد نزلت بعد السبيين أو الأسباب لتقارب الزمن بينها ، كآيات اللعان (والذين يرمون أزواجهم ... الآيات ٦ - ٩ - النور) فقد أخرج البخاري والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس أنها نزلت في هلال بن أمية ، قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء ، كما ذكرنا من قبل (٢) .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال : « جاء عويمر إلى عاصم بن عدي ، فقال : سل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل وجد مع امرأته رجلا أيقنله فيقتل به أم كيف يصنع ؟ ... » فجمع بينهما بوقوع حادثة هلال أولا ، وصادف محيي عويمر كذلك . فنزلت في شأنهما معا بعد حادثتيهما . قال ابن حجر : « لا مانع من تعدد الأسباب .

و - إن لم يمكن الجمع لتباعد الزمن فإنه يحمل على تعدد النزول وتكرره ، ومثاله : ما أخرجه الشيخان عن المسيب قال : « لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : أي عم ، قل : لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزلوا يكلمانه حتى قال :

(١) الآية (٨٥) الإسراء

(٢) انظر صفحة (٧٠) العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

هو على ملة عبد المطلب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأستغفرون لك ما لم أنه عنه ، فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ...) الآية (١) .

وأخرج الترمذي عن علي قال « سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت .

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود قال : « خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوما إلى المقابر ، فجلس إلى قبرٍ منها ، فواجه طويلاً ثم بكى ، فقال : إن القبر الذي جلست عنده قبر أُمِّي ، ولاني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي ، فأُنزل علي (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ... ») فجمع بين هذه الروايات بتعدد النزول .

ومن أمثله كذلك ما روي عن أبي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به ، فقال : لأمثلن بسبعين منهم مكانك ، فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم سورة النحل (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ...) إلى آخر السورة (٢) » (٣) فهذا يدل على نزولها يوم أحد .

وجاء في رواية أخرى أنها نزلت يوم فتح مكة (٤) ، والسورة مكية ، فجمع بين ذلك ، بأنها نزلت بمكة قبل الهجرة مع السورة ، ثم بأحد ، ثم يوم الفتح ، ولا مانع من ذلك لما فيه من التذكير بنعمة الله على عباده واستحضار شريعته ، قال الزركشي في البرهان : « وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه ، وتذكيراً

(١) ١١٣ - التوبة

(٢) الآيات ١٢٦ - ١٢٨ - النحل

(٣) أخرجه البيهقي والبراز عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب

عند حدوث سببه خوف نسيانه ، كما قيل في الفاتحة ، نزلت مرتين : مرة بمكة ، وأخرى بالمدينة .

والخلاصة أن سبب النزول إذا تعدد : فإما أن يكون الجميع غير صريح ، وإما أن يكون الجميع صريحا ، وإما أن يكون بعضه غير صريح وبعضه صريحا ، فإن كان الجميع غير صريح في السببية فلا ضرر حيث يحمل على التفسير والدخول في الآية (ا) وإن كان بعضه غير صريح وبعضه الآخر صريحا فالمعتمد هو الصريح (ب) وإن كان الجميع صريحا فلا يخلو ، إما أن يكون أحدهما صحيحا أو الجميع صحيحا ، فإن كان أحدهما صحيحا دون الآخر فالصحيح هو المعتمد (ج) وإن كان الجميع صحيحا فالترجيح إن أمكن (د) وإلا فالجمع إن أمكن (هـ) وإلا حمل على تعدد النزول وتكرره (و)

تعدد النزول مع وحدة السبب : -

قد يتعدد ما ينزل والسبب واحد ، ولا شيء في ذلك ، فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتى . ومثاله : ما أخرجه سعيد بن منصور وعبد الرزاق والترمذي ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن أم سلمة قالت : « يا رسول الله ، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء ، فأنزله الله (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ...) الآية (١) » .

وأخرج أحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة قالت : « قلت يا رسول الله : ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ فلم يرعني منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر وهو يقول (إن المسلمين والمسلمات ... إلى آخر الآية) » (٢) .

وأخرج الحاكم عن أم سلمة أيضا أنها قالت : تغزو الرجال ولا تغزو

(١) - ١٩٥ - آل عمران

(٢) - ٣٥ - الأحزاب

النساء ، وإنما لنا نصف الميراث ؟ فأنزل الله (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ...) الآية (١) وأنزل (إن المسلمين والمسلمات ...) « فهذه الآيات الثلاث نزلت على سبب واحد .

الاستفادة من معرفة أسباب النزول

في مجال التربية والتعليم

يعاني المربون في مجال الحياة التعليمية كثيرا من المتاعب في استخدام الوسائل التربوية لإثارة انتباه الطلاب حتى تنهياً نفوسهم للدرس في شوق يستجمع قواهم العقلية ويرغبهم في الاستماع والمتابعة ، والمرحلة التمهيدية من مراحل الدرس تحتاج إلى فطنة لماحة تعين المدرس على اجتذاب مشاعر الطلاب لدرسه بشقي الوسائل المناسبة ، كما تحتاج إلى ممارسة طويلة تكسبه خبره في حسن اختيار الربط بين معلوماتهم دون تعسف يكلفه شططا .

وكما تهدف المرحلة التمهيدية في الدرس إلى إثارة انتباه الطلاب واجتذاب مشاعرهم فإنها تهدف كذلك إلى التصور الكلي للموضوع ، كي يسهل على المدرس أن ينتقل بطلابه من الكلي للجزئي إلى أن يستوعب عناصر الدرس تفصيلا بعد أن تصوره طلابه جملة .

ومعرفة أسباب النزول هي السبيل الأفضل لتحقيق تلك الأهداف التربوية في دراسة القرآن الكريم تلاوة وتفسيرا .

إن سبب النزول إما أن يكون قصة لحادثة وقعت ، وإما أن يكون سؤالا طرح على رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستكشاف حكم في موضوع ، فينزل القرآن إثر الحادثة أو السؤال ، فلن يجد المدرس نفسه في حاجة لمعالجة التمهيد

للدرس بشيء يبتكره ويختاره ، إذ أنه إذا ساق سبب النزول كانت قصته كافية في إثارة انتباه الطلاب ، واجتذاب مشاعرهم ، واستجماع قواهم العقلية ، وتهيئة نفوسهم لتقبل الدرس ، وتشويقهم للاستماع إليه ، وترغيبهم في الخوض عليه ، فهم يتصورون الدرس بمعرفة سبب النزول تصورا عاما بما فيه من عناصر القصة المثيرة ، فتتوق نفوسهم إلى معرفة ما نزل ملائما له وما يتضمنه من أسرار تشريعية وأحكام تفصيلية ، تهدي الإنسانية إلى نهج الحياة الأقوم ، وصراطها المستقيم ، وسبيل عزها ومجدها وسعادتها .

وعلى المربين في مجال الحياة التربوية التعليمية الخاصة بمقاعد الدرس أو العامة في التوجيه والإرشاد أن يستفيدوا من سياق أسباب النزول في التأثير على الطلاب الدارسين وجماهير المسترشدين ، فذلك أجدى وأنفع وأهدى سبيلا لتحقيق الأهداف التربوية بأروع معانيها وأرقى صورها .

نُزُولُ الْقُرْآنِ

أنزل الله القرآن على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم لهداية البشرية ، فكان نزوله حدثاً جللاً يؤذن بمكانته لدى أهل السماء وأهل الأرض ، فإنزاله الأول في ليلة القدر أشعر العالم العلوي من ملائكة الله بشرف الأمة المحمدية التي أكرمها الله بهذه الرسالة الجليلة لتكون خير أمة أخرجت للناس ، وتنزله الثاني مفرقاً على خلاف المعهود في إنزال الكتب السماوية قبله أثار الدهشة التي حملت القوم على المماراة فيه ، حتى أسفر لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكمة الإلهية ، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ليتلقى الرسالة العظمى جملة واحدة ويقنع بها القوم مع ما هم عليه من صلف وعناد ، فكان الوحي يتنزل عليه تباعاً تثبيتاً لقلبه ، وتسلياً له ، وتدرجاً مع الأحداث والوقائع حتى أكمل الله الدين ، وأتم النعمة .

نزول القرآن جملة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ١٨٤ - البقرة) ويقول : (إنا أنزلناه في ليلة القدر ١ - القدر)

ويقول : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة ٣ - الدخان) .

ولا تعارض بين هذه الآيات الثلاث ، فالليلة المباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان ، إنما يتعارض ظاهرها مع الواقع العملي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث نزل القرآن عليه في ثلاث وعشرين سنة - وللعلماء في هذا مذهبان أساسيان : -

١ - المذهب الأول - وهو الذي قال به ابن عباس وجماعة وعليه جمهور العلماء - أن المراد بنزول القرآن في تلك الآيات الثلاث نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيما لشأنه عند ملائكته ، ثم نزل بعد ذلك منجما على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة ^(١) حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه ، حيث أقام في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات : فعن ابن عباس قال : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين » ^(٢) .

وهذا المذهب هو الذي جاءت به الأخبار الصحيحة عن ابن عباس في عدة روايات !

١ - عن ابن عباس قال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر . ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة ، ثم قرأ (ولا يأتوك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا - ٣٣ - الفرقان) (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث

(١) وقدّر بعض العلماء مدة نزول القرآن بعشرين سنة ، وبعضهم بخمس وعشرين سنة لا اختلا فهم في مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بعد البعثة - بمكة - ، أكانت ثلاث عشرة سنة ، أم عشر سنين أم خمس عشرة سنة ؟ مع اتفاقهم على أن إقامته بالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات - والصواب الأول - انظر الإتقان صفحة (٣٩) ج ١ .

(٢) رواه البخاري

ونزلناه تنزيلا ١٠٦ - الإسراء) (١) .

ب - وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم » (٢) .

ج - وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه في إثر بعض » (٣) .

د - وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزل نجوما » (٤) .

٢ - المذهب الثاني : - وهو الذي روي عن الشعبي (٥) - أن المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ابتداء نزوله في ليلة القدر من شهر رمضان ، وهي الليلة المباركة ، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرجا مع الوقائع والأحداث في قرابة ثلاث وعشرين سنة ، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله منجما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن هذا هو الذي جاء به القرآن ! (وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ١٠٦ - الإسراء) وحاول فيه المشركون الذين نقل إليهم نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به قؤادك ورتلناه تنزيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا - ٣٢ ، ٣٣ - الفرقان) ولا يظهر للبشر مزية لشهر رمضان

(١) رواه الحاكم البيهقي والنسائي .

(٢) رواه الحاكم .

(٣) رواه الحاكم والبيهقي .

(٤) رواه الطبراني

(٥) الشعبي : هو عامر بن شراحيل . من كبار التابعين - وأكبر شيوخ أبي حنيفة - كان إماما في الحديث والفقه ، وتوفي سنة ١٠٩ هجرية .

وليلة القدر التي هي الليلة المباركة إلا إذا كان المراد بالآيات الثلاث نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يوافق ما جاء في قوله تعالى بغزوة بدر (وما أنزلناه على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير - ٤١ - الأنفال) وقد كانت غزوة بدر في رمضان . ويؤيد هذا ما عليه المحققون في حديث بدء الوحي ، عن عائشة قالت : « أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها ، حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، حتى بلغ : ما لم يعلم^(١) فإن المحققين من الشراح على أن الرسول صلى الله عليه وسلم نبيء أولاً بالرؤيا في شهر مولده شهر ربيع الأول ، ثم كانت مدتها ستة أشهر ، ثم أوحى إليه يقظة في شهر رمضان باقراً - وبهذا تتأزر النصوص على معنى واحد .

٣ - وهناك مذهب ثالث : يرى أن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر^(٢) في كل ليلة منها ما يقدر الله إنزاله في كل السنة ، وهذا القدر الذي ينزل في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع السنة .

وهذا المذهب اجتهد من بعض المفسرين ، ولا دليل عليه .

أما المذهب الثاني الذي روي عن الشعبي فأدلته - مع صحتها والتسليم بها - لا تتعارض مع المذهب الأول الذي روي عن ابن عباس .

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) أو عشرين ، أو خمس وعشرين ليلة قدر ، بناء على الخلاف السابق في مدة إقامته بمكة .

فالراجح أن القرآن الكريم له تنزلان !

الأول : نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا .

والثاني : نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرداً في ثلاث وعشرين سنة .

وقد نقل القرطبي عن مقاتل بن حيان حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا . ونفى ابن عباس التعارض بين الآيات الثلاث في نزول القرآن والواقع العملي في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن في ثلاث وعشرين سنة بغير شهر رمضان : عن ابن عباس : « أنه سأله عطية بن الأسود فقال : أوقع في قلبي الشك قوله تعالى : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) وقوله : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وهذا أنزل في شوال ، وفي ذي القعدة ، وفي ذي الحجة ، وفي المحرم وصفر وشهر ربيع ، فقال ابن عباس : إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم ^(١) رسلاً ^(٢) في الشهور والأيام » ^(٣) .

وأشار بعض العلماء إلى حكمة ذلك في تعظيم شأن القرآن ، وتشريف المنزل عليه ، قال السيوطي : « قيل السر في إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم لينزله عليهم . ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله ، ولكن الله باين بينه وبينها ، فجعل له الأمرين : إنزاله جملة ، ثم إنزاله مفرداً ، تشريفاً للمنزل عليه » وقال السخاوي في جمال القراء : « في نزوله إلى السماء جملة تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم ، ورحمته لهم ، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفاً من الملائكة أن تشيع

(١) على مواقع النجوم : أي على مثل مساقطها في نزوله مفرداً يتلو بعضه بعضاً .

(٢) رسلاً : أي علماً تؤدو ورفق .

(٣) أخرجه ابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات .

سورة الأنعام^(١) ، وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام ، وإنساخهم إياه ، وتلاوتهم له^(٢) .

نزول القرآن منجما

يقول تعالى في التنزيل : (وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين ١٩٢ - ١٩٥ - الشعراء) ويقول : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ١٠٢ - النحل) .

ويقول : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ٢ - البقرة) ويقول : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ٢٣ - البقرة) .

ويقول : (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ٩٧ - البقرة) .

فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بالفاظه العربية ، وأن جبريل نزل به على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا فالمراد به نزوله منجما ، ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج والتنجيم ، فإن علماء اللغة يفرقون بين الإنزال والتنزيل ، فالتنزيل لما نزل مفردا ، والإنزال أعم^(٣) .

وقد نزل القرآن منجما في ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة بمكة على

(١) المسيح من القرآن : ما نزل منه محفوظا بالملائكة . أخرج الطبراني وأبو عبيد في فضائل القرآن : عن ابن عباس قال : « نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة سوطا سبعون ألف ملك يحارون بالتسبيح » .

(٢) أنظر الإتيان ، صفحة (٤٠ ، ٤١) ج ١ .

(٣) أنظر مفردات الراغب .

الرأي الراجح ، وعشر بالمدينة ، وجاء التصريح بنزوله مفرقا في قوله تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ١٠٦ - الإسراء) أي جعلنا نزوله مفرقا كي تقرأه على الناس على مهل وثبت ، ونزلناه تنزيلا بحسب الوقائع والأحداث .

أما الكتب السماوية الأخرى - كالتوراة والإنجيل والزيبور - فكان نزولها جملة ، ولم تنزل مفرقة ، يدل على هذا قوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ٣٢ - الفرقان) فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة ، وهو ما عليه جمهور العلماء ، ولو كان نزولها مفرقا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجما ، فمعنى قوظم : (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) هلا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب ؟ وما له أنزل على التنجيم ؟ ولم أنزل مفرقا ؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سنته في إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم في قوظم : (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ ٧ - الفرقان) بقوله : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ٢٠ - الفرقان) وكما رد عليهم في قوظم : (أبعث الله بشرا رسولا ؟ - ٩٤ - الإسراء) بقوله : (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ٩٥ - الإسراء) وقوله : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ٧ - الأنبياء) بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة في تنزيل القرآن منجما بقوله : (كذلك لنتبث به فؤادك) أي كذلك أنزل مفرقا لحكمة هي تقوية قلب رسول الله (ورتلناه ترتيلا) أي قدرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض ، أو بيناه تبيينا ، فإن إنزاله مفرقا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم وذلك من أعظم أسباب التثبيت .

والذي استقرئ من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل ، وقد صح نزول العشر آيات في قصة

الإفك جملة ، وصح نزول عشر آيات في أول المؤمنين جملة ، وصح نزول « غير أولي الضرر » وحدها وهي بعض آية » (١) .

حكمة نزول القرآن منجما

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم منجما من النصوص الواردة في ذلك . ونجملها فيما يأتي : -

١ - الحكمة الأولى : - تثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته إلى الناس ، فوجد منهم نفورا وقسوة ، وتصدى له قوم غلاظ الأكباد فطروا على الخفوة ، وجبلوا على العناد ، يتعرضون له بصنوف الأذى والعنت ، مع رغبته الصادقة في إبلاغهم الخير الذي يحمله إليهم ، حتى قال الله فيه (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ٦ - الكهف) فكان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة بعد فترة ، بما يثبت قلبه على الحق ، ويشحذ عزمه للمضي قدما في طريق دعوته ، لا يبالي بظلمات الجهالة التي يواجهها من قومه ، فإنها سحابة صيف عما قريب تقشع .

يبين الله له سنته في الأنبياء السابقين الذين كذبوا وأوذوا فصبروا حتى جاءهم نصر الله ، وأن قومه لم يكذبوه إلا علوا واستكبارا ، فيجد عليه الصلاة والسلام في ذلك السنة الإلهية في موكب النبوة عبر التاريخ التي يتأسى بها تسليته له إزاء أذى قومه ، وتكذيبهم له ، وإعراضهم عنه (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ٣٣ ، ٣٤ - الأنعام) (فلإن

(١) نقل هذا السيوطي عن « مكي بن أبي طالب » المتوفى سنة ١٣٦٧ هجرية ، في كتاب له يسمى « الناسخ والمنسوخ - انظر الإتقان . صفحة (٤٢) ج ١ .

كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ١٨٤ - آل عمران) .

ويأمره القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ٣٥ - الأحقاف) .

ويطمئن نفسه بما تكفل الله به من كفايته أمر المكذبين (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، وذري والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا - ١٠ ، ١١ - المزمل) .

وهذا هو ما جاء في حكمة قصص الأنبياء بالقرآن (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ١٢٠ - هود) .

وكلما اشتد ألم رسول الله صلى الله عليه وسلم لتكذيب قومه ، وداخله الحزن لأذاهم نزل القرآن دعماً وتسلياً له ، يهدد المكذبين بأن الله يعلم أحوالهم ، وسيجازيهم على ما كان منهم (فلا يحزنك قوطهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ٧٥ - يونس) (ولا يحزنك قوطهم إن العزة لله جميعاً إنه هو السميع العليم ٦٥ - يونس) . كما يبشره الله تعالى بآيات المنعة والغلبة والنصر (والله يعصمك من الناس ٦٧ - المائدة) (وينصرك الله نصراً عزيزاً ٣ - الفتح) (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ٢١ - المجادلة) .

وهكذا كانت آيات القرآن تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تباعاً تسلياً له بعد تسلياً ، وعزاء بعد عزاء ، حتى لا يأخذ منه الحزن مأخذه ، ولا يستبد به الأسى ، ولا يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً ، فله في قصص الأنبياء أسوة ، وفي مصير المكذبين سلوى ، وفي العدة بالنصر بشرى ، وكلما عرض له شيء من الحزن بمقتضى الطبع البشري تكررت التسلياً ، فثبت قلبه على دعوته ، واطمأن إلى النصر .

وهذه الحكمة هي التي رد الله بها على اعتراض الكفار في تنجيم القرآن بقوله تعالى (كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ٣٢ - الفرقان) .

قال أبو شامة : ^(١) « فإن قيل : ما السر في نزوله منجما ؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة ؟ قلنا : هذا سؤال قد تولى الله جوابه ، فقال تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) يعنون : كما أنزل على من قبله من الرسل ، فأجابهم تعالى بقوله (كذلك) أي أنزلناه مفرقا (لنثبت به فؤادك) أي لتقوي به قلبك ، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب ، وأشد عناية بالمرسل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه ، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقاءه جبريل » ^(٢) .

٢ - الحكمة الثانية : التحدّي والإعجاز .

فالمشركون تمادوا في غيهم ، وبالغوا في عتوهم ، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحدّ يمتحنون بها رسول الله في نبوته ، ويسوقون له من ذلك كل عجيب من باطلهم ، كعلم الساعة (ويسألونك عن الساعة ١٨٧ - الأعراف) ومعرفة الروح (ويسألونك عن الروح ٨٥ - الإسراء) واستعجال العذاب (ويستعجلونك بالعذاب ٤٧ - الحج) فيتنزل القرآن بما يبين وجه الحق لهم ، وبما هو أوضح معنى في مؤدى أسئلتهم ، كما قال تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً - ٣٣ - الفرقان) أي ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجاب الحق ، وبما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التي هي مثل في البطلان .

وحيث عجبوا من نزول القرآن منجما بين الله لهم الحق في ذلك ، فإن تحدّيهم به مفرقا مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل في الإعجاز ، وأبلغ في الحجّة من أن

(١) أبو شامة : هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ، الفقيه الشافعي ، له « الوجيز إلى علوم تعلق بالقرآن العزيز » و « شرح على الشاطبية المشهورة في القراءات » ، توفي سنة ٦٦٥ هجرية .

(٢) انظر الإتيان صفحة (٤١) ج ١ .

ينزل جملة ويقال لهم : جيئوا بمثله ، ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) أي لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وبما هو آيين معنى في إعجازهم ، وذلك بنزوله مفرقا ، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات في حديث ابن عباس عن نزول القرآن « فكان المشركون إذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا » (١) .

٣ - الحكمة الثالثة : تيسير حفظه وفهمه :

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ، سجلها ذاكرة حافظة ، ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدون ، ثم تحفظ وتفهم . (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين - ٢ - الجمعة) (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ١٥٧ - الأعراف) فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة ، وأن تفهم معانيه وتدبر آياته ، فكان نزوله مفرقا خير عون لها على حفظه في صدورهم وفهم آياته ، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة ، وتدبروا معانيها ، ووقفوا عند أحكامها ، واستمر هذا منهجا للتعليم في حياة التابعين ، عن أبي نضرة قال : « كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة ، وخمس آيات بالعشي ، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات » (٢) وعن خالد بن دينار قال : « قال لنا أبو العالية : تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذه من جبريل خمسا خمسا » (٣) وعن عمر قال : « تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم خمسا خمسا » (٤) .

(١) أخرجه ابن أبي جاتم عن ابن عباس

(٢) أخرجه ابن عساكر .

(٣) أخرجه البيهقي .

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان .

٤ - الحكمة الرابعة : مسايرة الحوادث والتدرج في التشريع . فما كان الناس ليسلس قيادهم طفرة للدين الجديد لولا أن القرآن عاجلهم بحكمة ، وأعطاهم من دوائه الناجع جرعات يستطبون بها من الفساد والرذيلة ، وكلما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يجلي لهم صحتها ويرشدهم إلى الهدى ، ويضع لهم أصول التشريع حسب مقتضيات أصلا بعد آخر .

لقد كان القرآن الكريم بآدء ذي بدء يتناول أصول الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار ، ويقيم على ذلك الحجج والبراهين حتى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية ويغرس فيها عقيدة الإسلام .

وكان يأمر بمحاسن الأخلاق التي تزكو بها النفس ويستقيم عوجها ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ليقطع جذور الفساد والشر . ويبين قواعد الحلال والحرام التي يقوم عليها صرح الدين ، وترسو دعائمه في المطاعم والمشارب والأموال والأعراض والدماء .

ثم تدرج التشريع بالأمة في علاج ما تأصل في النفوس من أمراض اجتماعية . بعد أن شرع لهم من فرائض الدين وأركان الإسلام ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان ، خالصة لله ، تعبده وحده لا شريك له .

كما كان القرآن ينزل وفق الحوادث التي تمر بالمسلمين في جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله .

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنيه وقواعد تشريعه .

ففي مكة شرعت الصلاة ، وشرع الأصل العام للزكاة مقارنا بالربا (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ، وما آتيتم ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة يريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ٣٨ ، ٣٩ - الروم) .

ونزلت سورة الأنعام - وهي مكية - تبين أصول الإيمان ، وأدلة التوحيد ، وتندد بالشرك والمشركين ، وتوضح ما يحل وما يحرم من المطاعم ، وتدعو إلى صيانة حرمات الأموال والدماء والأعراض : (قل تعالوا أتئل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قاتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون - ١٥١ ، ١٥٢ - الأنعام) .

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام .

فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة ، ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة كآية المدينة وآيات تحريم الربا .

وأسس العلاقات الأسرية نزلت بمكة ، أما بيان حقوق كل من الزوجين ، وإيجابات الحياة الزوجية ، وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة أو انفصامها بالطلاق ، أو انتهائها بالموت ثم الإرث - أما بيان هذا فقد جاء في التشريع المدني .

وأصل الزنى حرم بمكة : (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ٣٢ - الإسراء) ولكن العقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة .

وأصل حرمة الدماء نزل بمكة : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق - ٣٣ - الإسراء) ولكن تفصيل عقوباتها في الاعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة .

وأوضح مثال لذلك التدرج في التشريع تحريم الخمر .

فقد نزل قوله تعالى : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا

ورزقا حسنا إن في ذلك آية لقوم يعقلون ٦٧ - النحل) في مقام الامتنان بنعمه سبحانه - وإذا كان المراد بالسكر ما يستكر من الخمر ، وبالرزق ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب - وهذا ما عليه جمهور المفسرين - فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السكر يشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السكر .

ثم نزل قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ٢١٩ - البقرة) فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة أو يترتب على الاتجار بها من ربح ، ومضارها في إثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر في الجسم ، وفساد في العقل ، وضنياع للمال وإثارة لبواعث الفجور والعصيان ، ونفرت الآية منها بترجيح المضار على المنافع .

ثم نزل قوله تعالى : (يأياها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ٤٣ - النساء) فاقضى هذا الامتناع عن شرب الخمر في الأوقات التي يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة ، حيث جاء النهي عن قربان الصلاة في حال السكر حتى يزول عنهم أثره ويعلموا ما يقولونه في صلاتهم .

ثم نزل قوله تعالى : (يأياها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟ ٩٠ ، ٩١ - المائدة) فكان هذا تحريما قاطعا للخمر في الأوقات كلها .

ويوضح هذه الحكمة ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء « لا تشربوا الخمر » لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ، ولو نزل « لا تزفوا » لقالوا : « لا ندع الزنى أبدا » ^(١) .

(١) أخرجه البخاري .

وهكذا كان التدرج في تربية الأمة وفق ما يمر بها من أحداث ، فقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته في أسرى بدر ، فقال عمر : اضرب أعناقهم ، وقال أبو بكر : نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي أبي بكر ، فنزل قوله تعالى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ٦٧ ، ٦٨ - الأنفال) (١) .

وأعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين حتى قال رجل : لن تغلب من قلة ، فتلقوا درسا قاسيا في ذلك ، ونزل قوله تعالى : (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تردها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ٢٥ - ٢٧ - التوبة) (٢) .

ولما توفي عبد الله بن أبي - رأس المنافقين - « دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف قال عمر : أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ يعدد أيامه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم ، ثم قال له إني قد خيرت ، قد قيل لي : (أستغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ٨٠ - التوبة) فلو أعلم أنني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ، ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه ، قال عمر : فعجبت لي ولجراتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : (ولا تصل على أحد منهم

(١) من حديث أخرجه أحمد عن أنس .

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل

مات أبدا ولا تقم على قبره ... - ٨٤ ، ٨٥ - التوبة) فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعد حتى قبضه الله عز وجل » (١).

وحين تخلف نفر من المؤمنين الصادقين في غزوة تبوك ، وأقاموا بالمدينة ، ولم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لديهم عذرا هجرهم وقاطعهم حتى ضاقوا ذرعا بالحياة ثم نزل القرآن لقبول توبتهم : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ١١٧ ، ١١٨ - التوبة) (٢) ويشير إلى هذا ما روي عن ابن عباس في نزول القرآن : « ونزله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم » (٣).

٥ - الحكمة الخامسة : الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد : إن هذا القرآن الذي نزل منجما على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر من عشرين عاما تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سورة فيجده مُحكم النسخ ، دقيق السبك ، مترابط المعاني ، رصين الأسلوب ، متناسق الآيات والصور ، كأنه عقد فريد نظمت حياته بما لم يعهد له مثيل في كلام البشر : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير - ١ - هود) ولو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل في مناسبات متعددة ، ووقائع متتالية ، وأحداث متعاقبة ، لوقع فيه التفتك والانفصام ، واستعصى أن يكون بينه التوافق والانسجام : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا - ٨٢ - النساء) .

(١) أخرجه البخاري وأحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه وغيرهم .

(٢) من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما ، والثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار .

(٣) أخرجه الطبراني والبراز عن ابن عباس - وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر .

فأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهي في ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القرآن الكريم — لا تنتظم حباتها في كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعض في وحدة وترباط بمثل ما عليه القرآن الكريم أو ما يدانيه اتساقا وانسجاما . فكيف بكلام سائر البشر وأحاديثهم : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً — ٨٨ — الإسراء)^(١) .

الاستفادة من نزول القرآن منجماً في التربية والتعليم

تعتمد العملية التعليمية على أمرين أساسيين : مراعاة المستوى الذهني للطلاب وتنمية قدراتهم العقلية والنفسية والجسمية بما يوجهها وجهة سديدة إلى الخير والرشاد .

ونحن نلاحظ في حكمة نزول القرآن منجماً ما يفيدنا في مراعاة هذين الأمرين على النحو الذي ذكرناه آنفاً ، فإن نزول القرآن الكريم تدرج في تربية الأمة الإسلامية تدرجاً فطرياً لإصلاح النفس البشرية ، واستقامة سلوكها ، وبناء شخصيتها ، وتكامل كيانها ، حتى استوت على سوقها ، وآتت أكلها الطيب بإذن ربها لخير الإنسانية كافة .

وكان تنجيم القرآن خير عون لها على حفظه وفهمه ومدارسته وتدبر معانيه ، والعمل بما فيه .

وبين نزول القرآن في مطلع الوحي بالقراءة والتعليم بأداة الكتابة : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ١ — ٥ — العلق) ونزول آيات الربا والمواريث في نظام المال ، أو نزول آيات القتال في المفاصلة التامة بين الإسلام والشرك —

(١) انظر هذه الحكمة في متاهل العرفان للزرقاني . صفحة (٥٤) ج ، ١

بين ذاك وهذا مراحل تربوية كثيرة لها أساليبها التي تلائم مستوى المجتمع الإسلامي في تدرجه من الضعف إلى القوة ، ومن القوة إلى شدة البأس .

والمنهج الدراسي الذي لا يراعى فيه المستوى الذهني للطلاب في كل مرحلة من مراحل التعليم وبناء جزئيات العلوم على كلياتها والانتقال من الإجمال إلى التفصيل ، أو لا يراعى تنمية جوانب الشخصية العقلية والنفسية والجسمية منهج فاشل لا تجني منه الأمة ثمرة علمية سوى الحمد والتخلف .

والمدرس الذي لا يعطي طلابه القدر المناسب من المادة العلمية فيثقل كاهلهم ويحملهم ما لا يطيقون حفظاً أو فهماً أو يحدّثهم بما لا يدركون ، أو لا يراعى حالهم في علاج ما يعرض لهم من شذوذ خلقي أو يفشو من عادات سيئة ، فيقسو ويتعسف ، ويأخذ الأمر دون أناة وروية ، وتدرج وحكمة - المدرس الذي يفعل ذلك مدرس فاشل كذلك . يحول العملية التعليمية إلى متاهات موحشة ، ويجعل غرف الدراسة قاعات منفرة .

وقس على هذا الكتاب المدرسي ، فالكتاب الذي لا تنتظم موضوعاته وفصوله ، ولا تتدرج معلوماته من السهل إلى الصعب ، ولا ترتب جزئياته ترتيباً محكماً منسقاً ، ولا يكون أسلوبه واضحاً في أداء المعنى المقصود ، كتاب ينفر الطالب من قراءته ، ويحرمه من الاستفادة منه .

والهدى الإلهي في حكمة نزول القرآن منجماً هو الأسوة الحسنة في صياغة مناهج التعليم ، والأخذ بأمثل الطرق في الأساليب التربوية بقاعة الدرس ، وتأليف الكتاب المدرسي .

جمع القرآن وترتيبه

يطلق جمع القرآن ويراد به عند العلماء أحد معنيين : - المعنى الأول :
- جمعه بمعنى حفظه ، وجمّاع القرآن : حفّاظه ، وهذا المعنى هو الذي ورد
في قوله تعالى في خطابه لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد كان يحرك شفّتيه ولسانه
بالقرآن إذا نزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصاً على أن يحفظه :
(لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ،
ثم إن علينا بيانه ١٦ - ١٩ - القيامة) عن ابن عباس قال : « كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفّتيه مخافة
أن ينفلت منه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ،
إن علينا جمعه وقرآنه) قال : يقول : إن علينا أن نجمله في صدرك ثم نقرأه
(فإذا قرأناه) يقول : إذا أنزلناه عليك (فاتبع قرآنه) فاستمع له وأنصت (ثم
إن علينا بيانه) أن نبينه بلسانك . وفي لفظ : علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق . وفي لفظ : استمع ، فإذا
ذهب قرأه كما وعد الله » (١) .

المعنى الثاني : جمع القرآن بمعنى كتابته كله ، مفرق الآيات والصور ،

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس .

أو مرتب الآيات فقط ، وكل سورة ، في صحيفة على حدة ، أو مرتب الآيات
والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعا وقد رتب إحداها بعد الأخرى .

— (١) — ١ — جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مولعا بالوحي ، يترقب نزوله عليه بشوق ،
فيحفظه ويفهمه ، مصداقا لوعده الله : (إنا علينا جمعه وقرآنه ١٧ — القيامة) .
فكان بذلك أول الحفاظ ، ولصحابته فيه الأسوة الحسنة ، شغفا بأصل الدين
ومصدر الرسالة ، وقد نزل القرآن في بضع وعشرين سنة ، فربما نزلت الآية
المفردة ، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر ، وكلما نزلت آية حفظت في الصدور ،
ووعتها القلوب ، والأمة العربية كانت بسجيتها قوية الذاكرة ، تستعيز عن
أمتيتها في كتابة أخبارها وأشعارها وأنسابها بسجل صدورها .

وقد أورد البخاري في صحيحه بثلاث روايات سبعة من الحفاظ ، هم :
عبد الله بن مسعود ، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبي
بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد بن السكن ، وأبو الدرداء .

١ — عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : « سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : خذوا القرآن من أربعة : من عبدالله بن مسعود ، وسالم ،
ومعاذ ، وأبي بن كعب » ^(١) وهؤلاء الأربعة ، اثنان من المهاجرين هما : عبد
الله بن مسعود وسالم ، واثنان من الأنصار هما : معاذ وأبي .

٢ — وعن قتادة قال : « سألت أنس بن مالك : من جمع القرآن على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أربعة ، كلهم من الأنصار : أبي بن
كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قلت : من أبو زيد ؟
قال : أحد عمومي » ^(٢)

٣ — وروي من طريق ثابت عن أنس كذلك قال : « مات النبي صلى الله

(١) رواه البخاري

(٢) رواه البخاري

عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد
ابن ثابت ، وأبو زيد ^(١) .

وأبو زيد المذكور في هذه الأحاديث جاء بيانه فيما نقله ابن حجر بإسناد
على شرط البخاري عن أنس : أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه : قيس بن
السكن ، قال : وكان رجلا منا من بني عدي بن النجار أحد عمومي ، ومات
ولم يدع عقباء ونحن ورثناه .

وبين ابن حجر في ترجمة سعيد بن عبيد أنه من الحفاظ ، وأنه كان يلقب
بالقاري ^(٢) .

وذكر هؤلاء الحفاظ السبعة . أو الثمانية ، لا يعني الحصر ، فإن النصوص
الواردة في كتب السير والسنن تدل على أن الصحابة كانوا يتنافسون في حفظ
القرآن ، ويحفظونه أزواجهم وأولادهم . ويقرءون به في صلواتهم بخوف الليل ،
حتى يسمع لهم دوي كدوي النحل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر
على بيوت الأنصار ، ويستمع إلى ندى أصواتهم بالقراءة في بيوتهم ، عن أبي
موسى الأشعري : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لو رأيته البارحة
وأنا أستمع لقراءتك ؟ لقد أعطيت زمماراً من مزامير داود » ^(٣)

وعن عبد الله بن عمرو قال : « جمعت القرآن ، فقرأت به كل ليلة ، فبلغ
النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأه في شهر » ^(٤)

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : إني لأعرف رفقة الأشعرين بالليل حين يدخلون ، وأعرف منازلهم من

(١) رواه البخاري

(٢) الإصابة ، صفحة ٢٨ ج ٢

(٣) رواه البخاري ، وفي رواية لمسلم بزيادة « فقلت : لو علمت والله يا رسول الله أنك تسمع
لقراءتي لحبته لك تحبيراً » .

(٤) أخرجه النسائي بسند صحيح .

أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار » (١)

ومع حرص الصحابة على مدارسة القرآن واستظهاره فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشجعهم على ذلك ، ويختار لهم من يعلمهم القرآن ، عن عبادة بن الصامت قال : « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخفصوا أصواتهم لئلا يتغالظوا » (٢)

فهذا الحصر للسبعة المذكورين من البخاري بالروايات الثلاث الآتية الذكر محمول على أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن كله في صدورهم ، وعرضوه على النبي صلى الله عليه وسلم . واتصلت بنا أسانيدهم ، أما غيرهم من حفظة القرآن — وهم كثر — فلم يتوافر فيهم هذه الأمور كلها ، لا سيما وأن الصحابة تفرقوا في الأمصار ، وحفظ بعضهم عن بعض ، ويكفي دليلاً على ذلك أن الذين قتلوا في بئر معونة من الصحابة كان يقال لهم القراء ، وكانوا سبعين رجلاً كما في الصحيح ، قال القرطبي : « قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء — وقتل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بئر معونة مثل هذا العدد » وهذا هو ما فهمه العلماء وأولوا به الأحاديث الدالة على حصر الحفاظ في السبعة المذكورين ، قال الماوردي (٣) معلقاً على رواية أنس « لم يجمع القرآن غير أربعة » : « لا يلزم من قول أنس لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك ، لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه ، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد (٢) وهذا لا يتم إلا إن كان لقي كل واحد منهم على انفراده ، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا في غاية البعد في

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) مناهل العرفان للزرقاني صفحة (٢٣٤) ج ١

(٣) هو أبو الحسن علي بن حبيب الشافعي ، صاحب كتاب « الأحكام السلطانية » وكتاب « أدب الدنيا والدين » توفي سنة (٤٥٠) هجرية .

العادة ، وإذا كان المرجع إلى ما في علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك ، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكل والكل ولو على التوزيع كفى» (١) .

والماوردي بهذا ينفي الشبه التي توهم قلة عدد الحفاظ بأسلوب مقنع ، ويبين الاحتمالات الممكنة لصيغة الحصر في حديث أنس بيانا شافيا .

وقد ذكر أبو عبيد (٢) في كتاب « القراءات » القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . فعدّ من المهاجرين : الخلفاء الأربعة ، وطلحة - وسعدا ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالما ، وأبا هريرة ، وعبدالله السائب ، والعبادلة (٣) ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، ومن الأنصار : عبادة بن الصامت . ومعاذ الذي يكنى أبا حليمة ، ومجمع بن جارية ، وفضالة بن عبيد ، ومسلمة بن مخلد ، وصرح بأن بعضهم إنما كمله بعد النبي صلى الله عليه وسلم» (٤)

وذكر الحافظ الذهبي (٥) في « طبقات القراء » أن هذا العدد من القراء هم الذين عرضوه على النبي صلى الله عليه وسلم ، واتصلت بنا أسانيدهم ، وأما من جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير .

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن حفظة القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا جمعاً غفيرا ، فإن الاعتماد على الحفظ في النقل من خصائص هذه

(١) يرد الماوردي بالفقرة الأخيرة على الملاحدة الذين يتمسكون برواية أنس الدالة على الحصر في أن القرآن غير متواتر ، ونضيف إلى رد الماوردي عليهم أنه بجانب الحفظ كانت الكتابة كما سيأتي ، وانظر الإتيان صفحة ٧٢ - ج ١ .

(٢) أبو عبيد : هو القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزاعي ، من أئمة الحديث واللغة ، صاحب كتاب « الأموال » المشهور ، توفي سنة ٢٢٤ هجرية .

(٣) العبادلة الأربعة المشهورون بالإفتاء هم : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

(٤) انظر الإتيان صفحة ٧٢ ج ١ .

(٥) اسمه محمد بن أحمد بن عثمان من كبار المحدثين في القرن الثامن ، توفي سنة ٧٤٨ هجرية .

الأمة ، قال ابن الجزري ^(١) شيخ القراء في عصره : « إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة » .

ب - جمع القرآن بمعنى كتابته على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم : -

اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً للوحي من أجلاء الصحابة . كعلي ، ومعاوية ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها ، ويرشدهم إلى موضعها من سورتها ، حتى تظاهر الكتابة في السطور ، الجمع في الصدور .

كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم ، دون أن يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فيخطونه في العصب ، واللخاف ، والكرانيف ، والرقاع ، والأقتاب ، وقطع الأديم ، والأكتاف ^(٢) ، عن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع » ^(٣) وهذا يدل على مدى المشقة التي كان يتحملها الصحابة في كتابة القرآن ، حيث لم تيسر لهم أدوات الكتابة إلا بهذه الوسائل ، فأضافوا الكتابة إلى الحفظ .

وكان جبريل يعارض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل سنة في ليالي رمضان ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ،

(١) هو محمد بن محمد الشهير بابن الجزري ، صاحب كتاب « النشر في القراءات العشر » توفي سنة ٨٣٣ هجرية .

(٢) العصب : جمع عسيب ، وهو جريد النخل ، كانوا يكتبون الخوص ويكتبون في الطرف العريض ، واللخاف : جمع لخرة ، وهي صفائح الحجارة ، والكرانيف : جمع كرنافة ، وهي أصول السمف الغلاظ ، والرقاع : جمع رقعة ، وقد تكون من جلد أو ورق . والأقتاب : جمع قتب ، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه ، والأكتاف : جمع كتف ، وهو العظم الذي للبعير أو الشاة ، كانوا إذا جف كتبوا عليه .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک بسند على شرط الشيخين ، نؤلف القرآن : أي يجمعه لترتيب آياته .

وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » (١)

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لديهم من القرآن حفظاً وكتابة كذلك .

ولم تكن هذه الكتابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مجمعة في مصحف عام ، بل عند هذا ما ليس عند ذاك ، وقد نقل العلماء أن نفرأ منهم : علي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود - قد جمعوا القرآن كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر العلماء أن زيد بن ثابت كان عرضه متأخراً عن الجميع .

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن محفوظ في الصدور ، ومكتوب في الصحف على نحو ما سبق ، مفرق الآيات والسور ، أو مرتب الآيات فقط وكل سورة في صحيفة على حدة ، بالأحرف السبعة الواردة ، (٢) ولم يجمع في مصحف عام ، حيث كان الوحي ينزل تباعاً فيحفظه القراء ، ويكتبه الكتبة ، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه في مصحف واحد ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يترقب نزول الوحي من حين لآخر ، وقد يكون منه الناسخ لشيء نزل من قبل ، وكتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول بل تكتب الآية بعد نزولها حيث يشير صلى الله عليه وسلم إلى موضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا في سورة كذا ، ولو جمع القرآن كله بين دفتي مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير كلما نزل شيء من الوحي . قال الزركشي : « وإنما لم يكتب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مصحف لثلا يفضي إلى تغييره في كل وقت ، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته صلى الله عليه وسلم » وبهذا يفسر ما روي عن زيد بن ثابت ، قال : « قبض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع في شيء » أي لم يكن

(١) متفق عليه .

(٢) سيأتي بيان الأحرف السبعة .

جمع مرتب الآيات والسور في مصحف واحد ، قال الخطابي : « إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ^(١) فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر ^(٢) .

ويسمى هذا الجمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أ - حفظاً -
ب - وكتابة « الجمع الأول » .

٢ - جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه : -

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وواجهته أحداث جسام في ارتداد جمهرة العرب ، فجهز الجيوش وأوفدها لحروب المرتدين ، وكانت غزوة أهل اليمامة سنة اثني عشرة للهجرة تضم عدداً كبيراً من الصحابة القراء ، فاستشهد في هذه الغزوة سبعون قارئاً من الصحابة ، فهال ذلك عمر بن الخطاب ، ودخل على أبي بكر رضي الله عنه وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع ، فإن القتل قد استحر ^(٣) يوم اليمامة بالقراء - ويخشى أن استحرجهم في المواطن الأخرى أن يضيع القرآن وينسى ، فنفر أبو بكر من هذه المقالة وكبر عليه أن يفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظل عمر يراوده حتى شرح الله صدر أبي بكر لهذا الأمر ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت لمكانته في القراءة والكتابة والفهم والعقل ، وشهوده العرضة الأخيرة ، وقص عليه قول عمر - فنفر زيد من ذلك كما نفر أبو بكر من قبل ، وتراجعا حتى طابت نفس زيد للكتابة ، وبدأ زيد بن ثابت في مهمته الشاقة معتمداً على المحفوظ في صدور القراء ، والمكتوب لدى الكتبة ، وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر ،

(١) إشارة إلى قوله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ٩ - الحجر) .

(٢) انظر الإتيان . صفحة (٥٧) ج ١ .

(٣) استحر : اشتد

حتى إذا توفي سنة ثلاث عشرة للهجرة صارت بعده إلى عمر ، وظلت عنده حتى مات — ثم كانت عند حفصة ابنته صدرأً من ولاية عثمان حتى طلبها عثمان من حفصة :

[عن زيد بن ثابت قال : « أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أريد أن تأمر بجمع القرآن ، فقلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر — قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعّلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبع القرآن أجمعه من العصب والخاف وصدور الرجال ، وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري . لم أجدها مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر . »

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت ، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة ، وقوله في الحديث : « وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره » لا ينافي هذا ، ولا يعني أنها ليست متواترة ، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره ، وكان زيد يحفظها ، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك ، لأن زيداً كان يعتمد على الحفظ والكتابة معاً ، فكانت هذه الآية

(١) أخرجه البخاري .

محفوظة عند كثير منهم ، ويشهدون بأنها كتبت ، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند أبي خزيمة الأنصاري .

أخرج ابن أبي داود ^(١) من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : « قدم عمر فقال : « من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به ، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعصب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهادان » وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً ، مع كون زيد كان يحفظ ، فكان يفعل ذلك مبالغة من الاحتياط ، وأخرج ابن أبي داود أيضاً من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : اقعدا على باب المسجد فمن جاء كما يشاهدني على شيء من كتاب الله فاكتباه » ورجاله ثقات مع انقطاعه ، قال ابن حجر : « وكأن المراد بالشاهدين : الحفظ والكتاب » وقال السخاوي ^(٢) في « جمال القراء » المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن » قال أبو شامة : « وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، لا من مجرد الحفظ ، ولذلك قال في آخر سورة التوبة : « لم أجدها مع غيره » أي لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكفي بالحفظ دون الكتابة » ^(٣) .

وقد عرفنا أن القرآن كان مكتوباً من قبل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعصب ^(٤) فأمر أبو بكر بجمعه في مصحف واحد

لنصفان الحج من عهد أبي بكر

(١) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ، من كبار حفاظ الحديث . له من الكتب : المصاحف ، والمسند ، والسنن ، والتفسير ، والقراءات ، والناسخ والمنسوخ - انظر الأعلام للزركلي ، صفحة ٢٢٤ ج ٤ .

(٢) هو علي بن محمد بن عبد الصمد المشهور بالسخاوي ، له منظومة في القراءات تعرف بالسخاوية ، توفي سنة ٦٤٣ هجرية .

(٣) انظر الإتيقان صفحة ٥٨ ج ١ .

١ - كتابه يحوي جميع النسخ السبعة
٢ - كما مرست الأيات في رسم السور
٣ - صغر حجمه يحوي جميع ما جاء في نسخة
٤ - لا يخلو من الأخطاء

مرتب الآيات والسور. وأن تكون كتابته غاية من الثبوت مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، فكان أبو بكر رضي الله عنه أول من جمع القرآن بهذه الصفة في مصحف ، وإن وجدت مصاحف فردية عند بعض الصحابة ، كمصحف علي ، ومصحف أبي ، ومصحف ابن مسعود ، فإنها لم تكن على هذا النحو ، ولم تنل حظها من التحري والدقة ، والجمع والترتيب ، والاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته ، والإجماع عليها ، بمثل ما نال مصحف أبي بكر ، فهذه الخصاص تميز بها جمع أبي بكر للقرآن ، ويرى بعض العلماء أن تسمية القرآن بالمصحف نشأت منذ ذلك الحين في عهد أبي بكر بهذا الجمع ، وعن علي قال : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » .

١ - مصحف أبي بكر رضي الله عنه
٢ - مصحف علي رضي الله عنه
٣ - مصحف ابن مسعود رضي الله عنه
٤ - مصحف عثمان رضي الله عنه

وهذا الجمع هو المسمى بالجمع الثاني .

٣ - جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه : -
١ - السبب في جمع القرآن :
٢ - اختلاف القراءات
٣ - اتسعت الفتوحات الإسلامية ، ونفرت القراءات في الأمصار ، وأخذ أهل كل مصر عن وفد إليهم قراءته ، ووجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها ، فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف ، وقد يقنع بأنها جميعاً مسندة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن هذا لا يحول دون تسرب الشك للناشئة التي لم تدرك الرسول ، فيدور الكلام حول فصيحها وأفصحها ، وذلك يؤدي إلى الملاحاة إن استفاض أمره ومردوا عليه ، ثم إلى اللجاج والتأنيب ، وتلك فتنة لا بد لها من علاج .

فلما كانت غزوة « أرمينية » وغزوة « أذربيجان » من أهل العراق ، كان فيمن غزاهما « حذيفة بن اليمان » فرأى اختلافاً كثيراً في وجوه القراءة ، وبعض ذلك مشوب باللحن ، مع إلف كل لقراءته ، ووقوفه عندها ، ومماراته مخالفة لغيره ، وتكفير بعضهم الآخر ، حينئذ فزع إلى عثمان رضي الله عنه ، وأخبره

بما رأى ، وكان عثمان قد نعى إليه أن شيئاً من ذلك الخلاف يحدث لمن يُقرءون الصبية ، فينشأ هؤلاء وبينهم من الاختلاف ما بينهم ، فأكبر الصحابة هذا الأمر مخافة أن ينجم عنه التحريف والتبديل ، وأجمعوا أمرهم أن ينسخوا الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر ، ويجمعوا الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد ، فأرسل عثمان إلى حفصة ، فأرسلت إليه بتلك الصحف ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصاري ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين ، فأمرهم أن ينسخوها في المصاحف ، وأن يكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم .

عن أنس « أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة أن أرسلني إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك — فأرسلت بها حفصة إلى عثمان — فأمر زيد بن ثابت . وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، قال زيد : آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ٢٣ — الأحزاب) فألحقناها في سورتها في المصحف » ^(١)

(١) رواه البخاري .

وذلت الآثار على أن الاختلاف في وجوه القراءة لم يفرع منه حذيفة بن اليمان وحده ، بل شاركه غيره من الصحابة في ذلك ، عن ابن جرير قال : « حدثني يعقوب بن ابراهيم ، قال : حدثنا ابن عُلَية ، قال : حدثنا أيوب ، عن أبي قلابة ، قال لما كان في خلافة عثمان ، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ^{فجعل} العلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين — قال أيوب : فلا أعلمه إلا قال — حتى كفر بعضهم بقراء بعض ، فبلغ ذلك عثمان . فقام خطيباً فقال : « أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون ، فمن تأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشدّ لحناً ، اجتمعوا يا أصحاب محمد . فاكتبوا للناس إماماً » قال أبو قلابة : فحدثني أنس بن مالك قال : كنت فيمن يعلّي عليهم ، قال : فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعله أن يكون غائباً في بعض البوادي ، فيكتبون ما قبلها وما بعدها ، ويدعون موضعها ، حتى يجيء أو يرسل إليه ، فلما فرغ من المصحف كتب عثمان إلى أهل الأمصار : إني قد صنعت كذا وكذا ، ومحو ما عندي ، فامحوا ما عندكم » (١)

وأخرج ابن أشته (٢) من طريق أيوب عن أبي قلابة مثله ، وذكر ابن حجر في الفتح أن ابن أبي داود أخرجه في المصاحف من طريق إبي قلابة .

وعن سويد بن غفلة قال : « قال عليّ : لا تقولوا في عثمان إلا خيراً ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا . قال : ما تقولون في هذه القراءة ؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفراً ، قلنا فما ترى . قال أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا : فنعم ما رأيت » (٣) .

(١) أنظر الجزء الأول من تفسير الطبري ، تحقيق وتخريج الأخوين محمد محمد شاكر وأحمد محمد شاكر طبعة دار المعارف صفحة ٦١ ، ٦٢ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أشته ، من المحققين الثقات ، الذين اشتغلوا بعلوم القرآن ، توفي سنة ٣٦٠ هجرية .

(٣) أخرجه ابن أبي داود بسند صحيح .

وهذا يدل على أن ما صنعه عثمان قد أجمع عليه الصحابة ، كتبت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن . ليجتمع الناس على قراءة واحدة ، ورد عثمان الصحف إلى حفصة ، وبعث إلى كل أفق بمصحف من المصاحف . واحتبس بالمدينة واحداً هو مصحفه الذي يسمى الإمام . وتسميته بذلك لما جاء في بعض الروايات السابقة من قوله : « اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً » وأمر أن يحرق ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف ، وتلفت الأمة ذلك بالطاعة ، وتركوا القراءة بالأحرف الستة الأخرى . ولا ضير في ذلك . فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة ، ولو أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمة القراءة بها جميعاً لوجب نقل كل حرف منها نقلاً متواتراً تقوم به الحجة . ولكنهم لم يفعلوا ذلك فدل هذا على أن القراءة بها من باب الرخصة . وأن الواجب هو تواتر النقل ببعض هذه الأحرف السبعة . وهذا هو ما كان .

قال ابن جرير فيما فعله عثمان : « وجمعهم على مصحف واحد ، وحرف واحد ، وحرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه ، وعزم على كل من كان عنده مصحف « مخالف » المصحف الذي جمعهم عليه ، أن يحرقه ^(١) ، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة ، ورأت أن فيها فعل ذلك الرشد والهداية ، فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها ، طاعة منها له ، ونظراً منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها ، حتى درست من الأمة معرفتها ، ونقضت آثارها ، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها ، لدثورها وعفو آثارها ، وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها ، من غير جحود منها صحتها وصحة شيء منها ، ولكن نظراً منها لأنفسها ولسائر أهل دينها ، فلا قراءة للمسلمين

(١) أنظر هذا النص في تفسير ابن جرير الطبري ج ١ صفحة ٦٤ ، ٦٥ ، وفي التعليق ، قال ابن حجر في الفتح ٩ : ١٨ في شرح حديث البخاري : « في رواية الأكثر » أن يحرق « بالخاء المعجمة » ، وللمروزي بالمهملة ، ورواه الأصيلي بالوجهين ، والمعجمة أثبت « وحرق الكتاب أو التوب : شققه ومزقه .

اليوم إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح ، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية .

فإن قال بعض من ضعفت معرفته . وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأ هموها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمرهم بقراءتها ؟

قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر بإيجاب وفرض ، وإنما كان أمر بإباحة ورخصة ، لأن القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة ، عند من يقوم بنقله الحجة ، ويقطع خبره العذر ، ويزيل الشك من قراءة^(١) الأمة ، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين ، بعد أن يكون في نقلة القرآن من الأمة من تجب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة .

وإذ كان ذلك كذلك ، لم يكن القوم بتركهم نقل جميع القراءات السبع ، تاركين ما كان عليهم نقله ، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا ، إذ كان الذي فعلوا من ذلك ، كان هو النظر للإسلام وأهله ، فكان القيام بفعل الواجب عليهم ، بهم أولى من فعل ما لو فعلوه ، كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب منهم إلى السلامة ، من ذلك .

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان : -

يتبين من النصوص أن جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفية .

فالباعث لدى أبي بكر رضي الله عنه لجمع القرآن خشية من ذهابه بذهاب حملته ، حين استحر القتل بالقراء .

والباعث لدى عثمان رضي الله عنه كثرة الاختلاف في وجوه القراءة ، حين شاهد هذا الاختلاف في الأمصار وخطأ بعضهم بعضاً .

(١) « من قراءة الأمة » القراءة : جمع قارىء .

وجمع أبي بكر للقرآن كان نقلاً لما كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعصب .
وجمعاً له في مصحف واحد مرتب الآيات والسور . مقتصر على ما لم تنسخ
تلاوته ، مشتملاً على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن .

وجمع عثمان للقرآن كان نسخاً له على حرف واحد من الحروف السبعة ،
حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد . وحرف واحد يقرءون به دون ما عداه
من الأحرف الستة الأخرى . قال ابن التين وغيره : « الفرق بين جمع أبي بكر
وجمع عثمان ، أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب
جملته ، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد ، فجمعه في صحائف ، مرتباً
آيات سورة على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وجمع عثمان كان
لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى
ذلك بعضهم إلى تخطئة بعضه ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك ، فسخ تلك
الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة
قريش ، محتجاً بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم رفعا
للحرج والمشقة في ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت ، فاقصر
على لغة واحدة » وقال الحارث المخاسبي : « المشهور عند الناس أن جامع القرآن
عثمان ، وليس كذلك ، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد ، على
اختيار وقع بينه وبين من شهد من المهاجرين والأنصار ، لما خشي الفتنة عند
اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات ، فأما قبل ذلك فقد كانت
المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن
فأما السابق إلى جمع الحملة فهو الصديق » ^(١)

وبهذا قطع عثمان دابر الفتنة ، وحسم مادة الخلاف ، وحصن القرآن من
أن يتطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان .
وقد اختلف العلماء في عدد المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الآفاق ،

(١) أنظر الإقتان . صفحة ٥٩ ، ٦٠ ج ١ .

أ - وقيل كان عددها سبعة . أرسلت إلى : مكة ، والشام ، والبصرة ، والكوفة ، واليمن ، والبحرين ، والمدينة : قال ابن أبي داود : سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : كتب سبعة مصاحف ، فأرسل إلى مكة ، وإلى الشام ، وإلى اليمن ، وإلى البحرين ، وإلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً .

ب - وقيل كان عددها أربعة ، العراقي ، والشامي ، والمصري ، والمصحف الإمام ، أو الكوفي والبصري ، والشافعي ، والمصحف الإمام . قال أبو عمرو الداني في المقنع ^(١) : « أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعلها أربع نسخ ، وبعث إلى كل ناحية واحدة الكوفة ، والبصرة ، والشام ، وترك واحداً عنده » .

ج - وقيل كان عددها خمسة ، وذهب السيوطي إلى أن هذا هو المشهور . أما المصحف التي ردت إلى حفصة فقد ظلت عندها حتى ماتت . ثم غسلت غسلًا ^(٢) وقيل أخذها مروان بن الحكم وأحرقها .

والمصاحف التي كتبها عثمان لا يكاد يوجد منها مصحف واحد اليوم . والذي يروى عن ابن كثير ^(٣) في كتابه « فضائل القرآن » أنه رأى واحداً منها بجامع دمشق بالشام ، في رق يظنه من جلود الإبل » ويروى أن هذا المصحف الشامي نقل إلى إنجلترا بعد أن ظل في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب في لينينجراد فترة ، وقيل إنه احترق في مسجد دمشق سنة ١٣١٠ هجرية .

وجمع عثمان للقرآن هو المسمى بالجمع الثالث ، وكان سنة ٢٥ هجرية .

(١) هو عثمان بن سعيد ، من أئمة القراء ، له من الكتب : « التيسير في القراءات السبع » و « المقنع في رسم القرآن » و « المحكم في نقط المصاحف » توفي سنة ٤٤٤ هجرية .

(٢) تفسير الطبري صفحة ٦١ ج ١ .

(٣) عماد الدين أبو الفداء . اسماعيل بن عمر بن كثير ، صاحب تفسير القرآن ، والبداية والنهاية في التاريخ ، توفي سنة ٧٧٤ هجرية .

ترتيب الآيات والسور

ترتيب الآيات :

القرآن سور وآيات منها القصار والطوال ، والآية : هي الجملة من كلام الله المندرجة في سورة من القرآن ، والسورة : هي الجملة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع . وترتيب الآيات في القرآن الكريم توقيفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكى بعضهم الإجماع على ذلك : منهم : الزركشي في «البرهان» ، وأبو جعفر ابن الزبير^(١) في «مناسباته» إذ يقول : «ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف بين المسلمين» وجزم السيوطي بذلك فقال : «الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك» فقد كان جبريل يتنزل بالآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويرشده إلى موضعها من السورة أو الآيات التي نزلت قبل ، فيأمر الرسول كتابة الوحي بكتابتها في موضعها ويقول لهم : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا أو كذا ، أو ضعوا آية كذا في موضع كذا ، كما بلغها أصحابه كذلك ، عن عثمان بن أبي العاص قال : «كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ، ثم قال : أتاني

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي ، كان من النحاة الحفاظ ، توفي سنة ٨٠٧ هجرية .

جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ٩٠ - النحل) إلى آخرها » (١)

ووقف عثمان في جمع القرآن عند موضع كل آية من سورتها في القرآن ، ولو كانت منسوخة الحكم . لا يغيرها . وهذا يدل على أن كتابتها بهذا الترتيب توقيفية ، عن ابن الزبير قال : « قلت لعثمان : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً ٢٢٤ - البقرة) قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها ؟ » (٢) قال : « يا ابن أخي ، لا أغير شيئاً من مكانه » (٣) .

وجاءت الأحاديث الدالة على فضل آيات من سور بعينها ، ويستلزم هذا أن يكون ترتيبها توقيفياً . إذ لو جاز تغييرها لما صدقت عليها الأحاديث ، عن أبي الدرداء مرفوعاً : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » وفي لفظ « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف » (٤) كما جاءت الأحاديث الدالة على أية بعينها في موضعها ، عن عمر قال : « ما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله ، حتى طعن بإصبعه في صدري وقال : تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء » (٥) .

وثبتت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم لسور عديدة بترتيب آياتها في الصلاة ، أو في خطبة الجمعة ، كسورة البقرة وآل عمران والنساء ، وصح أنه قرأ « الأعراف » في المغرب ، وأنه كان يقرأ في صبح الجمعة : « ألم ، تنزيل الكتاب لا ريب فيه » « السجدة » و « هل أتى على الإنسان » « الدهر » وكان يقرأ سورة « ق » في الخطبة ، ويقرأ « الجمعة » و « المنافقون » في صلاة الجمعة .

وكان جبريل يعارض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل عام مرة

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن .

(٢) أي لماذا تثبتها بالكتابة أو تركها مكتوبة وأنت تعلم أنها منسوخة ؟

(٣) أخرجه البخاري .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه مسلم .

في رمضان ، وعارضه في العام الأخير من حياته مرتين ، وكان ذلك العرض على الترتيب المعروف الآن .

وبهذا يكون ترتيب آيات القرآن كما هو في المصحف المتداول في أيدينا توقيفياً ، لامراء في ذلك ، قال السيوطي بعد أن ذكر أحاديث السور المخصوصة « تدل قراءته صلى الله عليه وسلم لها بمشهد من الصحابة على أن ترتيب آياتها توقيفي وما كان الصحابة ليزتبوا ترتيباً سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على خلافه ، فبلغ ذلك مبلغ التواتر » (١)

ترتيب السور :

اختلف العلماء في ترتيب السور :

أ - فقيل : إنه توقيفي ، تولاه النبي صلى الله عليه وسلم كما أخبر به جبريل عن أمر ربه ، فكان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرتب السور ، كما كان مرتب الآيات على هذا الترتيب الذي لدينا اليوم ، وهو ترتيب مصحف عثمان الذي لم يتنازع أحد من الصحابة فيه مما يدل على عدم المخالفة والإجماع عليه .

ويؤيد هذا الرأي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بعض السور مرتبة في صلاته ، روى ابن أبي شيبة : أنه عليه الصلاة والسلام كان يجمع الفصل في ركعة « وروى البخاري عن ابن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه الأنبياء : إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادي » فذكرها نسفاً كما استقر ترتيبها .

وروى من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : « سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة مكية ،

(١) انظر الإتيان صفحة ٦١ ج ١ .

ولأنما أنزلنا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه به ، ثم قال :
فهذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه » (١)

وقال ابن الحصار : « ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا ، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف » (٢) .

ب - وقيل إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة بدليل اختلاف مصاحفهم في الترتيب .

فمصحف « علي » كان مرتباً على النزول ، أوله اقرأ ، ثم المدثر ، ثم ن ، والقلم ، ثم المزمل وهكذا ! إلى آخر المكي المدني .

وكان أول مصحف ابن مسعود ، البقرة ثم النساء ، ثم آل عمران .

وأول مصحف أبي ، الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران .

وقد روى ابن عباس قال : « قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المئين ، فقرنتم بينهما . ولم تكتبوا بينهما سطر » بسم الله الرحمن الرحيم « ووضعتوها في السبع الطوال ، فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك

(١) أخرجه ابن أشته في كتاب « المصاحف » والمراد بالتأليف : الجمع .

(٢) أنظر الإتيان ، صفحة ٦٢ ج ١ .

قُرت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتها في السبع الطوال » (١) .

ج - وقيل إن بعض السور ترتيبه توقيفي وبعضها باجتهاد الصحابة ، حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور في عهد النبوة . فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والخواميم والمفصل في حياته عليه الصلاة والسلام .

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اقرءوا الزهراوين : البقرة وآل عمران » (٢) .

وروي « أنه كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما ، فقرأ « قل هو الله أحد » و«المعوذتين» (٣)

وقال ابن حجر : « ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفياً » واستدل على ذلك بحديث حذيفة الثقفي حيث جاء فيه « فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : طراً على حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أفضيه ، فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل من «ق» حتى نختم » (٤) قال ابن حجر : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ويحتمل أن الذي كان مرتباً حينئذ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عداه .

وإذا ناقشنا هذه الآراء الثلاثة يتبين لنا :

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن خبان والحاكم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخاري .

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود . وانظر الإتيان صفحة ٦٣ ج ١ .

أن الرأي الثاني الذي يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة لم يستند إلى دليل يعتمد عليه .

فاجتهاد بعض الصحابة في ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختياراً منهم قبل أن يجمع القرآن جمعاً مرتباً ، فلما جمع في عهد عثمان بترتيب الآيات والسور على حرف واحد واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم ، ولو كان الترتيب اجتهادياً لتمسكوا بها .

وحديث سورتي : الأنفال والتوبة الذي روي عن ابن عباس يدور لإسناده في كل رواياته على « يزيد الفارسي » الذي يذكره البخاري في الضعفاء ، وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور . كأن عثمان كان يشتها برأيه وينفيها برأيه . ولذا قال فيه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه بمسند الإمام أحمد : إنه حديث لا أصل له » .

وغاية ما فيه أنه يدل على عدم الترتيب بين هاتين السورتين فقط ^(١) .

أما الرأي الثالث الذي يرى أن بعض السور ترتيبها توقيفي ، وبعضها ترتيبه اجتهادي . فإن أدلته تتركز على ذكر النصوص الدالة على ما هو توقيفي . أما القسم الاجتهادي فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادي . إذ أن ثبوت التوقيفي بأدلته لا يعني أن ما سواه اجتهادي . مع أنه قليل جداً .

وبهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات ، قال أبو بكر بن الأنباري : « أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرقه في بضع وعشرين ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جواباً لمستخبر ، ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة ، فأتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي صلى الله عليه وسلم . فمن قدم سورة أو أخرها فقد

(١) وحكي أن البسملة ثابتة لبراءة في مصحف ابن مسعود ، وفي المستدرك للحاكم أن علي بن أبي طالب سئل : « لم لم تكتب في براءة » بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأنها أمان ، وبراءة نزلت بالسيف » .

أفسد نظم القرآن « وقال الكرمانى فى « البرهان » ترتيب السور هكذا هو عند الله فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب ، وعليه كان صلى الله عليه وسلم يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه . وعرضه عليه فى السنة التى توفي فيها مرتين . وكان آخر الآيات نزولاً (واتفقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ٢٨١ - البقرة) فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدين » ^(١)

ومال السيوطي إلى ما ذهب إليه البيهقي قال « كان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرتباً سورة وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان » .

سور القرآن وآياته

سور القرآن أقسام أربعة : ١ - الطوال - ٢ - والمئين - ٣ - والمثاني - ٤ - والمفصل . نوجز أبحاث الآراء فيها .

١ - فالطوال : سبع : البقرة ، آل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والسابعة ، قيل : هي الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة . وقيل ! هي يونس .

٢ - والمئون : التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها .

٣ - والمثاني : هي التي تليها فى عدد الآيات ، سميت بذلك لأنها ثني فى القراءة وتكرر أكثر من الطوال والمئين .

٤ - والمفصل : قيل : من أول سورة « ق » وقيل : من أول « الحجرات » وقيل : غير ذلك - وأقسامه ثلاثة - طوالة ، وأوساطه ، وقصاره .

فطوالة : من « ق » أو « الحجرات » إلى « عم » أو « البروج » وأوساطه : من

(١) انظر الإتيان صفحة ٦٢ ج ١ .

« عم » أو « البروج » إلى « الضحى » أو إلى « لم يكن » وقصاره : من « الضحى »
أو « لم يكن » إلى آخر القرآن . على خلاف في ذلك .

وتسميته بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة

وتعداد السور ؛ مائة وأربع عشرة سورة ، وقيل : وثلاث عشرة بجعل
الأنفال وبراءة سورة واحدة .

أما تعداد الآيات فستة آلاف ومائتا آية ، واختلفوا فيما زاد عن ذلك .

وأطول الآيات آية الدين ، وأطول السور سورة البقرة .

وهذه التجزئة تيسر على الناس الحفظ ، وتحملهم على الدراسة ، وتشعر
القارئ لسورة من السور بأنه قد أخذ قسطاً وافياً وطائفة مستقلة من أصول
دينه وأحكام شريعته .

الرسم العثماني

سبق الحديث عن جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه . وقد اتبع
زيد بن ثابت والثلاثة القرشيون معه طريقة خاصة في الكتابة ارتضاها لهم عثمان ،
ويسمي العلماء هذه الطريقة « بالرسم العثماني للمصحف » نسبة إليه ، واختلف
العلماء في حكمه .

١ - فذهب بعضهم إلى أن هذا الرسم العثماني للقرآن توقيفي يجب الأخذ
به في كتابة القرآن ، وبالغوا في تقدسه ، ونسبوا التوقيف فيه إلى النبي صلى الله عليه
وسلم ، فذكروا أنه قال لمعاوية : أحد كتبة الوحي : « ألقى الدواة ، وحرف
القلم ، وانصب الباء ، وفرق السين ، ولا تعور الميم ، وحسن الله ، ومد الرحمن ،
وجود الرحيم ، وضع قلمك على أذنك اليسرى ، فإنه أذكر لك » ونقل ابن
المبارك عن شيخه عبد العزيز الدبائغ أنه قال له : ما للصحابة ولا لغيرهم في

رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف من النبي وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدي إليها العقول ، وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية . وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز .

والتمسوا لذلك الرسم أسراراً تجعل للرسم العثماني دلالة على معان خفية دقيقة ، كزيادة « الباء » في كتابة كلمة « أيد » من قوله تعالى (والسما بئناها بأيد - ٤٧ - الذاريات) إذ كتبت هكذا « بأيد » وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء . وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة ، وهي : زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .^(١)

وهذا الرأي لم يرد فيه شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يكون الرسم توقيفياً ، وإنما اصطلاح الكتبة على هذا الرسم في زمن عثمان برضا منه ، وجعل لهم ضابطاً لذلك بقوله للرهط القرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم » وحين اختلفوا في كتابة « التابوت » فقال زيد : « التابوه » وقال النضر القرشيون « التابوت » ورافقوا إلى عثمان قال : « اكتبوا « التابوت » فلما أنزل القرآن على لسان قريش .

٢ - وذهب كثير من العلماء إلى أن الرسم العثماني ليس توقيفياً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه اصطلاح ارتضاه عثمان ، وتلقته الأمة بالقبول ، فيجب التزامه والأخذ به ، ولا تجوز مخالفته . قال أشهب : « سئل مالك : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، إلا على الكتبة الأولى » رواه أبو عمرو الداني في « المقنع » ثم قال : « ولا مخالف له من علماء الأمة » وقال في موضع آخر : سئل مالك عن الحروف في القرآن مثل الواو والألف ، أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك ؟ قال : لا ، قال أبو عمرو :

(١) انظر مناهل العرفان للزرقاني صفحة ٣٧٠ وما بعدها ج ١ .

يعني الواو والألف المزيدين في الرسم المعدومتين في اللفظ نحو « أولوا » وقال الإمام أحمد : « تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك » ^(١) .

٣ - وذهب جماعة إلى أن الرسم العثماني اصطلاحى ، ولا مانع من مخالفته ! إذا اصطلاح الناس على رسم خاص للإملاء وأصبح شائعاً بينهم. قال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه « الانتصار » وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً . إن لم يأخذ على كتاب القرآن وخطوط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه ، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف ، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك ، ولا دلت عليه القياسات الشرعية ، بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ولا نهى أحداً عن كتابته . ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح ، وأن الناس لا يحفى عليهم الحال ، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وأن يجعل الكلام على صورة الكاف ، وأن تعوج الألفات ، وأن يكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثه ، وجاز أن يكتب بين ذلك ، وإذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة ، وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى . من غير تأثيم ولا تناكر ، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص ، كما أخذ عليهم في القراءة ، والسبب في ذلك أن الخطوط إنما

(١) انظر الإتيقان ، صفحة ١٦٧ ج ٢ .

هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز . فكل رسم دال على الكلمة مقيد لوجه قراءتها يجب صحته وتصويب الكاتب به على أية صورة كانت .. وبالحملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ، وأننى له ذلك » .

وانطلاقاً من هذا الرأي يدعو بعض الناس اليوم إلى كتابة القرآن الكريم وفق القواعد الإملائية الشائعة المصطلح عليها ، حتى تسهل قراءته على القارئ من الطلاب والدارسين ، ولا يشعر الطالب أثناء قراءته للقرآن باختلاف رسمه عن الرسم الإملائي الاصطلاحي الذي يدرسه .

والذي أراه أن الرأي الثاني هو الرأي الراجح ، وأنه يجب كتابة القرآن بالرسم العثماني المعهود في المصحف .

فهو الرسم الاصطلاحي الذي توارثته الأمة منذ عهد عثمان رضي الله عنه ، والحفاظ عليه ضمان قوي لصيانة القرآن من التغيير والتبديل في حروفه ، ولو أبيحت كتابته بالاصطلاح الإملائي لكل عصر لآدى هذا إلى تغيير خط المصحف من عصر لآخر ، بل إن قواعد الإملاء نفسها تختلف فيها وجهات النظر في العصر الواحد ، وتفاوت في بعض الكلمات من بلد لآخر .

واختلاف الخطوط الذي يذكره القاضي أبو بكر الباقلاني شيء والرسم الإملائي شيء آخر ، فاختلاف الخط تغير في صورة الحرف لا في رسم الكلمة .

وحجة تيسير القراءة على الطلاب والدارسين بانتفاء التعارض بين رسم القرآن والرسم الإملائي الاصطلاحي لا تكون مبرراً للتغيير الذي يؤدي إلى التهاون في تحري الدقة بكتابة القرآن .

والذي يعتاد القراءة في المصحف يألف ذلك ويفهم الفوارق الإملائية بالإشارات الموضوعة على الكلمات ، والذين يمارسون هذا في الحياة التعليمية أو مع أبنائهم

يدركون أن الصعوبة التي توجد في القراءة بالمصحف أول الأمر تتحول بالمران بعد فترة قصيرة إلى سهولة تامة .

قال البيهقي في شعب الإيمان : « من يكتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ، ولا يخالفهم فيه ، ولا يغير مما كتبه شيئاً ، فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم » ^(١)

تحسين الرسم العثماني

كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل ، اعتماداً على السليقة العربية السليمة التي لا تحتاج إلى الشكل بالحركات ولا إلى الإعجام بالنقط ، فلما تطرق إلى اللسان العربي الفساد بكثرة الاختلاط أحسن أولوا الأمر بضرورة تحسين كتابة المصحف بالشكل والنقط وغيرهما مما يساعد على القراءة الصحيحة .

واختلف العلماء في أول جهد بذل في ذلك السبيل .

فيرى كثير منهم أن أول من فعل ذلك أبو الأسود الدؤلي الذي ينسب إليه وضع ضوابط للعربية بأمر علي بن أبي طالب ، ويروى في ذلك أنه سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : (ان الله بريء من المشركين ورسوله ٣ - التوبة) فقرأها بجر اللام من كلمة « رسوله » فأفرع هذا اللحن أبا الأسود وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ، ثم ذهب إلى زياد والي البصرة وقال له : قد أجبتك إلى ما سألت ، وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله ، فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث ، وهنا جد جده ، وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله ، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف ، وجعل علامة السكون نقطتين .

(١) انظر الإتيقان صفحة ١٦٧ ج ٢ .

ويذكر السيوطي في الإقتان أن أبا الأسود الدؤلي أول من فعل ذلك بأمر عبد الملك بن مروان لا بأمر زياد ، حيث ظل الناس يقرءون في مصحف عثمان بضعا وأربعين سنة . حتى خلافة عبد الملك حين كثرت التصحيقات وانتشرت في العراق ففكر الولاة في النقط والتشكيل .

وهناك روايات أخرى تنسب هذا الفعل إلى آخرين : منهم : الحسن البصري ، ويحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم الليثي ، وأبو الأسود الدؤلي هو الذي اشتهر عنه ذلك ، وربما كان للآخرين المذكورين جهود أخرى بذلت في تحسين الرسم وتيسيره .

وقد تدرج تحسين رسم المصحف ، فكان الشكل في الصدر الأول نقطا ، فالفتحة نقطة على أول الحرف ، والضممة على آخره ، والكسرة تحت أوله .

ثم كان الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف ، وهو الذي أخرجه الخليل ، فالفتح شكلة مستطيلة فوق الحرف ، والكسر كذلك تحته ، والضم واو صغرى فوقه ، والتنوين زيادة مثلها ، وتكتب الألف المحذوفة والمبدل منها في محلها حمراء ، والهمزة المحذوفة تكتب همزة بلا حرف حمراء أيضاً ، وعلى النون والتنوين قبل الباء علامة الإقلاب حمراء ، وقبل الحلق سكون ، وتعى عند الإدغام والإخفاء ، ويسكن كل مسكن ، ويعرى المدغم ويشدد ما بعده إلا الطاء قبل التاء فيكتب عليها السكون نحو « فرطت » (١) .

ثم كان القرن الثالث الهجري فجاد رسم المصحف وتحسن ، وتنافس الناس في اختيار الخطوط الجميلة وابتكار العلامات المميزة ، فجعلوا للحرف المشدد علامة كالقوس ، ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها . على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة .

ثم تدرج الناس بعد ذلك في وضع أسماء السور وعدد الآيات ، والرموز

(١) انظر الإقتان صفحة ١٧١ ج ٢ .

التي تشير إلى رءوس الآي ، وعلامات الوقف اللازم (م) والممنوع (لا) والجائز جوازاً مستوي الطرفين (ج) والجائز مع كون الوصل أولى (صلى) والجائز مع كون الوقف أولى (قلى) وتعاين الوقف بحيث إذا وقف على أحد الموضعين لا يصح الوقف على الآخر (. . .) والتجزئة ، والتحزيب ، إلى غير ذلك من وجوه التحسين .

وكان العلماء في بداية الأمر يكرهون ذلك خوفاً من وقوع زيادة في القرآن مستندين إلى قول ابن مسعود : « جردوا القرآن ولا تخطوه بشيء » ويفرق بعضهم بين النقط الجائز . والأعشار والفواتح التي لا تجوز . قال الحلبي : « تكره كتابة الأعشار والأخماس ، وأسماء السور وعدد الآيات فيه لقول ابن مسعود : « جردوا القرآن » وأما النقط فيجوز ، لأنه ليس له صورة فيتوهم لأجلها ما ليس بقرآن قرآناً . وإنما هي دلالات على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها » .

ثم انتهى الأمر في ذلك إلى الإباحة والاستحباب ، اخرج ابن أبي داود عن الحسن وابن سيرين أنهما قالاً : « لا بأس بنقط المصاحف » وأخرج عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن : أنه قال : « لا بأس بشكله » وقال النووي : « نقط المصحف وشكله مستحب لأنه صيانة له من اللحن والتحريف » ^(١)

وقد وصلت العناية بتحسين رسم المصحف اليوم ذروتها في الخط العربي .

(١) انظر الإتيقان ، صفحة ١٧١ ج ٢ .

نزل القرآن على سبعة أحرف

لقد كان للعرب لهجات شتى تنبع من طبيعة فطرتهم في جرسها وأصواتها وحروفها تعرضت لها كتب الأدب بالبيان والمقارنة ، فكل قبيلة لها من اللحن في كثير من الكلمات ما ليس للآخرين ، إلا أن قريشاً من بين العرب قد تهيأت لها عوامل جعلت للغتها الصدارة بين فروع العربية الأخرى من جوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام والإشراف على التجارة ، فأُنزلها العرب جميعاً لهذه الخصائص وغيرها منزلة الأب للغاتهم ، فكان طبيعياً أن يتنزل القرآن بلغة قريش على الرسول القرشي تأليفاً للعرب وتحقيقاً لإعجاز القرآن حين يسقط في أيديهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه .

وإذا كان العرب تتفاوت لهجاتهم في المعنى الواحد بوجه من وجوه التفاوت فالقرآن الذي أوحى الله به لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم يكمل له معنى الإعجاز إذا كان مستجمعاً لحروفه وأوجه قراءته للخالص منها ، وذلك مما ييسر عليهم القراءة والحفظ والفهم ،

ونصوص السنة قد تواترت بأحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف . ومن

ذلك : -

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف » .^(١)

وعن أبي بن كعب : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة^(٢) بني غفار ، قال : فأناه جبريل فقال : إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على حرف . فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أناه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على حرفين — فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاء الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاء الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فأبما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا »^(٣)

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكذت أساوره في الصلاة ، فانتظرت حتى سلم ، ثم لبسته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرأها ، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ، فقلت : يا رسول الله ، إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئها ، وأنت أقرأني سورة الفرقان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر ، اقرأ يا هشام ، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرأها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) الأضاة : الغدير

(٣) رواه مسلم .

صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقروا ما تيسر منها » (١) .

والأحاديث في ذلك مستفيضة استقرأ معظمها ابن جرير في مقدمة تفسيره ، وذكر السيوطي أنها رويت عن واحد وعشرين صحابياً ، وقد نص أبو عبيد القاسم بن سلام على تواتر حديث نزول القرآن على سبعة أحرف (٢) .

واختلف العلماء في تفسير هذه الأحرف اختلافاً كثيراً . حتى قال ابن حبان : « اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً (٣) وأكثر هذه الآراء متداخل ، ونحن نورد هنا ما هو ذو بال منها : —

أ - ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد ، على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير عن معنى من المعاني يأتي القرآن منزلاً بالفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد ، وحيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتي بلفظ واحد أو أكثر .
واختلفوا في تحديد اللغات السبع .

ف قيل : هي لغات : قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن .

وقال أبو حاتم السجستاني : نزل بلغة قريش ، وهذيل ، وتميم ، والأزد ، وربيع ، وهوازن ، وسعد بن بكر .

وروي غير ذلك (٤)

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وأحمد وابن جرير .

(٢) انظر الإتيقان ، صفحة ٤١ ج ١ .

(٣) وقال السيوطي : اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولاً ، صفحة ٤٥ ج ١ .

(٤) انظر الإتيقان ، صفحة ٤٧ ج ١ .

ب - وقال قوم : إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن ، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عن سبع لغات هي أفصح لغاتهم ، فأكثره بلغة قريش . ومنه ما هو بلغة هذيل ، أو ثقيف ، أو هوازن ، أو كنانة ، أو تميم ، أو اليمن . فهو يشتمل في مجموعه على اللغات السبع . وهذا الرأي يختلف عن سابقه . لأنه يعني أن الأحرف السبعة إنما هي أحرف سبعة متفرقة في سور القرآن ، لا أنها لغات مختلفة في كلمة واحدة باتفاق المعاني .

قال أبو عبيد : « ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات ، بل اللغات السبع مفرقة فيه ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن . وغيرهم ، قال : وبعض اللغات أسعد به من بعض وأكثر نصيباً » (١)

ج - وذكر بعضهم أن المراد بالأحرف السبعة أوجه سبعة : من الأمر ، والنهي ، والوعد ، والوعيد ، والجلد ، والقصص ، والمثل . أو من : الأمر ، والنهي ، والحلال ، والحرام . والمحكم ، والمتشابه ، والأمثال :

عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد ، وعلى حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب ، على سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال » (٢) .

د - وذهب جماعة إلى أن المراد بالأحرف السبعة ، وجوه التباير السبعة التي يقع فيها الاختلاف : وهي - :

١ - اختلاف الأسماء بالافراد والتذكير وفروعهما « الثنية ، والجمع ، والتأنيث » كقوله تعالى : (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ٨ - المؤمنون) قرىء « لأماناتهم » بالجمع ، وقرىء « لأمانتهم » بالافراد . ورسومها في المصحف « لأمنتهم » يحتمل القراءتين ، لخلوها من الألف الساكنة ، ومآل الوجهين في

(١) الإتيان ، صفحة ٤٧ ج ١ .

(٢) أخرجه الحاكم والبيهقي .

المعنى واحد ، فيراد بالجمع الاستغراق الدال على الجنسية ، ويراد بالإفراد الجنس الدال على معنى الكثرة ، أي جنس الأمانة ، وتحت هذا جزئيات كثيرة .

٢ - الاختلاف في وجوه الإعراب ، كقوله تعالى : (ما هذا بشراً ، ٣١ - يوسف) قرأ الجمهور بالنصب ، على أن « ما » عاملة عمل « ليس » وهي لغة أهل الحجاز وبها نزل القرآن ، وقرأ ابن مسعود (ما هذا بشراً) بالرفع ، على لغة بني تميم ، فإنهم لا يعملون « ما » عمل « ليس » وكقوله (فتلقى آدم من ربه كلمات ٣٧ - البقرة) وقرأ بنصب « آدم » ورفع « كلمات » (فتلقى آدم من ربه كلمات) .

٣ - الاختلاف في التصريف : كقوله تعالى : (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ١٩ - سبأ) قرأ بنصب « ربنا » على أنه منادى مضاف ، و « باعد » بصيغة الأمر ، وقرأ « ربنا » بالرفع ، و « باعد » بفتح العين ، على أنه فعل ماض ، وقرأ « بَعَدَ » بفتح العين مشددة مع رفع « ربنا » أيضاً .

ومن ذلك ما يكون بتغيير حرف ، مثل « يعلمون » وتعلمون « بالياء والتاء ، و « الصراط » و « السراط » في قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم ٦ - الفاتحة) .

٤ - الاختلاف بالتقديم والتأخير ، إما في الحرف ، كقوله تعالى : (أفلم يئأس ٣١ - الرعد) وقرأ (أفلم يأس) وإما في الكلمة كقوله تعالى : (فيقتلون ويقتلون ١١١ - التوبة) بالبناء للفاعل في الأول ، وللمفعول في الثاني ، وقرأ بالعكس ، أي بالبناء للمفعول في الأول ، وللفاعل في الثاني .

أما قراءة (وجاءت سكرة الموت بالحق ١٩ - ق) بدلا من قوله تعالى : (وجاءت سكرة الموت بالحق) فقراءة أحادية أو شاذة ، لم تبلغ درجة التواتر .

٥ - الاختلاف بالابدال ، سواء كان إبدال حرف بحرف ،

كقوله تعالى : (وانظر إلى العظام كيف ننشزها ٢٥٩ - البقرة) قرأ بالزاي المعجمة مع ضم النون ، وقرأ بالراء المهملة مع فتح النون ، أو إبدال لفظ

بلفظ ، كقوله تعالى : (كالعهن المنفوش ٥ - القارة) قرأ ابن مسعود وغيره (كالصوف المنفوش) وقد يكون هذا الإبدال مع التفاوت في الخارج كقوله تعالى (طلع منضود ٢٩ - الواقعة) قرىء « طلع » ونخرج الحاء والعين واحد ، فهما من حروف الحلق .

٦ - الاختلاف بالزيادة والنقص ، فالزيادة كقوله تعالى : (وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار - ١٠٠ - التوبة) قرىء (من تحتها الأنهار) بزيادة « من » وهما قراءتان متواترتان ، والنقصان كقوله تعالى : (قالوا اتخذ الله ولداً - ١١٦ - البقرة) بدون واو ، وقراءة الجمهور ، (وقالوا اتخذ الله ولداً) بالواو ، وقد يمثل للزيادة في قراءة الآحاد ، بقراءة ابن عباس (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً - ٧٩ - الكهف) بزيادة « صالحة » وإبدال كلمة « أمام » بكلمة « وراء » وقراءة الجمهور (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) كما يمثل للنقصان بقراءة (والذكر والأنثى) بدلا من قوله تعالى : (وما خلق الذكر والأنثى ٣ - الليل) .

٧ - اختلاف اللهجات بالتفخيم والترقيق ، والفتح والإمالة . والإظهار والإدغام ، والهمز والتسهيل . والإشمام ونحو ذلك ، كالإمالة وعدمها في مثل قوله تعالى : (هل أتاك حديث موسى - ٩ - طه) قرىء بإمالة « أتى » و « موسى » وترقيق الراء في قوله : (خبيراً بصيراً) وتفخيم اللام في (الطلاق) وتسهيل الهمزة في قوله : (قد أفلح - ١ - المؤمنون) وإشمام الغين ضمة مع الكسر في قوله تعالى : (وغيض الماء - ٤٤ - هود) وهكذا .

٥ - وذهب بعضهم إلى أن العدد سبعة لا مفهوم له . وإنما هو رمز إلى ما ألفه العرب من معنى الكمال في هذا العدد ، فهو إشارة إلى أن القرآن في لغته وتركيبه كأنه حدود وأبواب لكلام العرب كله مع بلوغه الذروة في الكمال ، فلفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة والكمال في الآحاد ، كما يطلق السبعون في العشرات ، والسبعمائة في المئين ، ولا يراد العدد المعين (١) .

(١) انظر الإتيان ، صفحة ٤٥ ج ١ .

العدد ٥٠٨٠٠
جميع لغات العرب

و - وقال جماعة : إن المراد بالأحرف السبعة ، القراءات السبع .

والراجع من هذه الآراء جميعاً هو الرأي الأول . وأن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد . نحو أقبل ، وتعال ، وهلم ، وعجل وأسرع ، فهي ألفاظ مختلفة لمعنى واحد ، وإليه ذهب سفيان بن عيينه ، وابن جرير ، وابن وهب ، وخلائق ، ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء ويدل له ما جاء في حديث أبي بكر : « أن جبريل قال : يا محمد ، اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقال ! على حرفين ، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف ، فقال : كلها شاف كاف ، ما لم يحتم آية عذاب بآية رحمة ، أو آية رحمة بآية عذاب ، كقولك : هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل » ^(١) قال ابن عبد البر : « إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها ، وأما معان متفق مفهوماتها ، مختلف مسموعها ، لا يكون في شيء منها معنى وضده ، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفيه ويضاده ، كالرحمة التي هي خلاف العذاب » ^(٢)

ويؤيده أحاديث كثيرة :

« قرأ رجل عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فغير عليه ، فقال : لقد قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يغير عليّ ، قال : فاختصما عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ ألم تقرني أية كذا وكذا ؟ قال : بلى ! قال : فوقع في صدر عمر شيء ، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في وجهه ، قال : فضرب صدره وقال : ابعثْ شيطاناً - قالها ثلاثاً - ثم قال : يا عمر ، إن القرآن كله ضوab ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة » ^(٣)

وعن بusr بن سعيد : « أن أبا جهيم الأنصاري أخبره : أن رجلين اختلفا

(١) أخرجه أحمد والطبراني ، بإسناد جيد ، وهذا اللفظ لأحمد .

(٢) انظر الإتيان صفحة ٤٧ - ج ١ .

(٣) أخرجه أحمد بإسناد رجاله ثقات ، وأخرجه الطبري .

في آية من القرآن ، فقال هذا : تلقيتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : تلقيتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فلا تماروا في القرآن ، فإن المراء فيه كفر» (١)

وعن الأعمش قال : «قرأ أنس هذه الآية : (إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قبلا ٦ - المزمل) فقال له بعض القوم : يا أبا حمزة ، إنما هي «وأقوم» فقال : أقوم وأصوب وأهيا واحد» (٢)

وعن محمد بن سيرين قال : نبئت أن جبرائيل وميكائيل أتيا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له جبرائيل : اقرأ القرآن على حرفين ، فقال له ميكائيل : استزده ، قال : حتى بلغ سبعة أحرف ، قال محمد : لا تختلف في حلال ولا حرام ، ولا أمر ولا نهى ، هو كقولك : تعال ، وهلم وأقبل ، قال : وفي قراءتنا (إن كانت إلا صيحة واحدة - ٢٩ ، ٥٣ - يونس) في قراءة ابن مسعود (إن كانت إلا زقية واحدة) (٣)

ويجاب عن الرأي الثاني (ب) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن ، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماتها عنها فهو يشتمل في مجموعه عليها - بأن لغات العرب أكثر من سبع ، وبأن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قرشي من لغة واحدة ، وقبيلة واحدة ، وقد اختلفت قراءتهما . ومحال أن ينكر عليه عمر لغته ، فدل ذلك على أن المراد بالأحرف السبعة غير ما يقصده ، ولا يكون هذا إلا باختلاف الألفاظ في معنى واحد ، وهو ما نرجحه .

(١) رواه أحمد في المسند ، ورواه الطبري ، ونقله ابن كثير في الفضائل ، والهيشمي في مجمع الزوائد . وقال رجاله رجال الصحيح .

(٢) رواه الطبري ، وأبو يعلى ، والبراز ، ورجالهم رجال الصحيح .

(٣) رواه الطبري ، ومحمد - هو ابن سيرين التابعي - فالحديث مرسل .

قال ابن جرير الطبري بعد أن ساق الأدلة ، مبطلاً هذا الرأي : « بل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، هن لغات سبع في حرف واحد ، وكلمة واحدة ، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني ، كقول القائل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإليّ ، وقصدي ، ونحوي ، وقرني ، ونحو ذلك ، مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق وتتفق فيه المعاني ، وإن اختلفت بالبيان به الألسن ، كالذي رويّا آنفاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن رويّا ذلك عنه من الصحابة ، أن ذلك بمنزلة قولك : « هلم وتعال وأقبل » وقوله : « ما ينظرون إلا زقية » و « إلا صيحة » .

وأجاب الطبري عن تساؤل مفترض : ففي أي كتاب الله نجد حرفاً واحداً مقروءاً بلغات سبع مختلفات الألفاظ متفقات المعنى ؟ — أجب : بأننا لم ندع أن ذلك موجود اليوم — وعن تساؤل مفترض آخر : فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة ؟ — بأن الأمة أمرت بحفظ القرآن ، وخيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت كما أمرت ، ثم دعت الحاجة إلى التزام القراءة بحرف واحد مخافة الفتنة في زمن عثمان ، ثم اجتمع أمر الأمة على ذلك ، وهي معصومة من الضلالة (١) .

ويجاب عن الرأي الثالث (ج) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه : من الأمر ، والنهي ، والحلال ، والحرام ، والمحكم ، والمتشابه ، والأمثال — بأن ظاهر الأحاديث يدل على أن المراد بالأحرف السبعة أن الكلمة تقرأ على وجهين أو ثلاثة إلى سبعة توسعة للأمة ، والشيء الواحد لا يكون حلالاً وحراماً في آية واحدة ، والتوسعة لم تقع في تحريم حلال ، ولا تحليل حرام ، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة .

والذي ثبت في الأحاديث السابقة أن الصحابة الذين اختلفوا في القراءة احتكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستقرأ كل رجل منهم ، ثم صوب

(١) انظر تفسير الطبري صفحة ٥٧ وما بعدها ، ج ١ .

جميعهم في قراءتهم على اختلافها ، حتى ارتاب بعضهم لتصويبه إياهم ، فقال صلى الله عليه وسلم للذي ارتاب منهم عند تصويبه جميعهم « إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » .

« ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك ، لو كان تمارياً واختلافاً فيما دلت عليه تلاوتهم من التحليل والتحريم والوعد والوعيد وما أشبه ذلك ، لكان مستحيلاً أن يصبوب جميعهم ، ويأمر كل قارئ منهم أن يلزم قراءته في ذلك على النحو الذي هو عليه ، لأن ذلك لو جاز أن يكون صحيحاً وجب أن يكون الله جل ثناؤه قد أمر بفعل شيء بعينه وفرضه ، - في تلاوة من دلت تلاوته على فرضه - ونهى عن فعل ذلك الشيء بعينه وزجر عنه - في تلاوة الذي دلت تلاوته على النهي والزجر عنه - وأباح وأطلق فعل ذلك الشيء بعينه ، وجعل لمن شاء من عباده أن يفعله فعله . ولن شاء منهم أن يتركه تركه ، في تلاوة من دلت تلاوته على التخيير .

وذلك من قائله إن قاله إثبات ما قد نفى الله جل ثناؤه عن تنزيله وحكم كتابه فقال : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً - ٨٢ - النساء) .

وفي نفي الله جل ثناؤه ذلك عن محكم كتابه أوضح الدليل على أنه لم ينزل كتابه على لسان محمد صلى الله عليه وسلم إلا بمحكم واحد متفق في جميع خلقه لا بأحكام فيهم مختلفة ^(١) .

ويجيب عن الرأي الرابع (د) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة وجوه التباين التي يقع فيها الاختلاف - بأن هذا وإن كان شائعاً مقبولاً لكنه لا ينهض أمام أدلة الرأي الأول التي جاء التصريح فيها باختلاف الألفاظ مع اتفاق المعنى ، وبعض وجوه التباين والاختلاف التي يذكرونها ورد بقراءات

(١) تفسير الطبري ، صفحة ٤٨ ، ٤٩ ج ١ .

الآحاد ، ولا خلاف في أن كل ما هو قرآن يجب أن يكون متواتراً ، وأكثرها يرجع إلى شكل الكلمة أو كيفية الأداء مما لا يقع به التغير في اللفظ ، كالاختلاف في الإعراب ، أو التصريف ، أو التفعيم والترقيق والفتح والإمالة والإظهار والإدغام والإشمام فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع في اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً .

ويجاب عن الرأي الخامس (هـ) الذي يرى أن العدد سبعة لا مفهوم له - بأن الأحاديث تبدل بنصها على حقيقة العدد وانحصاره « أقراني جبريل على حرف ، فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف » ^(١) . وإن ربي أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف ، فرددت عليه أن هوّن على أمي - فأرسل إلي أن اقرأ على سبعة أحرف ^(٢) فهذا يدل على حقيقة العدد المعين المحصور في سبعة .

ويجاب عن الرأي السادس (و) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع - بأن القرآن غير القراءات ، فالقرآن : هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز ، والقراءات : هي اختلاف في كيفية النطق بألفاظ الوحي ، من تخفيف أو تثقيل أو مد أو نحو ذلك ، قال أبو شامة : « ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث ، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل » ^(٣) .

وقال الطبري : « وأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف وجره ونصبه ، وتسكين حرف وتحريكه ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة ، فمن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » بمعزل ، لأنه معلوم أنه لا حرف من حروف القرآن - مما اختلفت القراءة في قراءته بهذا المعنى

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) انظر الإتيان ، صفحة ٨٠ ج ١ .

يوجب المراد به كفر المماري به في قول أحد من علماء الأمة ، وقد أوجب عليه الصلاة والسلام بالمراء فيه الكفر ، من الوجه الذي تنازع فيه المتنازعون إليه ، وتظاهرت عنه بذلك الرواية ^(١) .

ولعل الذي أوقعهم في هذا الخطأ الاتفاق في العدد سبعة ، فالتبس عليهم الأمر . قال ابن عمار : « لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له ، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر ، وليته إذ اقتصر نقص على السبعة أو زاد ليزيل الشبهة » .

وبهذه المناقشة يتبين لنا أن الرأي الأول (أ) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد هو الذي يتفق مع ظاهر النصوص ، وتسانده الأدلة الصحيحة .

عن أبي بن كعب قال : « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : رب خفف عن أمي ، فأمرني ، قال : اقرأه على حرفين ، فقلت : رب خفف عن أمي ، فأمرني أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة ، كلها شاف كاف ^(٢) »

قال الطبري : « والسبعة الأخرى : هو ما قلنا من أنه الألسن السبعة ، والأبواب السبعة من الجنة هي المعاني التي فيها ، من الأمر والنهي والترغيب والترهيب والقصص والمثل ، التي إذا عمل بها العامل ، وانتهى إلى حدودها المنتهي ، استوجب به الجنة ، وليس والحمد لله في قول من قال ذلك من المتقدمين خلاف لشيء مما قلناه » ومعنى « كلها شاف كاف » كما قال جل ثناؤه في صفة القرآن : (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ٥٧ - يونس) جعله الله للمؤمنين شفاء ، يستشفون بمواعظه من الأدواء

(١) تفسير الطبري ، صفحة ٦٥ ، ج ١ .

(٢) رواه مسلم والطبري .

العارضة لصدورهم من وساوس الشيطان وخطراته ، فيكفيهم ويغنيهم عن كل ما عداه من المواعظ ببيان آياته » (١)

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف

تتلخص حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف في أمور : —

١ — تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين ، لكل قبيل منهم لسان ولا عهد لهم بحفظ الشرائع ، فضلاً عن أن يكون ذلك مما ألفوه — وهذه الحكمة نصت عليها الأحاديث في عبارات :

عن أبي قال : «لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عند أحجار المراء فقال : إني بعثت إلى أمة أميين ، منهم الغلام والخادم والشيخ العاس والعجوز ، فقال جبريل : فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف » (٢) « إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف ، فقلت : اللهم رب خفف عن أمي » « إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على حرف ، قال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمي لا تطيق ذلك » .

٢ — إعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب — فتعدد مناجي التأليف الصوتي للقرآن تعدداً يكافئ الفروع اللسانية التي عليها فطرة اللغة في العرب حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري ولهجة قومه مع بقاء الإعجاز الذي تحدى به الرسول العرب ومع اليأس من معارضته لا يكون إعجازاً للسان دون آخر ، وإنما يكون إعجازاً للفطرة اللغوية نفسها عند العرب .

٣ — إعجاز القرآن في معانيه وأحكامه — فإن تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات يتهياً معه استنباط الأحكام التي تجعل القرآن ملائماً لكل عصر — ولهذا احتج الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد بقراءات الأحرف السبعة .

(١) انظر الطبري صفحة ٤٧ ، ٦٧ ج ١ .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والطبري بإسناد صحيح ، وأحجار المراء : موضع بقاء ، وعسا الشيخ : كبير وأسن وضعف .

القراءات والقراء

القراءات : جمع قراءة ، مصدر قرأ في اللغة ، ولكنها في الاصطلاح العلمي : مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهباً يخالف غيره .

وهي ثابتة بأسانيدھا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة ، فقد اشتهر بالإقراء منهم : أبي ، وعلي ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعري ، وغيرهم ، وعنهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار . وكلهم يسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر الذهبي في « طبقات القراء » أن المشتهرين بإقراء القرآن من الصحابة سبعة : عثمان ، وعلي ، وأبي ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ، قال : وقد قرأ على « أبي » جماعة من الصحابة ، منهم : أبو هريرة وابن عباس وعبد الله بن السائب ، وأخذ ابن عباس عن زيد أيضاً .

وأخذ عن هؤلاء الصحابة خلق كثير من التابعين في كل مصر من الأمصار .

كان منهم « بالمدينة » ابن المسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز ،

وسليمان وعطاء ابنا يسار ، ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القاري ، وعبد الرحمن ابن هرمز الأعرج ، وابن شهاب الزهري ، ومسلم بن جندب ، وزيد بن أسلم . وكان منهم « بمكة » عبيد بن عمير ، وعطاء بن أبي رباح ، وطاوس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن أبي مليكة .

وكان منهم « بالكوفة » علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، وعمرو بن شرحبيل ، والحارث بن قيس ، وعمرو بن ميمون ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وسعيد بن جبير ، والنخعي ، والشعبي .

وكان منهم « بالبصرة » أبو عالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة .

وكان منهم « بالشام » المغيرة بن أبي شهاب المخزومي ، صاحب عثمان ، وخليفة بن سعد ، صاحب أبي الدرداء .

وفي عهد التابعين على رأس المائة الأولى تجرد قوم واعتنوا بضبط القراءة عناية تامة ، حين دعت الحاجة إلى ذلك ، وجعلوها علماً كما فعلوا بعلوم الشريعة الأخرى ، وصاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم . واشتهر منهم ومن الطبقة التي تلتهم الأئمة السبعة الذين تنسب إليهم القراءات إلى اليوم ، فكان منهم « بالمدينة » أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم نافع بن عبد الرحمن وكان منهم « بمكة » عبد الله ابن كثير ، وحמיד بن قيس الأعرج ، وكان منهم « بالكوفة » عاصم بن أبي النجود ، وسليمان الأعمش ، ثم حمزة ، ثم الكسائي ، وكان منهم « بالبصرة » عبد الله بن أبي اسحاق ، وعيسى بن عمرو ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعاصم الجحدري ، ثم يعقوب الحضرمي ، وكان منهم « بالشام » عبد الله بن عامر ، واسماعيل بن عبد الله بن المهاجر ، ثم يحيى بن الحارث ، ثم شريح بن يزيد الحضرمي .

والأئمة السبعة الذين اشتهروا من هؤلاء في الآفاق هم : أبو عمرو ، ونافع ،

وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، وابن كثير . (١)

والقراءات غير الأحرف السبعة — على أصح الآراء — وإن أُوهم التوافق العددي الوحدة بينهما ، لأن القراءات مذاهب أئمة ، وهي باقية إجماعاً يقرأ بها الناس ، ومنشؤها اختلاف في اللهجات وكيفية النطق وطرق الأداء من تفخيم ، وترقيق ، وإمالة ، وإدغام ، وإظهار ، وإشباع ، ومد ، وقصر ، وتشديد ، وتخفيف ... الخ ، وجميعها في حرف واحد هو حرف قريش .

أما الأحرف السبعة فهي بخلاف ذلك على نحو ما سبق لك ، وقد انتهى الأمر بها إلى ما كانت عليه العرضة الأخيرة حين اتسعت الفتوحات ، ولم يعد للاختلاف في الأحرف وجه خشية الفتنة والفساد ، فحمل الصحابة الناس في عهد عثمان على حرف واحد هو حرف قريش وكتبوا به المصاحف كما تقدم .

كثرة القراء والسبب في الاختصار على السبعة

قراءات أولئك السبع هي المتفق عليها ، وقد اختار العلماء من أئمة القراءة غيرهم ثلاثة صحت قراءتهم وتواترت ، وهم : أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني ، ويعقوب بن اسحاق الحضرمي ، وخلف بن هشام . وهؤلاء وأولئك هم أصحاب القراءات العشر . وما عداها فشاذ ، كقراءة : اليزيدي ، والحسن . والأعمش ، وابن جبير ، وغيرهم . ولا تخلو إحدى القراءات العشر حتى السبع المشهورة من شواذ . فإن فيها من ذلك أشياء ، واختيار القراء السبع إنما هو للعلماء المتأخرين في المائة الثالثة ، وإلا فقد كان الأئمة الموثوق بعلمهم كثيرين ، وكان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة ابن عمرو ، ويعقوب ، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم . وبالشام على قراءة ابن عامر وبمكة على قراءة ابن كثير ، وبالمدينة على قراءة نافع ، وكان هؤلاء هم السبعة . فلما كان على رأس المائة الثالثة أثبت أبو بكر بن مجاهد (٢) اسم الكسائي ، وحذف منهم اسم يعقوب .

(١) انظر الإتيان صفحة ٧٢ ، ٧٣ - ج ١ .

(٢) مقرأ أهل العراق ، ومن أنقروا في هذا الفن ، وكان من المتقنين ، توفي سنة ٣٢٤ هـ .

قال السيوطي : « أول من صنف في القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام ، ثم أحمد بن جبير الكوفي ، ثم اسماعيل بن اسحاق المالكي صاحب فالون ، ثم أبو جعفر بن جرير الطبري ، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الدجوني ، ثم أبو بكر بن مجاهد ، ثم قام الناس في عصره وبعده بالتأليف في أنواعها جامعا ومفردا . وموجزا ومسهما ، وأئمة القراءات لا تحصى ، وقد صنف طبقاتهم حافظ الإسلام أبو عبدالله الذهبي ، ثم حافظ القراء أبو الخير بن الجزري » (١)

وقال الإمام ابن الجزري في «النشر» أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام ، وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئاً ، مع هؤلاء السبعة ، وتوفي سنة «٢٢٤» ثم قال : وكان في أثره أبو بكر أحمد بن موسى ابن العباس بن مجاهد أول من اقتصر على قراءات هؤلاء السبعة فقط ، وتوفي سنة «٣٢٤» ثم قال : وإنما أظننا في هذا الفصل لما بلغنا عن بعض من لا علم له أن القراءات الصحيحة هي التي عن هؤلاء السبعة ، بل غلب على كثير من الجهال أن القراءات الصحيحة هي التي في الشاطبية والتيسير » (٢)

والسبب في الاختصار على السبعة مع أنه في أئمة القراء من هو أجل منهم قدرا أو مثلهم إلى عدد أكثر من السبعة ، هو أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرا جدا - فلما تقاصرت المهمم اقتصرُوا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به ، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة ، وطول العمر في ملازمة القراءة والاتفاق على الأخذ عنه فأفردوا من كل مصر إماما واحدا ، ولم يتركوا

(١) الإتيان ، صفحة ٧٣ هجرية .

(٢) نقل ابن حجر في الفتح هذا ، وأثبتته الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على « تفسير الطبري » ، صفحة ٦٥ ج ١ هامش . وابن الجزري : هو محمد بن محمد بن محمد ، أبو الخير شمس الدين الشهير بابن الجزري ، شيخ القراء في زمانه ، من أشهر كتبه : « النشر في القراءات العشر » توفي سنة ٨٣٣ هـ - والشاطبية : هي المنظومة المنسوبة إلى الإمام أبي محمد القاسم الشاطبي المتوفي سنة ٥٩٠ هـ . نظم فيها كتاب التيسير في (١١٧٣) بيتا ، وسماها « حرز الأمان في وجه التها في القراءات السبع المثاني » - وكتاب « التيسير في القراءات السبع » لأبي عمرو الداني ، من أئمة القراء ، توفي سنة ٤٤٤ هجرية .

مع ذلك نقل ما كان عليه الأئمة غير هؤلاء من القراءات ولا القراءة بها ، كقراءة يعقوب الحضرمي ، وأبي جعفر المدني ، وشيبة بن نصاح ، وغيرهم .

وقد أسهم المؤلفون في القراءات في الاختصار على عدد معين . لأنهم إذ يؤلفون مقتصرين على عدد مخصوص من أئمة القراء يكون ذلك من دواعي شهرتهم وإن كان غيرهم أجل منهم قدرا ، فيتوهم الناس بعد أن هؤلاء الذين اقتصر التأليف على قراءاتهم هم الأئمة المعترفون في القراءات . وقد صنف ابن جبر المكي كتابا في القراءات فاقصر على خمسة ، اختار من كل مصر إماما ، وإنما اقتصر على ذلك لأن المصاحف التي أرسلها عثمان كانت خمسة إلى هذه الأمصار . ويقال : إنه وجه سبعة ، هذه الخمسة ومصحفا إلى اليمن . ومصحفا إلى البحرين . لكن لما لم يسمع لهذين المصنفين خبر وأراد ابن مجاهد وغيره مراعاة عدد المصاحف استبدلوا من مصحف البحرين ومصحف اليمن قارئين كمل بهما العدد — ولذا قال العلماء : إن التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة . وإنما هو من جمع بعض المتأخرين فانتشر ، فلو أن ابن مجاهد مثلا كتب عن غير هؤلاء السبعة بالإضافة إليهم لاشتهروا . قال أبو بكر بن العربي : « ليست هذه السبعة متعينة للجواز حتى لا يجوز غيرها كقراءة أبي جعفر وشيبة والأعمش ونحوهم ، فإن هؤلاء مثلهم أو فوقهم » وكذا قال غير واحد من أئمة القراء وقال أبو حيان : « ليس في كتاب ابن مجاهد ومن تبعه من القراءات المشهورة إلا التزر اليسير ، فهذا أبو عمرو بن العلاء اشتهر عنه سبعة عشر راويا ، ثم ساق أسماءهم ، واقتصر في كتاب ابن مجاهد على اليزيدي ، واشتهر عن اليزيدي عشرة أنفس . فكيف يقتصر على السوسي ، والدوري ، وليس لهما مزية على غيرهما ، لأن الجميع مشتركون في الضبط والإتقان والاشتراك في الأخذ . قال : ولا أعرف لهذا سببا إلا ما قضى من نقص العلم » ^(١)

(١) انظر الإتقان صفحة ٨٠ ، ٨١ ج ١ .

أنواع القراءات وحكمها وضوابطها

ذكر بعض العلماء أن القراءات ! متواترة ، وآحاد ، وشاذة ، وجعلوا المتواتر السبع ، والآحاد الثلاث المتممة لعشرها ، ثم ما يكون من قراءات الصحابة ، وما بقي فهو شاذ . وقيل : العشر متواترة . وقيل : المعتمد في ذلك الضوابط سواء كانت القراءة من القراءات السبع ، أو العشر ، أو غيرها : قال أبو شامة في «المرشد الوجيز» لا ينبغي أن يغير بكل قراءة تعزى إلى أحد السبعة ويطلق عليها لفظ الصحة وأنها أنزلت هكذا إلا إذا دخلت في ذلك الضابط ، وحينئذ لا ينفرد بنقلها مصنف عن غيره ، ولا يختص ذلك بنقلها عنهم ، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها عن الصحة — فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب إليه ، فإن القراءة المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم» (١)

والقياس عندهم في ضوابط القراءة الصحيحة ما يأتي : —

(١) انظر الإتيان صفحة ٧٥ ج ١ .

١ - موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه ، سواء كان أفصح أم فصيحاً ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها بالإسناد لا بالرأي .

٢ - وأن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً . لأن الصحابة في كتابة المصاحف العثمانية اجتهدوا في الرسم على حسب ما عرفوا من لغات القراءة ، فكتبوا (الصراط) مثلاً في قوله تعالى : (إهدنا الصراط المستقيم ٦ - الفاتحة) «بالصاد» المبدلة بالسين - وعدلوا عن «السين» التي هي الأصل ، لتكون قراءة «السين» (الصراط) وإن خالفت الرسم من وجه ، فقد أتت على الأصل اللغوي المعروف ، فيعتدلان ، وتكون قراءة الإشمام محتملة لذلك .

والمراد بالموافقة الاحتمالية ما يكون من نحو هذا ، كقراءة (مالك يوم الدين ٤ - الفاتحة) فإن لفظة (مالك) كتبت في جميع المصاحف بحذف الألف ، فتقرأ (مَلِك) وهي توافق الرسم تحقيقاً ، وتقرأ (مالك) وهي توافق احتمالاً ، وهكذا ، في غير ذلك من الأمثلة .

ومثال ما يوافق اختلاف القراءات الرسم تحقيقاً (تعلمون) بالثاء والياء ، و (يغفر لكم) بالياء والنون ، ونحو ذلك ، مما يدل تجرده عن النقط والشكل في حذفه وإثباته على فضل عظيم للصحابة رضي الله عنهم في علم الهجاء خاصة ، وفهم ثاقب في تحقيق كل علم .

ولا يشترط في القراءة الصحيحة أن تكون موافقة لجميع المصاحف ، ويكفي الموافقة لما ثبت في بعضها ، وذلك كقراءة ابن عامر (وبالزبر وبالكتاب ١٨٤ - آل عمران) بإثبات الباء فيهما ، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي .

٣ - وأن تكون القراءة مع ذلك صحيحة الإسناد ، لأن القراءة سنة متبعة يعتمد فيها على سلامة النقل وصحة الرواية ، وكثيراً ما ينكر أهل العربية قراءة من القراءات لخروجها عن القياس ، أو لضعفها في اللغة ، ولا يحفل أئمة القراء بإنكارهم شيئاً .

تلك هي ضوابط القراءة الصحيحة ، فإن اجتمعت الأركان الثلاثة : - ١ - موافقة العربية - ٢ - ورسم المصحف - ٣ - وصحة السند ، فهي القراءة الصحيحة ، ومتى اختل ركن منها أو أكثر أطلق عليها أنها ضعيفة ، أو شاذة ، أو باطلة .

ومن عجب أن يذهب بعض النحاة بعد ذلك إلى تخطئة القراءة الصحيحة التي تتوافر فيها تلك الضوابط لمجرد مخالفتها لقواعدهم النحوية التي يقيسون عليها صحة اللغة ، فإنه ينبغي أن نجعل القراءة الصحيحة - حكماً على القواعد اللغوية والنحوية . لا أن نجعل هذه القواعد حكماً على القرآن . إذ القرآن هو المصدر الأول الأصل لاقتباس قواعد اللغة ، والقرآن يعتمد على صحة النقل والرواية فيما استند إليه القراء . على أي وجه من وجوه اللغة . قال ابن الجزري معلقاً على الشرط الأول من ضوابط القراءة الصحيحة : « فقولنا - في الضابط « ولو بوجه » نريد به وجهها من وجوه النحو ، سواء أكان أفصح أم فصيحاً ، مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله ، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح ، إذ هو الأصل الأعظم ، والركن الأقوم ، وكم من قراءة أنكروها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم ، كإسكان « بارئكم » و « يأمركم » وخفض « والأرحام » ونصب « ليجزي قوماً » . والفصل بين المضافين في « قتل أولادهم شركائهم » وغير ذلك » ^(١) وقال أبو عمرو الداني : « وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل ، وإذا ثبتت الرواية لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة ، يلزم قبولها والمصير إليها » وعن زيد بن ثابت قال : « القراءة سنة متبعة » ^(٢) قال البيهقي : « أراد أن اتباع من قبلنا في الحروف سنة متبعة ، لا

(١) انظر الإتقان صفحة ٧٥ ج ١ ، وراجع كتب التفسير في هذه الآيات (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ١ - النساء) ، (ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ١٤ - الحاشية) ، (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ١٣٧ - الأنعام) .
(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه .

يجوز مخالفة المصحف الذي هو إمام ، ولا مخالفة القراءات التي هي مشهورة ، وإن كان غير ذلك سائغاً في اللغة .

واستخلص بعض العلماء أنواع القراءات فجعلها ستة أنواع : -

الأول : المتواتر : وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى متناه - وهذا هو الغالب في القراءات .

الثاني : المشهور : وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة المتواتر ، ووافق العربية والرسم ، واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ، ولا من الشذوذ - وذكر العلماء في هذا النوع أنه يقرأ به .

الثالث : الآحاد : وهو ما صح سنده ، وخالف الرسم ، أو العربية ، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور . وهذا لا يقرأ به ، ومن أمثله ما روي عن أبي بكرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ (متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان ٧٩ - الرحمن) ^(١) وما روي عن ابن عباس أنه قرأ (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ١٢٨ - التوبة) بفتح الفاء ^(٢) .

الرابع : الشاذ : وهو ما لم يصح سنده . كقراءة (مَلَك يوم الدين ٤ - الفاتحة) بصيغة الماضي . ونصب «يوم»

الخامس : الموضوع : وهو ما لا أصل له .

السادس : المدرج : وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير - كقراءة ابن عباس (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج فإذا أفضتم من عرفات ١٩٨ - البقرة) ^(٣) فقلوه «في مواسم الحج» تفسير مدرج في الآية .

(١) أخرجه الحاكم .

(٢) أخرجه الحاكم .

(٣) أخرجه البخاري .

والأنواع الأربعة الأخيرة لا يقرأ بها .

والجمهور على أن القراءات السبع متواترة . وأن غير المتواتر المشهور لا تجوز القراءة به في الصلاة ولا في غيرها : قال «النووي» في « شرح المذهب » لا تجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءة الشاذة ، لأنها ليست قرآناً ، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والقراءة الشاذة ليست متواترة ، ومن قال غيره فغالط أو جاهل ، فلو خالف وقرأ بالشاذ أنكر عليه قراءته في الصلاة وغيرها ، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة من قرأ بالشواذ ، ونقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا يجوز القراءة بالشواذ ، ولا يصلي خلف من يقرأ بها «

فوائد الاختلاف في القراءات الصحيحة

ولا اختلاف القراءات الصحيحة فوائد منها :

١ - الدلالة على صيانة كتاب الله وحفظه من التبديل والتحريف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة .

٢ - التخفيف عن الأمة وتسهيل القراءة عليها .

٣ - إعجاز القرآن في إيجازه ، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعي دون تكرار اللفظ كقراءة (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ٦ - المائة) بالنصب والخفض في (وأرجلكم) ففي قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل ، حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق) وقراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين عند وجود ما يقتضيه ، حيث يكون العطف على معمول فعل المسح (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) فنستفيد الحكمين من غير تطويل ، وهذا من معاني الإعجاز في الإيجاز بالقرآن .

٤ - بيان ما يحتمل أن يكون مجملًا في قراءة أخرى كقراءة (يطهرن) في قوله تعالى (ولا تقربوهن حتى يطهرن ٢٢٢ - البقرة) قرىء بالتشديد والتخفيف ، فقراءة التشديد مبيّنة لمعنى قراءة التخفيف ، عند الجمهور ، فالخائض لا يحل

وطؤها لزوجها بالطهر من الحيض ، أي بانقطاع الدم ، حتى تتطهر بالماء -
 وقراءة (فامضوا إلى ذكر الله) فإنها تبين أن المراد بقراءة (فاسعوا) الذهاب لا المشي
 السريع في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى
 ذكر الله ٩ - الجمعة) - وقراءة (والسارق والسارقة فاقطعوا أيماهما ٣٨ - المائدة)
 بدلا من (أيديهما) فقد بينت ما يقطع - وقراءة (وله أخ أو أخت من أم فلكل
 واحد منهما السدس ١٢ - النساء) فقد بينت أن المراد الإخوة لأم ، ولذا قال
 العلماء : « باختلاف القراءات يظهر الاختلاف في الأحكام »

قال أبو عبيدة في « فضائل القرآن » المقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة
 المشهورة وتبيين معانيها ، كقراءة عائشة وحفصة . (والصلاة الوسطى صلاة
 العصر ٢٣٨ - البقرة) قراءة ابن مسعود (فاقطعوا أيماهما ٣٨ - المائدة) وقراءة
 جابر (فإن الله من بعد أكرههن لمن غفور رحيم ٣٣ - النور) قال : فهذه
 الحروف وما شاكلها قد صارت مفسرة للقرآن ، وقد كان يروى مثل هذا عن
 التابعين في التفسير فيستحسن ، فكيف إذا روي عن كبار الصحابة ، ثم صار في
 نفس القراءة ، فهو أكثر من التفسير وأقوى ، فأدنى ما يستنبط من هذه الحروف
 معرفة صحة التأويل « (١)

والقراء السبعة المشهورون الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد وخصهم بالذكر
 لما اشتهروا به عنده من الضبط والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة واتفاق الآراء
 على الأخذ عنهم هم :

١ - أبو عمرو بن العلاء شيخ الرواة ، وهو زياد بن العلاء بن عمار المازني
 البصري ، وقيل اسمه يحيى ، وقيل اسمه كنيته ، وتوفي بالكوفة سنة أربع
 وخمسين ومائة - ١٥٤ هـ - وراويه !

الدوري ، والسوسي : فأما الدوري : فهو أبو عمر حفص بن عمر بن عبد

(١) انظر الإتيان صفحة ٨٢ ج ١ .

العزیز الدورى النحوى ، والدور : موضع ببغداد ، توفى سنة ست وأربعين ومائتين - ٢٤٦ هـ -

وأما السوسى : فهو أبو شعيب صالح بن زياد بن عبدالله السوسى ، توفى سنة إحدى وستين ومائتين - ٢٦١ هـ .

٢ - ابن كثير : هو عبدالله بن كثير المكي ، وهو من التابعين ، وتوفى بمكة سنة عشرين ومائة - ١٢٠ هـ - وراويه :

البرزى ، وقنبل ! أما البرزى ! فهو أحمد بن محمد بن عبدالله بن أبي بزة المؤذن المكي ، ويكنى أبا الحسن ، وتوفى بمكة سنة خمسين ومائتين - ٢٥٠ هـ -

وأما قنبل : فهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن خالد بن سعيد المكي المخزومي ، ويكنى أبا عمرو ، ويلقب قنبلا ، ويقال : هم أهل البيت بمكة ، يعرفون بالقنابلة ، وتوفى بمكة سنة إحدى وتسعين ومائتين - ٢٩١ هـ -

٣ - نافع المدني : هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي ، أصله من أصفهان ، وتوفى بالمدينة سنة تسع وستين ومائة - ١٦٩ هـ - وراويه !

قالون ، وورش : أما قالون : فهو عيسى بن منبأ « بالمد والقصر » المدني ، معلم العربية ، ويكنى أبا موسى ، وقالون لقب له أيضاً ، يروى أن نافعاً لقبه به لجودة قراءته ، لأن قالون بلسان الروم جيد . وتوفى بالمدينة سنة عشرين ومائتين - ٢٢٠ هـ - وأما وورش : فهو عثمان بن سعيد المصري ، ويكنى أبا سعيد ، وورش لقب له ، لقب به فيما يقال لشدة بياضه ، وتوفى بمصر سنة سبع وتسعين ومائة - ١٩٧ هـ -

٤ - ابن عامر الشامي : هو عبدالله بن عامر اليحصبي قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك . ويكنى أبا عمران ، وهو من التابعين ، وتوفى بدمشق سنة ثمان عشرة ومائة - ١١٨ هـ - وراويه :

هشام ، وابن ذكوان : فأما هشام فهو هشام بن عمار بن نصير القاضي

الدمشقي ، ويكنى أبا الوليد ، وتوفي بها سنة خمس وأربعين ومائتين - ٢٤٥ هـ -
وأما ابن ذكوان فهو عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي ،
ويكنى أبا عمرو ، ولد سنة ثلاث وسبعين ومائة - ١٧٣ هـ - وتوفي بدمشق سنة
اثنين وأربعين ومائتين - ٢٤٢ هـ -

٥ - عاصم الكوفي - هو عاصم بن أبي النجود ، ويقال له ابن بهدلة ،
أبا بكر ، وهو من التابعين ، وتوفي بالكوفة سنة ثمان وعشرين ومائة - ١٢٨ هـ -
ورواياه :

شعبة ، وحفص : فأما شعبة فهو أبو بكر شعبة بن عباس بن سالم الكوفي ،
وتوفي بالكوفة سنة ثلاث وتسعين ومائة - ١٩٣ هـ -

وأما حفص فهو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز الكوفي ، ويكنى أبا
عمرو ، وكان ثقة ، قال ابن معين : هو أقرأ من أبي بكر ، وتوفي سنة ثمانين
ومائة - ١٨٠ هـ -

٦ - حمزة الكوفي : هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضي التيمي ،
ويكنى أبا عمارة وتوفي بجلوان في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ست وخمسين
ومائة - ١٥٦ هـ - ورواياه :

خلف ، وخلاّد : فأما خلف فهو خلف بن هشام البزاز ، ويكنى أبا محمد ،
توفي ببغداد سنة تسع وعشرين ومائتين - ٢٢٩ هـ -

وأما خلاّد فهو خلاّد بن خالد ، ويقال ابن خليل ، الصيرفي الكوفي ،
ويكنى أبا عيسى ، وتوفي بها سنة عشرين ومائتين - ٢٢٠ هـ -

٧ - الكسائي الكوفي : هو علي بن حمزة إمام النحاة الكوفيين ، ويكنى أبا
الحسن ، وقيل له الكسائي من أجل أنه أحرم في كساء - توفي «برنبوية» قرية من
قرى الري حين توجه إلى خراسان مع الرشيد سنة تسع وثمانين ومائة - ١٨٩ هـ -
ورواياه :

أبو الحارث ، وحفص الدوري : فأما أبو الحارث فهو الليث بن خالد
البغدادي ، توفي سنة اربعين ومائتين - ٢٤٠ هـ -

وأما حفص الدوري فهو الراوي عن أبي عمرو ، وقد سبق ذكره .
أما الثلاثة تكملة العشرة فهم :

٨ - أبو جعفر المدني : هو يزيد بن القعقاع ، وتوفي بالمدينة سنة ثمان
وعشرين ومائة - ١٢٨ هـ - وقيل - ١٣٢ هـ - وراويه :

ابن وردان ، وابن جمار : فأما ابن وردان فهو أبو الحارث عيسى بن وردان
المدني ، وتوفي بالمدينة في حدود الستين ومائة - ١٦٠ هـ -

وأما ابن جمار فهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جمار المدني ، توفي بها
بعيد السبعين ومائة - ١٧٠ هـ -

٩ - يعقوب البصري : هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي ،
وتوفي بالبصرة سنة خمس ومائتين - ٢٠٥ هـ - وقيل - ١٨٥ هـ - وراويه :

رويس ، وروح : فأما رويس : فهو أبو عبدالله محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري ،
ورويس لقب له ، وتوفي بالبصرة سنة ثمان وثلاثين ومائتين - ٢٣٨ هـ .

وأما روح : فهو أبو الحسن روح بن عبد المؤمن البصري النحوي ، وتوفي
سنة أربع أو خمس وثلاثين ومائتين - ٢٣٤ هـ - أو - ٢٣٥ هـ -

١٠ - خلف : هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزار البغدادي ،
وتوفي سنة تسع وعشرين ومائتين - ٢٢٩ هـ - وقيل لم يوقف على تاريخ وفاته -
وراويه ! -

إسحاق وإدريس : أما إسحاق : فهو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن
عثمان الوراق المروزي ثم البغدادي ، توفي سنة ست وثمانين ومائتين - ٢٨٦ هـ -

وأما إدريس : فهو أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم البغدادي الحداد ،

توفي يوم الأضحى سنة اثنين وتسعين ومائتين - ٢٩٢ هـ - ويزيد بعضهم أربع قراءات على هاتيك العشر ، وهن :

١ - قراءة الحسن البصري ، مولى الأنصار ، أحد كبار التابعين المشهورين بالزهد ، توفي سنة ١١٠ هجرية .

٢ - وقراءة محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن محيصن ، توفي سنة ١٢٣ هجرية ، وكان شيخاً لأبي عمرو .

٣ - وقراءة يحيى بن المبارك اليزيدي النحوي ، من بغداد ، أخذ عن أبي عمرو وحمزة ، وكان شيخاً للدوري والسوسي . توفي سنة ٢٠٢ هجرية .

٤ - وقراءة أبي الفرج محمد بن أحمد الشنبوذي ، توفي سنة ٣٨٨ هجرية .

التجويد وآداب التلاوة

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قارئاً نديّ الصوت ، يجيد تلاوة القرآن ، وللتلاوة الجيدة أثرها لدى القارئ والمستمع في فهم معاني القرآن وإدراك أسرار إعجازها ، في خشوع وضراعة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فيه : « من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » يعني ابن مسعود ، وذلك لما أعطيه من حسن الصوت وتجويد القرآن .

والعلماء قديماً وحديثاً عناية بتلاوة القرآن حتى يكون النطق صحيحاً ، ويعرف هذا عندهم بتجويد القرآن ، وأفردته جماعة بالتصنيف نظماً ونثراً ، وعرفوا التجويد بأنه : « إعطاء الحروف حقوقهما وترتيبها ، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله ، وتلطيف النطق به على كمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف »

والتجويد وإن كان صناعة علمية لها قواعد لها التي تعتمد على إخراج الحروف من مخارجها مع مراعاة صلة كل حرف بما قبله وما بعده في كيفية الأداء فإنه لا يكتسب بالدراسة بقدر ما يكتسب بالممارسة والمران ومحاكاة من يجيد القراءة ، قال ابن الجزري : « ولا أعلم لبلوغ النهاية في التجويد مثل رياضة الألسن

والتكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن، وقاعدته ترجع إلى كيفية الوقف والإمالة والإدغام وإحكام الهمز والتريق والتضخيم ونحارج الحروف» (١)

وقد عد العلماء القراءة بغير تجويد لحنا ، واللحن : خلل يطرأ على الألفاظ ، ومنه الجلي والخفي ، فالجلي : هو الذي يخل باللفظ إخلالا ظاهرا يشترك في معرفته علماء القراءة وغيرهم ، وذلك كالخطأ الإعرابي أو الصرفي والخفي : هو الذي يخل باللفظ إخلالا يختص بمعرفة علماء القراءة وأئمة الأداء الذين تلقوه من أفواه العلماء وضبطوه من ألفاظ أهل الأداء .

والمبالغة في التجويد إلى حد الإفراط والتكلف ليست أقل من اللحن ، لأنها زيادة للحروف في غير موضعها ، كأولئك الذين يقرأون القرآن اليوم بنغم شجي يتردد فيه الصوت تردد الوقع الموسيقي والعزف على آلات الطرب ، وقد نبه العلماء على ما ابتدعه الناس من ذلك . بما يسمى : بالترعيد ، أو الترقيص ، أو التطريب ، أو التحزين ، أو التريد ، ونقل ذلك السيوطي في الإتقان ، وعبر عنه الرافعي في «إعجاز القرآن» بقوله : «ومما ابتدع في القراءة والأداء هذا التلحين الذي بقي إلى اليوم يتناقله المفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم ، ويقرأون به على ما يشبه الإيقاع ، وهو الغناء ... ومن أنواعه عندهم في أقسام النغم (الترعيد) وهو أن يرعد القارئ صوته ، قالوا : كأنه يرعد من البرد أو الألم ... و(الترقيص) وهو أن يروم السكوت على الساكن ثم ينقر مع الحركة كأنه في عدو أو هرولة ، و (التطريب) وهو أن يترنم بالقرآن ويتنغم به فيمد في غير مواضع المد ، ويزيد في المد إن أصاب موضعه ، و (التحزين) وهو أن يأتي القراءة على وجه حزين يكاد يبكي مع خشوع وخضوع ، ثم (التريد) وهو رد الجماعة على القارئ في ختام قراءته بلحن واحد على وجه من تلك الوجوه .

وإنما كانت القراءة — تحقيقا — وهو إعطاء كل حرف حقه على مقتضى ما

(١) أنظر الإتقان ، صفحة ١٠٠ ج ١ .

قرره العلماء مع ترتيل وتؤدة - أو حدرا - وهو إدراج القراءة وسرعتها مع مراعاة شروط الأداء الصحيحة - أو تدويراً - وهو التوسط بين التحقيق والحدرا »

وقراءة القرآن سنة من سنن الإسلام ، والإكثار منها مستحب حتى يكون المسلم حي القلب مستنير الفؤاد بما يقرأ من كتاب الله ، عن ابن عمر قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في آتاء الليل وآتاء النهار ، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آتاء الليل وآتاء النهار » (١)

والتلاوة مع إخلاص النية وحسن القصد عبادة يؤجر عليها المسلم ، عن ابن مسعود : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها » (٢) وجاء في حديث أبي أمامة : « أقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » (٣)

وكان السلف رضوان الله عليهم يحافظون على تلاوة القرآن ، ومنهم من كان يحتم في اليوم واللييلة ، ومنهم من كان يحتم في أكثر ، عن عبد الله بن عمرو قال : « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ القرآن في شهر ، قلت : إني أجد قوة ، قال : أقرأه في عشر ، قلت : إني أجد قوة ، قال : أقرأه في سبع ولا تزيد على ذلك » (٤)

وحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسيان القرآن ، فقال : « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده هو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها » (٥)

والأمر في كثرة القراءة وختم القرآن يختلف باختلاف الأشخاص لاختلاف

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

قدراتهم ، وتفاوت المصالح العامة التي تناط بهم . قال النووي في «الأذكار»
« المختار أن ذلك مختلف باختلاف الأشخاص ، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر
لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ ، وكذلك من
كان مشغولاً بنشر العلم أو فضل الحكومات أو غير ذلك من مهمات الدين
والمصالح العامة ، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصود له ، ولا
فوات كماله - وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليكثر ما أمكنه من غير خروج
إلى حد الملل أو الهزيمة في القراءة »

ويستحب لقارئ القرآن :

١ - أن يكون على وضوء ، لأن ذلك من أفضل الذكر . وإن كانت القراءة
للمحدث جائزة .

٢ - وأن يكون في مكان نظيف طاهر ، مراعاة لجلال القراءة .

٣ - وأن يقرأ بنخشوع وسكينة ووقار .

٤ - وأن يستاك قبل البدء في القراءة .

٥ - وأن يتعوذ في بدايتها ، لقوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من
الشیطان الرجيم ٩٨ - النحل) وأوجب الاستعاذة بعض العلماء .

٦ - وأن يحافظ على البسملة في مطلع كل سورة سوى «براءة» لأنها آية على
الرأي الراجح .

٧ - وأن تكون قراءته ترتيلاً ، يعطي الحروف حقها من المد والإدغام ،
قال تعالى (ورتل القرآن ترتيلاً ٤ - المزمل) وعن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : « كانت مداً ، ثم قرأ » بسم الله الرحمن الرحيم « يمد
الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم » ^(١) وعن ابن مسعود « أن رجلاً قال له :
إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة ، فقال : هزاً كهز الشعر . إن قوماً يقرأون القرآن

(١) زواه البخاري .

لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع » ^(١) وقال الزركشي في « البرهان » كمال الترتيل تفخيم ألفاظه ، والإبانة عن حروفه ، وأن لا يدغم حرف في حرف ، وقيل : هذا أقله ، وأكمله أن يقرأه على منازله ، فإن قرأ تهديدا لفظ به لفظ التهديد ، أو تعظيماً لفظ به على التعظيم »

٨ - وأن يتدبر ما يقرأ ، لأن هذا هو المقصود الأعظم ، والمطلوب الأهم . وذلك بأن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يقرأ ، ويتجاوب مع كل آية بمشاعره وعواطفه ، دعاء واستغفاراً ، ورحمةً ، وعذاباً . قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ٢٩ - ص) وعن حذيفة قال : « صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فافتتح البقرة فقرأها ، ثم النساء فقرأها ، ثم آل عمران فقرأها ، يقرأ مترسلاً ، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ » ^(٢) .

٩ - أن يتأثر بآيات القرآن وعدا ووعيدا ، فيحزن ويبكي لآيات الوعيد فزعاً ورهبة وهولاً ، قال تعالى (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ١٠٩ - الإسراء) وفي حديث ابن مسعود : « قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقرأ علي القرآن . قلت : يا رسول الله ؛ أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا - ٤١ - النساء) قال : حسبك الآن فإذا عيناه تذرفان » ^(٣) قال في شرح المذهب ! وطريقه في تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ، ثم يفكر في تقصيره فيها فإن لم يحضره عند ذلك حزن وبكاء فليبك على فقد ذلك فإنه من المصائب .

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجه البخاري وغيره .

١٠ - وأن يحسن صوته بالقراءة ، فإن القرآن زينة للصوت ، والصوت الحسن أوقع في النفس ، وفي الحديث « زينوا القرآن بأصواتكم » (١) .

١١ - وأن يجهر بالقراءة حيث يكون الجهر أفضل . لما فيه من إيقاظ القلب ، وتجديد النشاط ، وانصراف السمع إلى القراءة ، وتعدي نفعها إلى السامعين ، واستجماع المشاعر للتفكير والنظر والتدبر . أما إذا خشي بذلك الرياء ، أو كان فيه أذى للناس كما يذأ المصلين فإن الإسرار يكون أفضل ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما أذن الله لشيء ما أذن لني حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » (٢) .

(١) رواه ابن حبان وغيره .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

القواعد التي يحتاج إليها المفسر

لا بد في تناول أي علم من العلوم من معرفة أسسه العامة ومميزاته الخاصة حتى يكون الطالب له على بصيرة ، وبقدر ما يتمكن الإنسان من آلة العلم بقدر ما يحرز من نصر فيه ، حيث يلج فصوله من أبوابها وقد أعطي مفاتيحها ، وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ٢ يوسف) فإن القواعد التي يحتاج إليها المفسر في فهم القرآن تركز على قواعد العربية ، وفهم أسسها ، وتذوق أسلوبها ، وإدراك أسرارها ، ولذلك كله فصول متناثرة ، ومباحث مستفيضة في فروع العربية وعلومها ، إلا أننا نستطيع أن نجمع موجزا لأهم ما يجب معرفته في الأمور الآتية : -

١ - الضمائر

للضمائر قواعدها اللغوية التي استنبطها علماء اللغة ، من القرآن الكريم ، ومن مصادر العربية الأصيلة ، ومن الحديث النبوي ، ومن كلام العرب الذين يستشهد بكلامهم نظما ونثرا ، وقد ألف ابن الأنباري ^(١) في بيان الضمائر الواقعة في القرآن مجلدين ^(٢)

(١) هو أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، كان له عناية بالغة وعلوم القرآن ، توفي سنة ٨٣٢٨ .

(٢) انظر الإتيان صفحة ١٨٦ ج ١

وأصل وضع الضمير للاختصار ، فهو يغني عن ذكر ألفاظ كثيرة ، ويحل محلها مع سلامة المعنى وعدم التكرار ، فقد قام في قوله تعالى (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) مقام عشرين كلمة لو أتى بها مظهرة ، هي المذكورة في صدر الآية (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والحاشعين والحاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ٣٥ - الأحزاب)

والأصل تقديم مفسر لضمير الغائب .. ويعمل النحاة هذا الأصل بأن ضمير المتكلم والمخاطب يفسرهما المشاهدة ، وضمير الغائب عارٍ عن هذا الوجه من التفسير ، فكان الأصل تقديم معاده ليعلم المراد بالضمير قبل ذكره . ولذلك قالوا يمتنع عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة ، واستثنوا من هذه القاعدة مسائل يرجع فيها الضمير إلى ما استغنى عن ذكره بما يدل عليه من قرآن في نفس اللفظ ، أو أحوال أخرى تحف بمقام الخطاب^(١) ، قال ابن مالك في «التسهيل» : «الأصل تقديم مفسر ضمير الغائب ، ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل ، وهو إما مصرح به بلفظه ، أو مستغنى عنه بحضور مدلوله حساً أو علماً ، أو بذكر ما هو له جزء أو كل أو نظير أو مصاحب بوجه ما »

وعلى هذا فالمرجع الذي يعود إليه ضمير الغيبة ، يكون ملفوظاً به سابقاً عليه مطابقاً له - وهذا هو الكثير الغالب - كقوله تعالى : (ونادى نوح ابنه ٤٢ - هود) أو يكون ما سبق متضمناً له ، كقوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى

(١) ألقى الدكتور طه حسين في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة اكسفورد سنة ١٣٤٧ هجرية محاضرة عنوانها « ضمير الغائب واستعماله اسم إشارة في القرآن » نشرت بمجلة الرابطة الشرقية يطابق هذا المذكور في التذكير والتأنيث وفي الافراد والتثنية والجمع وأن ما ملخصها ، ذكر فيها أن ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور يتقدمه لفظاً ورتبة ، وإن ورد على خلاف ذلك تأولوه بتكليف ، وأوضح هذا بأمثلة من القرآن ، وقد رد عليه الأستاذ محمد الخضر حسين أنظر : بلاغة القرآن ، صفحة ٦٤ وما بعدها .

٨ - المائدة) فإن ضمير (هو) يعود على العدل الذي يتضمنه لفظ (اعدلوا) أي أن العدل أقرب للتقوى - أو دالا عليه بالتزام كقوله (فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع المعروف وأداء إليه بإحسان ١٧٨ - البقرة) فالضمير في (إليه) يعود على العافي الذي يستلزمه (عفى)

وقد يكون المرجع متأخرا لفظاً لا رتبة كقوله (فأوجس في نفسه خيفة موسى ٦٧ طه) أو لفظاً ورتبة كما في باب ضمير الشأن والقصة ونعم وبش كقوله (قل هو الله أحد ١ - الإخلاص) وقوله (فإذا هي شاخصة ٩٧ - الأنبياء) وقوله (بش للظالمين بدلا ٥٠ - الكهف) وقوله (ساء مثلاً القوم ١٧٧ - الأعراف) - أو متأخراً دالا عليه كقوله (فلولا إذا بلغت الحلقوم ٨٣ - الواقعة) فضمير الرفع مضمير يدل عليه (الحلقوم)، والتقدير : فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم - أو مفهوماً من السياق كقوله (كل من عليها فان ٢٦ - الرحمن) أي على الأرض . وقوله (إنا أنزلناه في ليلة القدر ١ - القدر) أي القرآن . وقوله (عبس وتولى ١ - عبس) أي النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله (أم يقولون افتراه ١٣ - هود) فالواو في (يقولون) للمشركين ، وفاعل افترى للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومفعوله للقرآن .

وربما عاد الضمير على اللفظ دون المعنى كقوله (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ١١ - فاطر) فالضمير في (عمره) المراد به عمر معمر آخر ، قال الفراء : يريد آخر غير الأول ، فكأن عنه بالضمير كأنه الأول ، لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول ، كأنه قال : ولا ينقص من عمر معمر ، فالكتابة في عمره ترجع إلى آخر غير الأول ، ومثله قولك : عندي درهم ونصفه ، أي نصف آخر ^(١) .

وربما عاد الضمير على المعنى فقط كقوله (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن

(١) راجع كتب التفسير في ذلك .

لها فإن كانتا اثنتين (١٧٦ - النساء) فالضمير في (كانتا) لم يتقدم لفظ تنبيه يعود عليه ، لأن الكلالة تقع على الواحد والاثنين والجمع ، فثنى الضمير الراجع إليها حملاً على المعنى ، وقوله (وأتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً ٤ - النساء) فالضمير في (منه) يعود على معنى الصدقات ، لأنه في معنى الصداق ، أو ما أصدق ، كأنه قيل : وأتوا النساء صدقاتهن أو ما أصدقتموهن .

وقد يؤتى بالضمير أولاً ثم يخبر عنه بما يفسره ، كقوله : (إن هي إلا حياتنا الدنيا ٢٩ - الأنعام) .

وقد يثنى الضمير ويعود على أحد المذكورين كقوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ٢٢ - الرحمن) وإنما يخرج من أحدهما ، وهو الملح دون العذب ، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منها . وبهذا قال الزجاج وغيره .

وقد يعود على ملابس ما هو له كقوله (لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ٤٦ - التازعات) أي ضحى يومها لا ضحى العشية ، لأن العشية لا ضحى لها .

وقد يراعى في الضمير اللفظ أولاً ، ثم يراعى المعنى ثانياً ، كقوله (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ٨ - البقرة) أفرد الضمير في (يقول) باعتبار لفظ (من) ثم جمع في (وما هم) باعتباره معناه .

٢ - التعريف والتنكير

للتنكير مقامات : منها : إرادة الوحدة كقوله (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ٢٩ - القصص) أي رجل واحد ، أو إرادة النوع كقوله (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ٩٦ - البقرة) أي نوع من الحياة ، وهو طلب الزيادة في المستقبل ، لأن الحرص لا يكون على الماضي ولا على الحاضر - أو هما معا كقوله (والله خلق كل دابة من ماء ٤٥ - النور) أي كل نوع من أنواع الدواب من أنواع الماء ، وكل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف - أو التعظيم كقوله (فأذنوا بحرب من الله ٢٧٩ - البقرة) أي حرب عظيمة - أو التكثير كقوله

(أئن لنا لأجراً - ٤٢ - الشعراء) أي أجراً وافرأ ، أو هما معا كقوله (وإن يكذبون فقد كذبت رسل من قبلك ٤ - فاطر) أي رسل عظام ذوو عدد كثير ، - أو التحضير كقوله (من أي شيء خلقه ؟ ١٨ - عبس) أي من شيء هنا حقير مهين ، أو التقليل كقوله (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ٧٢ - براءة) أي رضوان قليل منه أكبر من الجنات لأنه رأس كل سعادة .

وأما التعريف فله مقامات تختلف باختلاف كل نوع من أنواع التعريف .

ويكون بالاضمار لأن المقام مقام المتكلم ، أو الخطاب ، أو الغيبة وبالعلمية لإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداء بإسم يخصه - أو لتعظيمه كقوله (محمد رسول الله ٢٩ - الفتح) ، أو إهانته كقوله (تبت يدا أبي لهب وتب ١ - المسد) ، وبالإشارة لبيان حاله في القرب كقوله (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ١١ - لقمان) أو لبيان حاله في البعد كقوله (وأولئك هم المفلحون ٥ - البقرة) أو لقصد تحقيره بالقرب كقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ٦٤ - العنكبوت) ، أو لقصد تعظيمه بالبعد كقوله (ذلك الكتاب لا ريب فيه ٢ - البقرة) أو التنبيه على أن المشار اليه المعقب بأوصاف جدير بما يرد بعده من أجلها كقوله (هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ٢ - ٥ البقرة) . وبالموصول لكراهة ذكره باسمه سراً عليه ، أو غير ذلك كقوله (والذي قال لوالديه أف لكما ١٧ - الاحقاف) وقوله (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ٢٣ - يوسف) أو لارادة العموم كقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ٦٩ - العنكبوت) ، أو الاختصار كقوله (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ٦٩ - الأحزاب) إذ لو عدد أسماء القائلين لطال الكلام - وبالألف واللام للإشارة إلى معهود ذكرى ، كقوله (الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري

٣٥ - النور) أو معهود ذهني كقوله (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ١٨ - الفتح) أو معهود حضوري كقوله (اليوم أكملت لكم دينكم ٣ - المائدة) أو لاستغراق الأفراد كقوله (ان الانسان لفي خسر ٢ - العصر) بدليل الاستثناء - أو لاستغراق خصائص الأفراد كقوله (ذلك الكتاب ٢ - البقرة) أي الكتاب الكامل في الهداية الجامع لجميع صفات الكتب المنزلة بخصائصها ، أو لتعريف الماهية والحقيقة والجنس ، كقوله (وجعلنا من الماء كل شيء حي ٣٠ - الأنبياء) .

وإذا ذكر الاسم مرتين فله أربعة أحوال : لأنه إما أن يكونا معرفتين ، أو نكرتين ، أو الأول نكرة والثاني معرفة ، أو بالعكس .

١ - فإن كانا معرفتين فالثاني هو الأول غالباً كقوله (إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ٦ و ٧ الفاتحة) .

٢ - وإن كانا نكرتين فالثاني غير الأول غالباً كقوله (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ٥٤ - الروم) فإن المراد بالضعف الأول النطفة ، وبالثاني الطفولية ، وبالثالث الشيخوخة ، وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى (فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ٥ و ٦ - الانشراح) ولذلك روي عن ابن عباس : لن يغلب عسر يسرين ، لأن العسر الثاني أعاده بأل ، فكان عين الأول ، ولما كان اليسر الثاني غير الاول لم يعده بأل .

٣ - وإن كان الأول نكرة ، والثاني معرفة ، فالثاني هو الأول حملاً على العهد . كقوله (كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ، فعصى فرعون الرسول ٥ و ٦ - المزمل) .

٤ - وإن كان الاول معرفة ، والثاني نكرة ، توقف المراد على القرائن ، فتارة تقوم قرينة على التغاير . كقوله (ويوم تقوم الساعة ، يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ٥٥ - الروم) ، وتارة تقوم قرينة على الاتحاد ، كقوله (ولقد ضربنا

للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربياً ٢٧ ، ٢٨ الزمر) .

٣ - الأفراد والجمع

بعض ألفاظ القرآن يكون إفراده لمعنى خاص ، وجمعه لإشارة معينة ، أو يؤثر جمعه على إفراده أو العكس .

فمن ذلك أننا نرى بعض الألفاظ لم يأت في القرآن إلا مجموعاً ، وعند الاحتياج إلى صيغة المفرد ، يستعمل مرادفه كلفظة (اللب) فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله (إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ٢١ - الزمر) ، ولم يجيء في القرآن مفردة ، بل جاء مكانه (القلب) كقوله (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ٣٧ - ق) . ولفظة (الكوب) لم تأت مفردة وقد أتى الجمع (وأكواب موضوعة ١٤ - الغاشية) .

وعكس هذا النوع ألفاظ لم تأت إلا مفردة في كل موضع من مواضع القرآن . ولما أريد جمعها جمعت في صورة من الروعة ليس لها مثال ، كقوله تعالى (الله خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ١٢ - الطلاق) ولم يقل سبحانه وسبع أرضين لما في ذلك من الخشونة واختلال النظم .

ومن ذلك لفظة (السماء) ذكرت تارة بصيغة الجمع وتارة بصيغة الأفراد ، لنكت مناسبة ، فحيث أريد العدد ، أتى بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة ، كقوله (سبح لله ما في السموات وما في الأرض ١ - الحشر) وحيث أريد الجهة أتى بصيغة الأفراد كقوله (أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ١٦ - الملك) .

ومن ذلك (الريح) ذكرت مجموعة ومفردة ، فتذكر مجموعة في سياق الرحمة وتفرد في سياق العذاب ، وذكر في حكمة ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمنافع ، ويقابل بعضها الآخر أحياناً . لينشأ ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات .

فكانت في الرحمة رياحاً . وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد ، ولا معارض لها ولا دافع ، وقد أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أبي كعب قال : كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة ، وكل شيء من الريح فهو عذاب . ولهذا ورد في الحديث « اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً » وما أخرج عن ذلك فهو لنكتة أخرى . (١)

ومن ذلك إفراد (النور) وجمع (الظلمات) وإفراد (سبيل الحق) وجمع (سبل الباطل) لأن طريق الحق واحدة ، وطرق الباطل متشعبة متعددة . ولهذا وحد (ولي المؤمنين) وجمع (أولياء الكافرين) لتعددتهم كما في قوله تعالى (والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ٢٥٧ - البقرة) وقوله (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ١٥٣ - الأنعام) .

ومن ذلك (المشرق والمغرب) بالإفراد والتثنية والجمع . فالإفراد باعتبار الجهة والإشارة إلى ناحيتي الشرق والغرب كقوله (رب المشرق والمغرب ٩ - المزمل) . والتثنية باعتبار مطلعي ومغربي الشتاء والصيف كقوله (رب المشرقين ورب المغربين ١٧ - الرحمن) . والجمع باعتبار مطلع كل يوم ومغربه ، أو مطلع كل فصل ومغربه . كقوله (فلا أقسم برب المشارق والمغارب - ٤٠ المعارج) . (٢)

٤ - مقابلة الجمع بالجمع أو بالفرد

مقابلة الجمع بالجمع تارة تقتضي مقابلة كل فرد من هذا ، بكل فرد من هذا ، كقوله (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا

- (١) فقد أفردت في قوله تعالى (وجرين هم بريح طيبة ٢٢ يونس) بوجهين : لفظي ، وهو المقابلة في قوله (جاء بها ربيع عاصف) ومعنوي وهو أن تمام الرحمة هنا ، إنما يحصل بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد وإلا تعرضت للهلاك .
- (٢) ألف أبو الحسين الأفش - كتاباً في الإفراد والجمع ذكر فيه جمع ما وقع في القرآن مفرداً ، ومفرد ما وقع جمعاً ، انظر الإتقان صفحة ١٩٣ ج ١ .

ثيابهم ٧ - نوح) أي استغشى كل منهم ثوبه . وقوله (والوالدات يرضعن أولادهن ٢٣٣ - البقرة) أي كل واحدة ترضع ولدها . وتارة يقتضي ثبوت الجمع لكل فرد من افراد المحكوم عليه كقوله (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ٤ - النور) أي اجلدوا كل واحد منهم ذلك العدد . وتارة يحتمل الأمرين فيحتاج إلى دليل يعين أحدهما .

أما مقابلة الجمع بالمفرد . فالغالب ألا يقتضي تعميم المفرد وقد يقتضيه كما في قوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ١٨٤ - البقرة) أي على كل واحد لكل يوم طعام مسكين .

٥ - ما يظن أنه مترادف وليس من المترادف

من ذلك (الخوف والخشية) فالخشية أعلى من الخوف . وهي أشد منه لأنها مأخوذة من قوهم : شجرة خشبة : أي يابسة . وهو فوات بالكلية . والخوف من قوهم ناقة خوفاً أي بها داء . وهو نقص وليس بفوات . كما أن الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قوياً . فهي خوف يشوبه تعظيم . والخوف من ضعف الخائف . وإن كان المخوف أمراً يسيراً . ومادة الخشية : الخاء والشين والياء ، في تصاريدها تدل على العظمة ، فالشيخ : السيد الكبير . والخيش : الغليظ من اللباس . ولذا وردت الخشية غالباً في حق الله تعالى . كقوله (إنما يخشى الله من عباده العلماء ٢٨ - فاطر) وقوله (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ٣٩ - الأحزاب) وأما قوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم ٥٠ - النحل) فقد جاء في وصف الملائكة بعد ذكر قوتهم وشدة خلقهم ، فالتعبير عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظاً شداداً فهم بين يديه تعالى ضعفاء ، ثم أردفه بالفوقية الدالة على العظمة ، فجمع بين الأمرين اللذين تتضمنهما الخشية دون إخلال بقوة بأسهم ، وهما خوفهم من ربهم مع تعظيمه سبحانه .

ومن ذلك (الشح والبخل) فالشح أشد من البخل لأنه بخل مع حرص ،
وذلك فيما يكون عادة .

ومن ذلك (السبيل والطريق) فالسبيل أغلب وقوعاً في الخير ، أما الطريق فلا
يكاد يراد به الخير إلا مقترناً بما يدل على ذلك من وصف أو إضافة كقوله
(يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ٣٠ - الأحقاف) قال الراغب في مفرداته :
السبيل : الطريق الذي فيه سهولة فهو أخص .

ومن ذلك (مد وأمد) قال الراغب : أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب كقوله
(وأمددناهم بفاكهة ٢٢ - الطور) والمد في المكروه كقوله (ونمد له من العذاب
مداً ٧٩ - مريم) .

٦ - السؤال والجواب

الأصل في الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال ، وقد يعدل في الجواب عما
يقتضيه السؤال تنبيهاً على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك ، وهو المسمى
بأسلوب الحكيم ، ويمثلون له بقوله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت
للناس والحج ١٨٩ - البقرة) فقد سألوا رسول الله ﷺ عن الهلال : لم يبدؤ
دقيقاً مثل الحيط ثم قليلاً قليلاً حتى يمتلئ ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما
بدأ ؟ فأجيبوا ببيان حكمة ذلك تنبيهاً على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما
سألوا عنه .

وقد يجيء الجواب أعم من السؤال للحاجة إليه كقوله تعالى (قل الله ينجيكم
منها ومن كل كرب ٦٤ - الأنعام) في جواب (من ينجيكم من ظلمات البر
والبحر ٦٣ - الأنعام) .

وقد يجيء أنقص لاقتضاء الحال ذلك كقوله تعالى (قل ما يكون لي أن أبدله
من تلقاه نفسي ١٥ - يونس) في جواب (ائت بقرآن غير هذا أو بدله) لأن
التبديل أسهل من الاختراع ، وقد نفى إمكانه فلا اختراع أولى .

والسؤال إذا كان لطلب معرفة تعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه وتارة بعن وهو أكثر كقوله (ويسألونك عن الروح ٨٥ - الإسراء) وإذا كان لاستدعاء مال ونحوه فإنه يتعدى بنفسه أو بمن وببنفسه أكثر كقوله (واسألوا ما أنفقتم ١٠ - الممتحنة) وقوله (واسألوا الله من فضله ٣٢ - النساء) .

٧ - الخطاب بالإسم والخطاب بالفعل

الإسم يدل على الثبوت والاستمرار . والفعل يدل على التجدد والحدوث . ولكل منهما موضعه الذي لا يصلح له الآخر ، فيأتي التعبير مثلاً في النفقة بالفعل كقوله (الذين ينفقون في السراء والضراء ١٣٤ - آل عمران) ولم يقل (المنفقون) ويأتي التعبير في الإيمان بالإسم كقوله (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ١٥ - الحجرات) لأن النفقة أمر فعلي شأنه الحدوث والتجدد ، بخلاف الإيمان فإنه له حقيقة تقوم بدوام مقتضاها ، والمراد بالتجدد في الماضي الحصول مرة بعد أخرى ، وفي المضارع أن من شأنه أن يتكرر ويقع مرة بعد أخرى ، ومضمر الفعل في ذلك كظهره ولهذا قالوا : إن سلام إبراهيم عليه السلام أبلغ من سلام الملائكة في قوله تعالى (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ٢٥ - الذاريات) فالنصب على أنه مصدر سد مسد الفعل ، وأصله نسلم عليك سلاماً ، وهذه العبارة مؤذنة بحدوث التسليم منهم ، بخلاف رده (قال سلام) فإنه معدول به إلى الرفع على الابتداء . وخبره محذوف والمعنى : عليكم سلام . للدلالة على إثبات السلام ، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به ، أخذاً بأدب الله تعالى ^(١) وهو أيضاً من إكرامه لهم .

٨ - العطف

وهو ثلاثة أقسام :

- ١ - عطف على اللفظ ، وهو الأصل .
- ٢ - وعطف على المحل ، وجعل منه الكسائي قوله تعالى (إن الذين آمنوا

(١) في قوله تعالى (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ٨٦ - النساء) .

والذين هادوا والصابئون ٦٩ - المائدة) فجعل (الصابئون) عطفاً على محل إن وإسمها ، ومحلهما الرفع بالابتداء .

٣ - وعطف على المعنى ، ومنه قوله تعالى (لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن ١٠ - المنافقون) في قراءة غير أبي عمرو يجزم (أكن) وخرجه الخليل وسيبويه على أنه عطف على التوهم ^(١) ، لأن معنى لولا أخرتني فأصدق ومعنى أخرتني أصدق واحد ، كأنه قيل : إن أخرتني اصدق وأكن ، كما خرج الفارسي عليه قراءة قبل (إنه من يقي ويصبر ٩٠ - يوسف) بسكون الراء ، لأن من الموصولة فيها معنى الشرط .

واختلف في جواز عطف الخبر على الإنشاء وعكسه ، فمنعه الأكثرون ، وأجازه جماعة مستبدلين بقوله تعالى (وبشر المؤمنين ١٣ - الصف) عطف على (تؤمنون) في الآية (يأياها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ١٠ ، ١١ - الصف) وخرجه الآخرون على أن (تؤمنون) بمعنى آمنوا ، فهو خبر بمعنى الإنشاء ، فصح عطف الإنشاء عليه . (وبشر) كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبتكم الله وينصركم . وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك . وفائدة التعبير بالخبر في موضع الأمر الإيدان بوجوب الامتثال ، أي كأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين .

واختلف أيضاً في جواز العطف على معمولي عاملين ، واستدل المجيرون بقوله تعالى (إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ٣ : ٥ - الجاثية) فقوله (واختلاف الليل والنهار ... آيات لقوم يعقلون) من العطف على معمولي عاملين

(١) هذه العبارة هي التي حكاه سيبويه عن الخليل ، وهي المنقولة في كتب التفسير : إنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني ، ولفظ « التوهم » غير لائق في تفسير القرآن الأول أن يقال : عطف على المعنى . كما هو صريح العبارة بعد

سواء نصبت أو رفعت ، فالعاملان إذا نصبت : (إن) و (في) اقيمت الواو مقامهما ، فعملت الواو الجر في (اختلاف الليل والنهار) والنصب في (آيات) وإذا رفعت فالعاملان (الابتداء) و (في) عملت الواو الرفع في (آيات) والجر في (اختلاف) ذكر هذا الزمخشري .

واختلف أيضاً في جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ، وخرج عليه المجيزون قراءة حمزة (واتقوا الله الذين تساءلون به والأرحام ١ - النساء) يجر الأرحام عطفاً على الضمير ، وجعلوا منه قوله تعالى (وصدد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ٢١٧ - البقرة) على أن (المسجد) معطوف على ضمير (به) .

الفرق بين المحكم والمتشابه

أنزل الله الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، فرسم للخلق العقيدة السليمة والمبادئ القويمة في آيات بينات واضحة المعالم ، وذلك من فضل الله على الناس حيث أحكم لهم أصول الدين لتسلم لهم عقائدهم ويتبين لهم الصراط المستقيم ، وتلك الآيات هي أم الكتاب التي لا يقع الاختلاف في فهمها سلامة لوحدة الأمة الإسلامية وصيانة لكيانها (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ٣- فصلت).

وقد تأتي هذه الأصول الدينية في أكثر من موضع بالقرآن مع اختلاف اللفظ والعبارة والأسلوب إلا أن معناها يكون واحداً ، فيشبه بعضها الآخر ويوافقه معنى دون تناقض ، أما ما عدا تلك الأصول من فروع الدين فإن في آياتها من العموم والاشتباه ما يفسح المجال أمام المجتهدين الراسخين في العلم ، حتى يردوها إلى المحكم ببناء الفروع على الأصول ، والجزئيات على الكلّيات - وإن زاغت بها قلوب أصحاب الهوى - وبهذا الإحكام في الأصول والعموم في الفروع كان الاسلام دين الإنسانية الخالد الذي يكفل لها خير الدنيا والآخرة على مر العصور والأزمان .

(١) راجع هذا الفصل فيما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية عن المحكم والمتشابه والتأويل في التتميم وغيرها من رسائله .

الاحكام العام والتشابه العام

المحكم لغة : مأخوذ من حكمت الدابة وأحكمت : بمعنى منعت ،
والحكم : هو الفصل بين الشئين ، فالحاكم يمنع الظالم ويفصل بين الحصين ،
ويميز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، ويقال : حكمت السفينة وأحكمتها :
إذا أخذت على يديه ، وحكمت الدابة وأحكمتها : إذا جعلت لها حكمة :
وهي ما أحاط بالحنك من اللجام لأنها تمنع الفرس عن الاضطراب ، ومنه
الحكمة : لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق ، وإحكام الشيء : إتقانه ، والمحكم :
المتقن .

فإحكام الكلام : إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره ، والرشد من
الغبي في أوامره : والمحكم منه : ما كان كذلك .

وقد وصف الله القرآن كله بأنه محكم على هذا المعنى فقال (الر ، كتاب
أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ١ ، ٢ - هود) وقال (الر ،
تلك آيات الكتاب الحكيم ١ ، ٢ - يونس) فالقرآن كله محكم : أي أنه كلام
متقن فصيح يميز بين الحق والباطل والصدق والكذب . وهذا هو الاحكام العام .

والتشابه لغة : مأخوذ من التشابه : وهو ان يشبه أحد الشئين الآخر ،
والشبهة : هي ألا يتميز أحد الشئين من الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو
معنى ، قال تعالى (وأتوا به متشابهاً ٢٥ - البقرة) أي يشبه بعضه بعضاً لوناً لا
طعماً وحقيقة ، وقيل متماثلاً في الكلام والجودة .

وتشابه الكلام : هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضاً ، وقد وصف الله
القرآن كله بأنه متشابه على هذا المعنى فقال (الله نزل أحسن الحديث كتاباً
متشابهاً مثاني ٢٣ - الزمر) فالقرآن كله متشابه : أي انه يشبه بعضه بعضاً في
الكمال والجودة ، ويصدق بعضه في المعنى ويمثله . وهذا هو التشابه العام .

وكل من المحكم والتشابه بمعناه المطلق المتقدم لا ينافي الآخر ، فالقرآن

كله محكم بمعنى الاتقان ، وهو متمائل يصدق بعضه بعضاً ، فإن الكلام المحكم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه ، فإذا أمر القرآن بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر ، وإنما يأمر به أو بنظيره ، وكذلك الشأن في نواهيه وأخباره . فلا تضاد فيه ولا اختلاف (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ٨٢ - النساء) .

الاحكام الخاص والتشابه الخاص

وهناك إحكام خاص وتشابه خاص ذكرهما الله في قوله (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ٧ - آل عمران) وفي معناهما وقع الاختلاف على أقوال أهمها : -

- أ - المحكم : ما عرف المراد منه - والمتشابه : ما استأثر الله بعلمه .
- ب - المحكم : ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً - والمتشابه : ما احتمل أوجهاً .
- ج - المحكم : ما استقل بنفسه ولم يحتاج إلى بيان - والمتشابه : ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره .

ويمثلون للمحكم في القرآن بناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده ، وللمتشابه : منسوخه وكيفيات أسماء الله وصفاته التي في قوله (الرحمن على العرش استوى ٥ - طه) وقوله (كل شيء هالك إلا وجهه ٨٨ - القصص) وقوله (يد الله فوق أيديهم ١٠ - الفتح) وقوله (وهو القاهر فوق عباده ١٨ - الأنعام) وقوله (وجاء ربك ٢٢ - الفجر) وقوله (وغضب الله عليهم ٦ - الفتح) وقوله (رضي الله عنهم ٨ - البينة) وقوله (فاتبعوني يحببكم الله ٣١ - آل عمران) إلى غير ذلك ، وأوائل السور المفتحة بحروف المعجم وحقائق اليوم الآخر وعلم الساعة .

الاختلاف في معرفة التشابه

وكما وقع الاختلاف في معنى كل من المحكم والمتشابه الخاصين وقع الاختلاف في إمكان معرفة المتشابه ، ومنشأ هذا الاختلاف اختلافهم في الوقف في قوله تعالى (والراسخون في العلم) هل هو مبتدأ خبره (يقولون) والواو للاستئناف ، والوقف على قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) ؟ أو هو معطوف (ويقولون) حال ، والوقف على قوله (والراسخون في العلم) .

فذهب إلى الأول (الاستئناف) طائفة منهم أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، مستدلين بمثل ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به » .

وبقراءة ابن مسعود « وإن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به » .

وبما دلت عليه الآية من ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيع وابتغاء الفتنة . وعن عائشة قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية (هو الذي أنزل عليك الكتاب — إلى قوله تعالى — أولوا الألباب) قال رسول الله ﷺ « فاذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم » (١)

وذهب إلى الرأي الثاني (العطف) طائفة على رأسهم مجاهد ، فقد روي عنه أنه قال : عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته ، أقفقه عند كل آية وأسأله عن تفسيرها . واختار هذا القول النووي ، فقال في شرح مسلم : إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته .

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل

بالرجوع إلى معنى (التأويل) يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين ، فإن لفظ التأويل ورد لثلاثة معان :

(الأول) صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح للدليل يقتزن به ، وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين .

(الثاني) التأويل بمعنى التفسير ، فهو الكلام الذي يفسر به اللفظ حتى يفهم معناه .

(الثالث) التأويل : هو الحقيقة التي يؤول اليها الكلام ، فتأويل ما أخبر الله به عن ذاته وصفاته هو حقيقة ذاته المقدسة وما لها من حقائق الصفات ، وتأويل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر هو نفس ما يكون في اليوم الآخر . وعلى هذا المعنى جاء قول عائشة : كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » يتأول القرآن . تعني قوله تعالى (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ٣ - النصر (١)) .

فالذين يقولون بالوقف على قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) ويجعلون (والراسخون في العلم) استثناءً ، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث ، أي الحقيقة التي يؤول اليها الكلام ، فحقيقة ذات الله وكنهها وكيفية أسمائه وصفاته وحقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله .

والذين يقولون بالوقف على قوله (والراسخون في العلم) على أن الواو للعطف وليست للاستثناء ، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثاني أي التفسير ، ومجاهد إمام المفسرين ، قال الثوري فيه : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، فإذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به أنه يعرف تفسيره .

(١) رواه البخاري ومسلم .

وبهذا يتضح أنه لا منافاة بين المذهبين في النهاية ، وإنما الأمر يرجع إلى الاختلاف في معنى التأويل .

ففي القرآن ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا ، ولكن الحقيقة ليست كالحقيقة ، فأسماء الله وصفاته وإن كان بينها وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه في اللفظ والمعنى الكلي إلا أن حقيقة الخالق وصفاته ليست كحقيقة المخلوق وصفاته ، والعلماء المحققون يفهمون معانيها ويميزون الفرق بينها ، وأما نفس الحقيقة فهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله . ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قالوا : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » وكذلك قال ربيعة بن عبد الرحمن شيخ مالك قبله : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومن الله البيان ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا الإيمان » فبين أن الاستواء معلوم ، وأن كيفية ذلك مجهولة .

وكذلك الشأن بالنسبة إلى أخبار الله عن اليوم الآخر ، ففيها ألفاظ تشبه معانيها ما هو معروف لدينا إلا أن الحقيقة غير الحقيقة . ففي الآخرة ميزان ، وجنة نار . وفي الجنة (أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ١٥ - القتال) . (فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ١٣ : ١٦ - الغاشية) . . وذلك نعلمه ونؤمن به ، ونذكر أن الغائب أعظم من الشاهد ، وما في الآخرة يمتاز عما في الدنيا ، ولكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومة لنا ، وهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله .

التأويل المذموم

والتأويل المذموم بمعنى : صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقتن به ، إنما لجأ إليه كثير من المتأخرين مبالغة منهم في تنزيه الله تعالى عن مماثلته للمخلوقين كما يزعمون . وهذا زعم باطل أوقعهم في مثل ما

هربوا منه أو أشد ، فهم حين يؤولون اليد بالقدرة مثلاً إنما قصدوا الفرار من أن
يشتبوا للخالق يداً لأن للمخلوقين يداً فاشتبه عليهم لفظ اليد فأولوها بالقدرة . وذلك
تناقض منهم . لأنهم يلزمهم في المعنى الذي أثبتوه نظير ما زعموا أنه يلزم في
المعنى الذي نفوه ، لأن العباد لهم قدرة أيضاً . فإن كان ما أثبتوه من القدرة حقاً
ممكناً كان إثبات اليد لله حقاً ممكناً أيضاً ، وإن كان إثبات اليد باطلاً ممتنعاً
لما يلزمه من التشبيه في زعمهم كان إثبات القدرة باطلاً ممتنعاً كذلك . فلا يجوز
أن يقال : إن هذا اللفظ مؤول بمعنى أنه مصروف عن الاحتمال الراجح إلى
الاحتمال المرجوح .

وما جاء عن أئمة السلف وغيرهم من ذم للمتاولين إنما هو لمثل هؤلاء الذين
تأولوا ما يشتبه عليهم معناه على غير تأويله وإن كان لا يشتبه على غيرهم .

العام والخاص

للنظم التشريعية والأحكام الدينية مقاصد تهدف إليها ، وقد يجتمع للحكم التشريعي خصائص تجعله عاماً يشمل كل الأفراد ، أو ينطبق على جميع الحالات ، وقد يكون لذلك القصد غاية خاصة فالتعبير عنه يتناول بعمومه الحكم ثم يأتي ما يبين حده أو يحصر نطاقه ، والبيان العربي في تلوين الخطاب وبيان المقاصد والغايات مظهر من مظاهر قوة اللغة واتساع مادتها . فإذا ورد هذا في كلام الله المعجز كان وقعه في النفس عنوان إعجاز تشريعي مع الإعجاز اللغوي .

تعريف العام وصيغ العموم

العام : هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر ، وله صيغ تدل عليه :

منها « كل » كقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت ١٨٥ - آل عمران) وقوله (الله خالق كل شيء ١٠٢ - الأنعام) ومثلها جميع .

ومنها : المعروف بآل التي ليست للعهد كقوله (والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ١ ، ٢ - العصر) أي كل لإنسان ، بدليل قوله بعد (إلا الذين آمنوا

٣ - العصر (وقوله (وأحل الله البيع ٢٧٥ - البقرة) وقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ٣٨ - المائدة) .

ومنها : النكرة في سياق النفي والنهي كقوله (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ١٩٧ - البقرة) وقوله (فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ٢٣ - الإسراء) أو في سياق الشرط كقوله (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ٦ - براءة) .

ومنها : الذي والتي وفروعهما كقوله (والذي قال لو ألدته أف لكما ١٧ - الأحقاف) . أي كل من قال ذلك بدليل قوله بعد بصيغة الجمع (أولئك الذين حتى عليهم القول ١٨ - الأحقاف) وقوله (واللذان يأتياها منكم فأذوهما ١٦ - النساء) وقوله (واللاتي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ٤ - الطلاق) . وأسماء الشرط كقوله تعالى (فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ١٥٨ - البقرة) للعموم في العاقل ، وقوله (وما تفعلوا من خير يعلمه الله ١٩٧ - البقرة) للعموم في غير العاقل ، وقوله (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ١٥٠ - البقرة) للعموم في المكان ، وقوله (أيأما تدعوا فله الأسماء لحسنى ١١٠ - الإسراء) .

ومنها : اسم الجنس المضاف إلى معرفة كقوله (فليحذر الذين يخالفون عن أمره ٦٣ - النور) أي كل أمر لله ، وقوله (يوصيكم الله في أولادكم ١١ - النساء) .

أقسام العام

والعام على ثلاثة أقسام :

الأول : الباقي على عمومته ، وقد قال القاضي جلال الدين البلقيني (١) :

(١) هو عبد الرحمن بن رسلان ، أبو الفضل جلال الدين البلقيني ، كان عالماً بارعاً في الفقه والتفسير وأصول العربية ، وله تعليق على البخاري سماه : « الإفهام لما في صحيح البخاري من الإيهام » تولى القضاء في مصر ، وتوفي سنة ٥٨٢٤ وانظر الإتيقان ، صفحة ١٦ ج ٢ .

« ومثاله عزيز ، إذما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص ، وذكر الزركشي في « البرهان » أنه كثير في القرآن . وأورد منه قوله تعالى (والله بكل شيء عليم ١٧٦ - النساء) وقوله (ولا يظلم ربك أحداً ٤٩ - الكهف) وقوله (حرمت عليكم أمهاتكم ٢٣ - النساء) فإنه لا خصوص فيها .

الثاني : العام المراد به الخصوص - كقوله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ١٧٣ - آل عمران) فالمراد بالناس الأولى نعيم ابن مسعود ، والمراد بالناس الثانية أبو سفيان لا العموم في كل منهما ، يدل على هذا قوله تعالى بعد (إنما ذلكم الشيطان) فوَقَّعت الإشارة بقوله (ذلكم) إلى واحد بعينه ، ولو كان المعنى به جمعاً لقال (إنما أولئك الشيطان) وكقوله تعالى (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ٣٩ - آل عمران) والمنادي جبرائيل كما في قراءة ابن مسعود وقوله (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ١٩٩ - البقرة) والمراد بالناس إبراهيم ، أو سائر العرب غير قريش .

الثالث : العام المخصوص - وأمثله في القرآن كثيرة جداً وستأتي .

ومنه قوله تعالى (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ١٨٧ - البقرة) وقوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ٩٧ - آل عمران) .

الفرق بين العام المراد به الخصوصي والعام المخصوص

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص من وجوه ، أهمها : -

١ - أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد من أول الأمر ، لا من جهة تناول اللفظ ، ولا من جهة الحكم ، بل هو ذو أفراد استعمل في فرد واحد منها أو أكثر .

أما العام المخصوص فأريد عمومه وشموله لجميع الأفراد من جهة تناول

اللفظ لا من جهة الحكم ، فالناس في قوله (الذين قال لهم الناس) وإن كان عاماً إلا أنه لم يرد به لفظاً وحكماً سوى فرد واحد ، أما لفظ الناس في قوله (والله على الناس حج البيت) فهو عام أريد به ما يتناوله اللفظ من الأفراد . وإن كان حكم وجوب الحج لا يتناول إلا المستطيع منهم خاصة .

٢ - والأول مجاز قطعاً ، لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلي واستعماله في بعض أفراد ، بخلاف الثاني فالأصح فيه أنه حقيقة ، وعليه أكثر الشافعية ، وكثير من الحنفية ، وجميع الحنابلة ، ونقله إمام الحرمين ^(١) عن جميع الفقهاء ، وقال الشيخ أبو حامد الغزالي : إنه مذهب الشافعي وأصحابه ، وصححه السبكي ، لأن تناول اللفظ للبعض الباقي بعد التخصيص كتناوله له بلا تخصيص ، وذلك التناول حقيقي اتفاقاً ، فليكن هذا التناول حقيقياً أيضاً .

٣ - وقرينة الأول عقلية غالباً ولا تنفك عنه ، وقرينة الثاني لفظية وقد تنفك عنه في المخصص المنفصل .

تعريف الخاص وبيان المخصص

والخاص : يقابل العام ، فهو الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر . والتخصيص : هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام ، والمخصص : إما متصل : وهو الذي لم يفصل فيه بين العام والمخصص له بفصل ، وإما منفصل : وهو بخلافه ، والمتصل خمسة : أحدها : الاستثناء ، كقوله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا ٤ ، ٥ - النور) وقوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم

(١) إمام الحرمين ، هو عبد الملك بن أبي عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني الشافعي العراقي ، أبو المالبي ، كان شيخ الإمام الغزالي ، ومن أعلم أصحاب الشافعي ، توفي سنة ٤٧٨ هجرية .

في الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ٣٣ - ٣٤ -
المائدة) .

الثاني : الصفة : كقوله تعالى (وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ٢٣ - النساء) فقوله (اللاتي دخلتم بهن) صفة لنسائكم ، والمعنى أن الربيبية من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها .

الثالث : الشرط : كقوله (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ١٨٠ - البقرة) فقوله (إن ترك خيراً) أي مالا ، شرط في الوصية ، وقوله (والذين يبتغون الكتاب مما ملكتم أيما نكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ٣٣ - النور) أي قدرة على الأداء ، أو أمانة وكسبا .

الرابع : الغاية : كقوله (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله ١٩٦ - البقرة) وقوله (ولا تقربوهن حتى يطهرن ٢٢٢ - البقرة) .

الخامس : بدل البعض من الكل : كقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ٩٧ - آل عمران) فقوله (من استطاع) بدل من الناس ، فيكون وجوب الحج خاصاً بالمستطيع .

والمخصص المنفصل : ما كان في موضع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس . فما خص بالقرآن كقوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ٢٢٨ - البقرة) فهو عام في كل مطلقة حاملاً كانت أو غير حامل ، مدخولاً بها أو غير مدخول بها ، خص بقوله (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ٤ - الطلاق) وبقوله (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة ٤٩ - الأحزاب) .

وما خص بالحديث كقوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا ٢٧٥ - البقرة) خص من البيع البيوع الفاسدة التي ذكرت في الحديث ، كما في البخاري

عن ابن عمر رضي الله عنه قال « نهى رسول الله ﷺ عن عصب الفحل » وفي الصحيحين عن ابن عمر : « أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع حبل الحبلية » وكان بيعاً تبتاعه الجاهلية ، كان الرجل يبتاع الحزور إلى أن تُنتج الناقة ثم تنتج التي في بطنها » - واللفظ للبخاري ، إلى غير ذلك من الأحاديث .

ورخص من الربا العرايا الثابتة بالسنة فإنها مباحة ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ رخص في بيع العرايا بخرصها فيما دون خمسة أوسق أو في خمسة أوسق » .^(١)

وما خص بالإجماع آية المواريث (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ١١ - النساء) خص منها بالإجماع الرقيق لأن الرق مانع من الإرث .

وما خص بالقياس آية الزنا (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ٢ - النور) خص منها العبد بالقياس على الأمة التي نص على تخصيصها عموم الآية في قوله تعالى (فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ٢٥ - النساء) .

تخصيص السنة بالقرآن

وقد يخص القرآن السنة ، ويمثلون لذلك بما روي عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ « ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميت »^(٢) فهذا الحديث خص بقوله تعالى (ومن اصوافها وأوبارها واشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ٨٠ - النحل) .

ما يشمله الخطاب

اختلف في الخطاب الخاص بالرسول ﷺ كقوله تعالى « يا أيها النبي اتق الله ولا

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي وحسنه واللفظ له .

تطع الكافرين والمنافقين ١ - الأحزاب) وقوله (يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ٤١ - المائدة) هل يشمل الأمة ام لا يشملها ؟

أ - فذهب قوم إلى أنه يشملها باعتباره قدوة لها .

ب - وذهب آخرون إلى انه لا يشملها لأن الصيغة تدل على اختصاصه بها .

واختلفوا ايضاً في الخطاب من الله تعالى بيأياها الناس كقوله (يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ١ - النساء) هل يشمل الرسول أم لا ؟ والصحيح في ذلك انه يشمل لعمومه وإن كان الخطاب قد ورد على لسانه ليلغ غيره .

وقد فصل بعضهم فقال : إن اقترن الخطاب بقل لم يشمل لظاهره البلاغ كقوله (قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ١٥٨ - الأعراف) وإلا شمله .

وما ورد من الخطاب مضافاً إلى الناس أو المؤمنين كقوله (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ١٣ - الحجرات) وقوله (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ٩٠ - المائدة) .

فالمختار في الأول انه يشمل الكافر والعبد والأثني .

والمختار في الثاني انه يشمل الأخيرين فقط لمراعاة التكليف بالنسبة إلى الجميع ، وخروج العبد عن بعض الاحكام كوجوب الحج والجهاد إنما هو لأمر عارض كفقره واشتغاله بخدمة سيده .

ومتى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير . واكثر خطاب الله تعالى في القرآن بلفظ التذكير ، والنساء يدخلن في جملته . وقد يأتي ذكرهن بلفظ مفرد تبيناً وإيضاحاً . وهذا لا يمنع دخولهن في اللفظ العام الصالح لهن ، كما جاء في قوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى ١٢٤ - النساء) .

الناسخ والمنسوخ

تنزل التشريعات السماوية من الله تعالى على رسله لإصلاح الناس في العقيدة والعبادة والمعاملة . وحيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية والربوبية فقد اتفقت دعوة الرسل جميعاً إليها (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ٢٥ - الأنبياء) - أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق في الأسس العامة التي تهدف إلى تهذيب النفس والمحافظة على سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون والإخاء ، إلا أن مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها ، وما يلائم قوماً في عصر قد لا يلائمهم في آخر ، ومسلك الدعوة في طور النشأة والتأسيس يختلف عن شرعتها بعد التكوين والبناء ، فحكمة التشريع في هذه غيرها في تلك ، ولا شك أن المشرع سبحانه وتعالى يسع كل شيء رحمة وعلماً ، ولله الأمر والنهي (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ٢٣ - الأنبياء) فلا غرابة في أن يرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول والآخر .

(١) أفردته بالتصنيف خلائق لا يحصون : منهم أبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو داود السجستاني ، وأبو جعفر النحاس ، وابن الأنباري ، ومكي ، وابن العربي ، وآخرون ، انظر الإتيقان صفحة ٢٠ ج ٢ . ومن المعاصرين : الدكتور مصطفى زيد « النسخ في القرآن » .

تعريف النسخ وشروطه

والنسخ لغة : يطلق بمعنى الإزالة ، ومنه يقال : نسخت الشمس الظل : أي أزالته . ونسخت الريح أثر المشي - ويطلق بمعنى نقل الشيء من موضع إلى موضع ، ومنه نسخت الكتاب : إذا نقلت ما فيه . وفي القرآن (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ٢٩ - الجاثية) والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف .

والنسخ في الاصطلاح : رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي - فخرج بالحكم رفع البراءة الأصلية ، وخرج بقولنا : بخطاب شرعي : رفع الحكم بموت أو جنون أو إجماع أو قياس .

ويطلق الناسخ على الله تعالى كقوله (ما ننسخ من آية ١٠٦ - البقرة) وعلى الآية وما يعرف به النسخ ، فيقال : هذه الآية ناسخة لآية كذا ، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر .

والمنسوخ هو الحكم المرتفع ، فأية المواريث مثلاً أو ما فيها من حكم ناسخ لحكم الوصية الوالدين والأقربين كما سيأتي ، ومقتضى ما سبق أنه يشترط في النسخ :

- ١ - أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً .
- ٢ - أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطاباً شرعياً متراحياً عن الخطاب المنسوخ حكمه .
- ٣ - ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين . وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته ولا يعد هذا نسخاً . قال « مكى » ^(١) :

(١) هو مكى بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي المقرئ يكنى أبا محمد ، وأصله من القيروان ، كثير التأليف في علوم القرآن والحديث ، له كتاب في « النسخ والمنسوخ » ، سكن قرطبة ، ورحل إلى مصر مرتين ، توفي سنة ٥٤٣٧ هـ .

« ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعراً بالتوقيت والغاية مثل قوله في البقرة (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) ^(١) محكم غير منسوخ ، لأنه مؤجل بأجل ، والمؤجل بأجل لا نسخ فيه .

ما يقع فيه النسخ

ومن هنا يعلم أن النسخ لا يكون إلا في الأوامر والنواهي — سواء كانت صريحة في الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التي ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، أو الآداب الخلقية ، أو أصول العبادات والمعاملات لأن الشرائع كلها لا تخلو عن هذه الأصول . وهي متفقة فيها ، قال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ١٣ — الشورى) وقال (يأياها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ١٨٣ — البقرة) وقال (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً ٢٧ — الحج) وقال في القصاص (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ٤٥ — المائدة) وقال في الجهاد (وكأني من نبى قاتل معه ربيون كثير ١٤٥ — آل عمران) وفي الأخلاق (ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ١٨ — لقمان) .

كما لا يدخل النسخ الخبر الصريح الذي ليس بمعنى الطلب كالوعد والوعيد .

ما به يعرف النسخ وأهميته

ولعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين حتى لا تختلط الأحكام ، ولذلك وردت آثار كثيرة في الحث على معرفته ، فقد روي أن علياً رضي الله عنه مرّ على قاض فقال له : أتعرف الناسخ

(١) الآية ١٠٩ — البقرة .

من المنسوخ ؟ قال : لا ، فقال : هلك وأهلك ، وعن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ٢٦٩ - البقرة) قال « ناسخه ومنسوخه وحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره ، وحرامه وحلاله » (١)

ولعرفة الناسخ والمنسوخ طرق :

١ - النقل الصريح عن النبي ﷺ أو عن صحابي كحديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها » رواه الحاكم . وقول أنس في قصة أصحاب بدر معونة كما سيأتي : ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع . (٢)

٢ - إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ .

٣ - معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ .

ولا يعتمد في النسخ على الاجتهاد ، أو قول المفسرين ، أو التعارض بين الأدلة ظاهراً ، أو تأخر إسلام أحد الراويين .

الآراء في النسخ وأدلة ثبوته

والناس في النسخ على أربعة أقسام :

١ - اليهود : وهؤلاء ينكرونه لأنه يستلزم في زعمهم البداء ، وهو الظهور بعد الخفاء ، وهم يعنون بذلك : أن النسخ إما أن يكون لغير حكمة ، وهذا عبث محال على الله ، وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل ، وهذا يستلزم البداء وسبق الجهل ، وهو محال على الله تعالى .

واستدلّاهم هذا فاسد ، لأن كلاً من حكمة الناسخ وحكمة المنسوخ معلوم

(١) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٢) هم بحث من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أهل نجد ، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة ، فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل من بني سليم من عصية ورحل وذكوان - وأحاطوا بهم وقتلوه حتى قتلوا عن آخرهم .

لله تعالى من قبل ، فلم يتجدد علمه بها . وهو سبحانه ينقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة معلومة له من قبل بمقتضى حكمته وتصرفه المطلق في ملكه .

واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها . وجاء في نصوص التوراة النسخ ، كتحريم كثير من الحيوان على بني إسرائيل بعد حله ، قال تعالى في إخباره عنهم (كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم لإسرائيل على نفسه ٩٣ - آل عمران) وقال (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ١٤٦ - الأنعام) الآية . وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج من الأخت . وقد حرم الله ذلك على موسى ، وأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم .

٢ - الروافض : وهؤلاء غالوا في إثبات النسخ وتوسعوا فيه ، وأجازوا البداء على الله تعالى ، فهم مع اليهود على طرفي نقبض ، واستدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى علي رضي الله عنه زوراً وبهتاناً ، ويقولون تعالى (يمحوا الله ما يشاء وثبت ٣٩ - الرعد) على معنى أنه يظهر له المحو والإثبات .

وذلك إغراق في الضلال . وتحريف للقرآن . فإن معنى الآية : ينسخ الله ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته ، وكل من المحو والإثبات موجود في كثير من الحالات ، كمحو السيئات بالحسنات (إن الحسنات يذهبن السيئات ١١٤ - هود) ومحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة وإثبات إيمانهم وطاعتهم . ولا يلزم من ذلك الظهور بعد الخفاء ، بل يفعل الله هذا مع علمه به قبل كونه .

٣ - أبو مسلم الأصفهاني ^(١) : وهو يجوز النسخ عقلاً ويمنع وقوعه شرعاً ،

(١) هو محمد بن بحر ، المشهور بأبي مسلم الأصفهاني ، معتزلي ، من كبار المفسرين . أهم كتبه « جامع التأويل » في التفسير ، توفي سنة ٣٢٢ هجرية .

وقيل بمنعه في القرآن خاصة محتجاً بقوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ٤٢ - فصلت) على معنى أن أحكامه لا تبطل أبداً . ويحمل آيات النسخ على التخصيص .

ورد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب ولا يأتي بعده ما يبطله .

٤ - وجمهور العلماء : على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً لأدلة :

١ - لأن أفعال الله لا تعلل بالأغراض ، فله أن يأمر بالشيء في وقت وينسخه بالنهي عنه في وقت ، وهو أعلم بمصالح العباد .

٢ - ولأن نصوص الكتاب والسنة دالة على جواز النسخ ووقوعه :

أ - قال تعالى : (وإذا بدلنا آية مكان آية ١٠١ - النحل) وقال (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ١٠٦ - البقرة) .

ب - وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنه : قال : قال عمر رضي الله عنه : أقرؤنا أبي ، وأقضانا ، وإنا لندع من قول أبي ، وذلك أن أبيا يقول : لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ ، وقد قال الله عز وجل (ما ننسخ من آية أو ننسها) .

أقسام النسخ

والنسخ أربعة أقسام :

القسم الأول : نسخ القرآن بالقرآن : وهذا القسم متفق على جوازه ووقوعه من القائلين بالنسخ ، فآية الاعتداد بالحوال مثلاً نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشراً ، كما سيأتي في الأمثلة .

القسم الثاني : نسخ القرآن بالسنة : وتحت هذا نوعان :

أ - نسخ القرآن بالسنة الأحادية . والجمهور على عدم جوازه . لأن القرآن متواتر يفيد اليقين ، والآحادي مظنون ، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون .

ب - ونسخ القرآن بالسنة المتواترة . وقد أجازاه مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية ، لأن الكل وحي . قال تعالى (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ٣ ، ٤ - النجم) وقال (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ٤٤ - النحل) والنسخ نوع من البيان - ومنعه الشافعي وأهل الظاهر وأحمد في الرواية الأخرى ، لقوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ١٠٦ - البقرة) والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله .

القسم الثالث : نسخ السنة بالقرآن ، ويجيزه الجمهور ، فالتوجه إلى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة ، وليس في القرآن ما يدل عليه ، وقد نسخ بالقرآن في قوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام ٤٤ - البقرة) ووجوب صوم يوم عاشوراء ، كان ثابتاً بالسنة ونسخ بقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه ١٨٥ - البقرة)^(١) ومنع هذا القسم الشافعي في إحدى روايته ، وقال : « وحيث وقع بالسنة فمعها قرآن ، أو بالقرآن فمعه سنة عاضده تبين توافق الكتاب والسنة »^(٢)

القسم الرابع : نسخ السنة بالسنة : وتحت هذا أربعة أنواع : ١ - نسخ متواترة بمتواترة ٢ - ونسخ آحاد بآحاد ٣ - ونسخ آحاد بمتواترة ٤ - ونسخ متواترة بآحاد - والثلاثة الأولى جائزة - أما النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد في نسخ القرآن بالسنة الأحادية ، والجمهور على عدم جوازه .

أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه .

(١) أخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت : « كان عاشوراء صياماً ، فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر » .

(٢) انظر الإتنان صفحة (٢١ ج ٢) .

أنواع النسخ في القرآن

والنسخ في القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الاول : نسخ التلاوة والحكم معاً ، ومثاله : ما رواه مسلم وغيره عن عائشة قالت : « كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرم فنسخن بخمس معلومات » فتوفي رسول الله ﷺ « وهن مما يقرأ من القرآن » وقولها « وهن مما يقرأ في القرآن » ظاهره بقاء التلاوة ، وليس كذلك ، فإنه غير موجود في المصحف العثماني . وأجيب بأن المراد قارب الوفاة .

النوع الثاني : نسخ الحكم وبقاء التلاوة : ومثاله : نسخ حكم آية العدة بالحول مع بقاء تلاوتها - وهذا النوع هو الذي ألفت فيه الكتب وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة . والتحقيق أنها قليلة ، كما بين ذلك القاضي أبو بكر بن العربي .

النوع الثالث : نسخ التلاوة مع بقاء الحكم : وقد ذكروا له أمثلة كثيرة ، منها آية الرجم « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم » ومنها ما روي في الصحيحين عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا وقتل الرسول يدعو على قاتليهم ، قال أنس : ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع « أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ، ثم نسخت تلاوته - وبعض أهل العلم ينكر هذا النوع من النسخ . لأن الأخبار فيه أخبار آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد قال ابن الحصار : « إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن صحابي يقول : آية كذا نسخت كذا ، قال : وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر ، قال ولا يعتمد في النسخ على قول عوام المفسرين ، بل ولا اجتهد المجتهدين من غير نقل صريح ، ولا معارضة بينه ، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر في عهده صلى الله عليه وسلم ، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد ، قال : والناس في هذا بين

طرفي نقيض ، فمن قائل لا يقبل في النسخ أخبار الآحاد العدول ، ومن متساهل يكتفي فيه بقول مفسر أو مجتهد ، والصواب خلاف قولهما ^(١)

حكمة النسخ

- ١ - مراعاة مصالح العباد .
- ٢ - تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس
- ٣ - ابتلاء المكلف واختباره بالامثال وعدمه .
- ٤ - إرادة الخير للأمة والتيسير عليها ، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب ، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر .

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل

والنسخ يكون إلى بدل وإلى غير بدل - والنسخ إلى بدل : إما إلى بدل أخف ، وإما إلى بدل مماثل ، وإما إلى بدل أثقل :

١ - فالنسخ إلى غير بدل : كنسخ الصدقة بين يدي نجوی رسول الله ﷺ في قوله تعالى (يأياها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ١٢ - المجادلة) نسخت بقوله (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ١٣ - المجادلة) .

٢ - والنسخ إلى بدل أخف : يمثلون له بقوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائك ١٨٧ - البقرة) الآية - فهي ناسخة لقوله (كما كتب على الذين من قبلكم ١٨٣ - البقرة) لأن مقتضاها الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية ، كما ذكروا

(١) انظر الإقتان ، صفحة ٢٤ ج ٢ .

ذلك ، فقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : أنزلت (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة أو نام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها ، وروى مثله أحمد والحاكم وغيرهما ، وفيه « فأنزل الله عز وجل (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) الآية » .

٣ - النسخ إلى بدل مماثل : كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة في قوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام ٤٤ - البقرة) .

٤ - والنسخ إلى بدل الأقل : كنسخ الحبس في البيوت في قوله (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت ١٥ - النساء) الآية ، بالجلد في قوله (الزانية والزاني ٢ - النور) الآية .

أو الرجم في قوله « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ... »

شبه النسخ

وللناسخ والمنسوخ أمثلة كثيرة ، إلا أن العلماء في هذا :

أ - منهم المكثّر الذي اشتبه عليه الأمر فأدخل في النسخ ما ليس منه .

ب - ومنهم المتحرّي الذي يعتمد على النقل الصحيح في النسخ .

ومنشأ الاشتباه عند المكثرين أمور أهمها :

١ - اعتبار التخصيص نسخاً (انظر مبحث العام والخاص) .

٢ - اعتبار البيان نسخاً (انظر مبحث المطلق والمقيد الآتي) .

٣ - اعتبار ما شرع لسبب ثم زال السبب من المنسوخ ، كالحث على الصبر وتحمل أذى الكفار في مبدأ الدعوة حين الضعف القلة ، قالوا إنه منسوخ

بآيات القتال ، والحقيقة أن الاول - وهو وجوب الصبر والتحمل - كان ويكون لحالة الضعف والقلة . وإذا وجدت الكثرة والقوة وجب الدفاع عن العقيدة بالقتال ، وهو الحكم الثاني .

٤ - اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة نسخاً : كتحديد عدد الزوجات بأربع ، ومشروعية القصاص والدية ، وقد كان عند بني إسرائيل القصاص فقط كما قال ابن عباس رواه البخاري ^(١) ، ومثل هذا ليس نسخاً ، وإنما هو رفع للبراءة الأصلية .

امثلة للنسخ

وقد ذكر السيوطي في الإتقان إحدى وعشرين آية اعتبرها من قبيل النسخ تذكر منها ما يأتي ونعلق عليه :

١ - قوله تعالى (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ١١٥ - البقرة) منسوخة بقوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام ٤٤ - البقرة) وقد قيل - وهو الحق - إن الأولى غير منسوخة لأنها في صلاة التطوع في السفر على الرحلة وكذا في حال الخوف والاضطرار ، وحكمها باق ، كما في الصحيحين ، والثانية في الصلوات الخمس ، والصحيح أنها ناسخة لما ثبت في السنة من استقبال بيت المقدس .

٢ - قوله تعالى (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين ١٨٠ - البقرة) قيل منسوخة بآية الموارث ، وقيل بحديث « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث ! » ^(٢)

(١) أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال : كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن الدية فيهم ، فقال الله لهذه الأمة (كتب عليكم القصاص في القتلى ١٧٨ - البقرة) إلى قوله (فمن عفي له من أخيه شيء) فالعفو أن تقبل الدية في العمد (فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) مما كتب على من كان قبلكم (فمن اعتدى بعد ذلك) قيل بعد قبول الدية (فله عذاب أليم) .

(٢) رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حسن صحيح .

٣ - قوله (وعلى الذين يطيقونه فدية ١٨٤ - البقرة) نسخت بقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه ١٧٥ - البقرة) لما في الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع أنه قال : لما نزلت (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كان من أراد أن يفطر يفندي ، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها .

وذهب ابن عباس إلى أنها محكمة غير منسوخة : روى البخاري عن عطاء أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ : (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قال ابن عباس : ليست بمنسوخة . هي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان كل يوم مسكيناً - وليس معنى (يطيقونه) على هذا يستطيعونه ، وإنما معناه يتحملونه بمشقة وكلفة .

وبعضهم جعل الكلام على تقدير لا النافية ، أو وعلى الذين لا يطيقونه .

٤ - قوله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ٢١٧ - البقرة) نسخت بقوله (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ٣٦ - التوبة) وقيل يحمل عموم الأمر بالقتال على غير الأشهر الحرم فلا نسخ .

٥ - قوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول غير إخراج ٢٤٠ - البقرة) نسخت بقوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ٢٣٤ - البقرة) .

وقيل إن الآية الأولى محكمة لأنها في مقام الوصية للزوجة إذا لم تخرج ولم تتزوج ، أما الثانية فهي لبيان العدة ، ولا تنافي بينهما .

٦ - قوله (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ٢٨٤ - البقرة) نسخت بقوله (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ٢٨٦ - البقرة) .

٦ - قوله (وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه ٨ - النساء) نسخت بآية المواريث وقيل - وهو الصواب - إنها غير منسوخة ، وحكمها باق على النذب .

٨ - قوله (واللاقي يأتيان الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ١٥ ، ١٦ - النساء) نسختنا بآية الجلد للبكر في سورة النور (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ٢ - النور) و بالجلد للبكر وبالرجم للثيب الوارد في السنة «.. البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ^(١) من حديث عبادة بن الصامت الذي رواه مسلم .

٩ - قوله (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ٦٥ - الأنفال) نسخت بقوله (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ٦٦ - الأنفال) .

١٠ - قوله (انفروا خفاً وثقالاً ٤١ - التوبة) نسخت بقوله (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ٩١ - التوبة) الآية ، ويقول (وما كان المؤمنون لينفروا كافة ١٢٢ - التوبة) الآية .

وقيل إنه من باب التخصيص لا النسخ . وقد مر ذكر أمثلة أخرى .

(١) رواه مسلم من حديث عبادة بن الصامت .

المطلق والمقيد

بعض الأحكام التشريعية يرد تارة مطلقاً في فرد شائع لا يتقيد بصفة أو شرط ، ويرد تارة أخرى متناولاً له مع أمر زائد على حقيقته الشاملة لجنسه من صفة أو شرط ، وإطلاق اللفظ مرة وتقييده أخرى من البيان العربي ، وهو ما يعرف في كتاب الله المعجز « بمطلق القرآن ومقیده ».

تعريف المطلق والمقيد

والمطلق : هو ما دل على الحقيقة بلا قيد ، فهو يتناول واحداً لا بعينه من الحقيقة ، وأكثر مواضعه النكرة في الإثبات كلفظ (رقبة) في مثل (فتحرير رقبة) فإنه يتناول عتق إنسان مملوك - وهو شائع في جنس العبيد مؤمنهم وكافرهم على السواء - وهو نكرة في الإثبات ، لأن المعنى : فعلية تحرير رقبة ، وكقوله عليه الصلاة والسلام « لا نكاح إلا بولي » رواه أحمد والأربعة . وهو مطلق في جنس الأولياء سواء كان رشيداً أو غير رشيد .

(١) أنظر الإتقان صفحة ٣١ ج ٢ .

والمقيد : هو ما دل على الحقيقة بقيد ، كالرقبة المقيدة بالإيمان في قوله
(فتحرير رقبة مؤمنة)

أقسام المطلق والمقيد وحكم كل منها

وللمطلق والمقيد صور عقلية نذكر منها الأقسام الواقعية فيما يلي :

١ - أن يتحد السبب والحكم : كالصيام في كفارة اليمين : جاء مطلقاً في القراءة المتواترة بالمصحف (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ٨٩ - المائدة) ومقيداً بالتتابع في قراءة ابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » - فمثل هذا يحمل المطلق فيه على المقيد لأن السبب الواحد لا يوجب المتتابعين - ولهذا قال قوم بالتتابع ^(١) ، وخالفهم من يرى أن القراءة غير المتواترة - وإن كانت مشهورة - ليست حجة ، فليس هنا مقيد حتى يحمل عليه المطلق .

٢ - أن يتحد السبب ويختلف الحكم : كالأيدي في الوضوء والتيمم . قيد غسل الأيدي في الوضوء بأنه إلى المرافق ، قال تعالى (بأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ٦ - المائدة) وأطلق المسح في التيمم قال تعالى (فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ٦ - المائدة) فقليل لا يحمل المطلق المقيد لاختلاف الحكم . ونقل الغزالي عن أكثر الشافعية حمل المطلق على المقيد هنا لإتحاد السبب وإن اختلف الحكم .

٣ - أن يختلف السبب ويتحد الحكم : وفي هذا صورتان :

أ - الأولى : أن يكون التقييد واحداً . كعتق الرقبة في الكفارة ، ورد اشتراط الإيمان في الرقبة بتقييدها بالرقبة المؤمنة في كفارة القتل الخطأ ، قال تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ٩٢ - النساء) وأطلقت في كفارة الظهار ، قال تعالى (والذين يظاهرون من نسائهم ثم

(١) وبه قال أبو حنيفة والثوري ، وهو أحد قولي الشافعي .

يعودون لما قالوا فتنحير رقة من قبل أن يتماسا ٣ - المجادلة) وفي كفارة اليمين ، قال تعالى (لا يؤخذكم الله باللغو في إيمانكم ولكن يؤخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارتهم إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقة ٨٩ - المائدة) فقال جماعة منهم المالكية وكثير من الشافعية يحمل المطلق على المقيد ، فلا تجزئ الرقة الكافرة في كفارة الظهار واليمين ، وقال آخرون - وهو مذهب الأحناف - لا يحمل المطلق على المقيد ، فيجوز إعتاق الكافرة في كفارة الظهار واليمين .

ب - الثانية : أن يكون التقيد مختلفاً ، كالكفارة بالصوم ، قيد الصوم بالتتابع في كفارة القتل ، قال تعالى (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ٩٢ - المائدة) وفي كفارة الظهار ، قال تعالى (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ٣ - المجادلة) وجاء تقييده بالتفريق في صوم المتمتع بالحج . قال تعالى (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم ١٨٦ - البقرة) ثم جاء الصوم مطلقاً دون تقيد بالتتابع أو التفريق في كفارة اليمين قال تعالى (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ٨٩ - المائدة) وفي قضاء رمضان قال تعالى (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ١٨٤ - البقرة) فالمطلق في هذا لا يحمل على المقيد . لأن القيد مختلف . فحمل المطلق على أحدهما ترجيح بلا مرجح .

٤ - أن يختلف السبب ويختلف الحكم : - كاليد في الوضوء . والسرقة . قيدت في الوضوء إلى المرافق ، وأطلقت في السرقة . قال تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ٣٨ - المائدة) فلا يحمل المطلق على المقيد للاختلاف سبباً وحكماً ، وليس في هذا شيء من التعارض .

المنطوق والمفهوم

دلالة الألفاظ على المعاني قد يكون مأخذها من منطوق الكلام المفوظ به نصاً أو احتمالاً بتقدير أو غير تقدير ، وقد يكون مأخذها من مفهوم الكلام سواء وافق حكمها حكم المنطوق أو خالفه — وهذا هو ما يسمى : بالمنطوق والمفهوم .

تعريف المنطوق وأقسامه

المنطوق : هو ما دل عليه اللفظ في محل النطق — أي أن دلالاته تكون من مادة الحروف التي ينطق بها .

ومنه : النص ، والظاهر ، والمؤول :

فالنص : هو ما يفيد بنفسه معنى صريحاً لا يحتمل غيره . كقوله تعالى (فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ١٩٦ — البقرة) فإن وصف عشرة بكاملة قطع احتمال العشرة لما دونها مجازاً . وهذا هو الغرض من النص — وقد نقل عن قوم أنهم قالوا بندرة النص جداً في الكتاب والسنة ، وبالغ

(١) أنظر الإتيان صفحة ٣١ ج ٢ .

إمام الحرمين من الرد عليهم فقال : « لأن الغرض من النص الاستقلال بإفادة المعنى على القطع مع انجسام جهات التأويل والاحتمال ، وهذا وإن عز حصوله بوضع الصيغ رداً إلى اللغة ، فما أكثره مع القرائن الحالية والمقابلية »

والظاهر : هو ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً ، فهو يشترك مع النص في أن دلالته في محل النطق ، ويختلف عنه في أن النص يفيد معنى لا يحتمل غيره ، والظاهر يفيد معنى عند الإطلاق مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً كقوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد ١٧٣ - البقرة) فإن الباغي يطلق على الجاهل . ويطلق على الظالم ، ولكن إطلاقه على الظالم أظهر وأغلب فهو إطلاق راجح ، والأول مرجوح ، وكقوله (ولا تقرّبوهن حتى يطهرن ٢٢٢ - البقرة) فانقطاع الحيض يقال فيه طهر ، والوضوء والغسل يقال فيهما طهر ، ودلالة الطهر على الثاني أظهر ، فهي دلالة راجحة ، والأولى مرجوحة .

والمؤول : هو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح للدليل يمنع من إرادة المعنى الراجح ، فهو يخالف الظاهر في أن الظاهر يحمل على المعنى الراجح حيث لا دليل يصرفه إلى المعنى المرجوح ، أما المؤول فإنه يحمل على المعنى المرجوح لوجود الدليل الصارف عن إرادة المعنى الراجح . وإن كان كل منهما يدل عليه اللفظ في محل النطق ، كقوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ٢٤ - الإسراء) فإنه محمول على الخضوع والتواضع وحسن معاملة الوالدين . لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة .

دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة

قد تتوقف صحة دلالة اللفظ على إضمار ، وتسمى بدلالة الاقتضاء ، وقد لا تتوقف على إضمار ويدل اللفظ على ما لم يقصد به قصداً أولياً ، وتسمى دلالة الإشارة :

فالأول : كقوله تعالى (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ١٨٤ - البقرة) . أي فأفطر فعدة . لأن قضاء الصوم على المسافر إنما يجب إذا أفطر في سفره ، أما إذا صام في سفره فلا موجب للقضاء خلافاً للظاهرية ، وكقوله تعالى (حرمت عليكم أمهاتكم ٢٣ - النساء) فإنه يتضمن إضمار الوطء ويقتضيه ، أي وطء أمهاتكم ، لأن التحريم لا يضاف إلى الأعيان ، فوجب لذلك إضمار فعل يتعلق به التحريم وهو الوطء ، وهذا النوع يقرب من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وهو من باب إيجاز القصر في البلاغة - وسمي اقتضاء لاقتضاء الكلام شيئاً زائداً على اللفظ .

والثاني : وهو دلالة الإشارة - كقوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باسروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ١٨٧ - البقرة) فإنه يدل على صحة صوم من أصبح جنباً - لأنه يبيح الوطء إلى طلوع الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل ، وهذا يستلزم الإصباح على جنابة ، وإباحة سبب الشيء نفسه ، فإباحة الجماع إلى آخر جزء من الليل لا يتسع معه الغسل قبل الفجر لإباحة للإصباح على جنابة .

وهاتان الدالتان - الاقتضاء والإشارة - أخذتا من المنطوق أيضاً ، فهما من أقسام المنطوق ، فالمنطوق على هذا يشمل ١ - النص ، ٢ - والظاهر ٣ - والمؤول ٤ - والاقتضاء ٥ - والإشارة .

تعريف المفهوم وأقسامه

المفهوم :- هو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق - وهو قسمان ١ - مفهوم موافقة ٢ - مفهوم مخالفة .

١ - مفهوم الموافقة : هو ما يوافق حكمه المنطوق - وهو نوعان :

أ - النوع الاول : فحوى الخطاب : - وهو ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق ، كفهم تحريم الشتم والضرب من قوله تعالى (فلا تقل لهما أف ٢٣ - الإسراء) لأن منطوق الآية تحريم التأفif ، فيكون تحريم الشتم والضرب أولى لأنهما أشد .

ب - النوع الثاني : لحن الخطاب : وهو ما ثبت الحكم فيه للمفهوم كنبوته للمنطوق على السواء - كدلالة قوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا ١٠ - النساء) على تحريم إحراق أموال اليتامى أو إضاعتها بأي نوع من أنواع التلف لأن هذا مساو للأكل في الإلتاف .

وتسمية هذين بمفهوم الموافقة لأن المسكوت عنه يوافق المنطوق به في الحكم وإن زاد عليه في النوع الأول ، وسأواه في الثاني .

٢ - مفهوم المخالفة : هو ما يخالف حكمه المنطوق - وهو أنواع : -

أ - مفهوم صفة : والمراد بها الصفة المعنوية ، كالمنشق : في قوله تعالى (ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ٦ - الحجرات) فمفهوم التعبير بفاسق أن غير الفاسق لا يجب التثبت في خبره ، ومعنى هذا انه يجب قبول خبر الواحد العدل . وكالحال : - في قوله (يأبى الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم ٩٥ - المائدة) فهو يدل على انتفاء الحكم في المخطيء ، لأن تخصيص العمد بوجوب الجزاء به يدل على نفي وجوب الجزاء في قتل الصيد خطأ . وكالعند : - في قوله (الحج أشهر معلومات ١٩٧ - البقرة) مفهومه أن الإحرام بالحج في غير أشهره لا يصح ، وقوله (فاجلدوهم ثمانين جلدة ٤ - النور) مفهومه ألا يجلد أقل أو أكثر .

ب : مفهوم شرط : - كقوله تعالى (وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن ٦ - الطلاق) فمعناه أن غير الحوامل لا يجب الإنفاق عليهن .

ح : مفهوم غاية : - كقوله تعالى (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ٢٣٠-البقرة) فمفهوم هذا أنها تحل للأول إذا نكحت غيره بشروط النكاح .

د : مفهوم حصر : - كقوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين - ه الفاتحة) مفهومه أن غيره سبحانه لا يعبد ولا يستعان به ، ولذلك كانت دالة على إفراده تعالى بالعبادة والاستعانة .

الاختلاف في الاحتجاج به

اختلف في الاحتجاج بهذه المفاهيم ، والأصح في ذلك أنها حجة بشروط ، منها : -

١ - ألا يكون المذكور مخرج مخرج الغالب - فلا مفهوم للحجور في قوله تعالى (وربائبكم اللاتي في حجوركم ٢٣ - النساء) ، لأن الغالب كون الربائب في حجور الأزواج .

ب - ومنها ألا يكون المذكور لبيان الواقع - فلا مفهوم لقوله (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ١١٧ - المؤمنون) لأن الواقع أن أي إله لا برهان عليه ، وقوله (لا برهان له به) صفة لازمة جيء بها للتوكيد والتهكم بمدعي إله مع الله لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان - ومثله قوله (ولا تكروها فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ٣٣ - النور) فلا مفهوم له يدل على إباحة إكراه السيد لأتمته على البغاء إن لم تزد التحصن ، وإنما قال (إن أردن تحصناً) لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن . وعن جابر بن عبد الله قال : « كان عبد الله بن أبي يقول لجارية له : اذهبي فابغينا شيئاً ، وكانت كارهة ، فأنزل الله (ولا تكروها فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) » وعن جابر أيضاً : « ان جارية لعبد الله بن أبي ، يقال لها مسيكة ، وأخرى يقال لها أميمة . فكان يريد هما على الزنى . فشكنا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله (ولا تكروها فتياتكم) الآية ^(١) »

(١) أخرجهما مسلم وغيره .

عجاز القرآن

هذا الكون الفسح الذي يعج بمخلوقات الله تضاءلت جباله الشامخة ، وبحاره الزاخرة ، ومهاده الواسعة ، أمام مخلوق ضعيف هو الإنسان ، ذلك لما جمع الله فيه من خصائص ، وما منحه من قوة التفكير التي تشع في الأرجاء لتسخر عناصر القوى الكونية ، وتجعلها في خدمة الإنسانية . وما كان الله ليدر هذا الإنسان دون أن أن يمدّه بقبس من الوحي بين فترة وأخرى يقوده إلى معالم الهدى ليسلك دروب الحياة على بينة وبصيرة ، إلا أن غلواءه الفطري يأبى عليه الخضوع لقرينه من بني الإنسان ما لم يأت له بما لا يستطيع حتى يعترف ويخضع ويؤمن بقدرة عليا فوق قدرته ، فكان رسل الله الذين ينتزل عليهم الوحي ويؤيدهم الله بخوارق العادات التي تقيم الحجة على الناس فيعرفون أمامها بالعجز ، ويدنون لها بالولاء والطاعة ، ولكن العقل البشري كان في أطوار نموه الأولى لا يرى شيئاً يأخذ بلبه أقوى من المعجزات الكونية الحسية حيث لا يرقى عقله إلى السمو في المعرفة والتفكير ، فناسب هذا أن يبعث كل رسول إلى قومه خاصة ، وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه خارقة لما ألفوه ليتحقق بعجزهم عنها إيمانهم بأنها من قوى السماء ، فلما اكتمل العقل البشري أذن الله بفجر الرسالة المحمدية الخالدة إلى الناس كافة ، وكانت معجزتها معجزة العقل البشري في أرقى تطورات نضجه ونموه ، فبينما كان تأييد الله لرسله

السابقين بآيات كونية تبهر الأبصار ولا سبيل للعقل في معارضتها . كعجزة اليد والعصا لموسى ، وإبراء الأكف والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى ، كانت معجزة محمد ﷺ في عصر مشرف على العلم معجزة عقلية تحتاج العقل البشري وتتحداه إلى الأبد ، وهي معجزة القرآن بعلومه ومعارفه ، وأخباره الماضية والمستقبلية ، فالعقل الإنساني على تقدمه لا يعجز عن معارضته لأنه آية كونية لا قبل له بها . ولكن عجزه لقصوره الذاتي ، فيكون هذا اعترافاً منه بأنه وحي الله إلى رسوله ، وأن حاجته إلى الاهتداء به ماسة ليستقيم عوجه ، وترقى مواهبه . وهذا المعنى ، هو ما يشير إليه رسول الله ﷺ في قوله « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً ^(١) » .

وهكذا كتب الله لمعجزة الإسلام الخلود ، فضعفت القدرة الإنسانية مع

تراخي الزمن وتقدم العلم عن معارضتها .

والحديث عن إعجاز القرآن ضرب من الإعجاز لا يصل الباحث فيه إلى سر

جانب منه حتى يجد وراءه جوانب أخرى يكشف عن سر إعجازها الزمن . فهو كما

يقول الرافعي « ما أشبه القرآن الكريم في تركيب إعجازه وإعجاز تركيبه بصورة

كلامية من نظام هذا الكون الذي اكتنفه العلماء من كل جهة ، وتعاوره من كل

ناحية ، وأخلقوا جوانبه بحثاً وتفتيشاً ، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقاً جديداً ، ومراماً بعيداً » .

تعريف الإعجاز وإثباته

الإعجاز : إثبات العجز ، والعجز في التعارف : اسم للقصور عن فعل

الشيء . وهو ضد القدرة ، وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز ، والمراد

بالإعجاز هنا : إظهار صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب

(١) رواه البخاري .

عن معارضته في معجزته الخالدة - وهي القرآن - وعجز الأجيال بعدهم .
والمعجزة : - أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة .

والقرآن الكريم تحدى به النبي ﷺ العرب ، وقد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم في الفصاحة والبلاغة ، ومثل هذا لا يكون إلا معجزاً .

فقد ثبت أن الرسول ﷺ تحدى العرب بالقرآن على مراحل ثلاث : -

أ - تحداهم بالقرآن كله في أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحدياً يظهر على طاقتهم مجتمعين ، بقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ٨٨ - الأسراء) .

ب - ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى (أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ١٣ ، ١٤ - هود) .

ج - ثم تحداهم بسورة واحدة منه في قوله (أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ٣٨ - يونس) وكرر هذا التحدي في قوله (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة مثله ٢٣ - البقرة) .

ومن عنده إلمام قليل بتاريخ العرب وأدب لغتهم يدرك العوامل السابقة لبعثة الرسول ﷺ التي رقت بلغة العرب وهذبت لسانها وجمعت خيراً ما في لهجاتها من أسواق الأدب والمفاخرة بالشعر والنثر . حتى انتهى مصب جداول الفصاحة وإدارة الكلام بالبيان في لغة قريش التي نزل بها القرآن ، وما كان عليه العرب من صلف يعلوا بأحدهم على أبناء عمومته أنفاً وكبراً مضرب مثل في التاريخ الذي سجل لهم أياماً نسبت إليهم لما أحدثوه فيها من معارك وحروب طاحنة . أشعلها شرر من الكبرياء والأنفة .

ومثل هؤلاء مع توفر دواعي اللسان وقوة البيان التي يوقدها حماس القبيل

ويؤجها أثون الحمية لو تسمى لهم معارضة القرآن الكريم لأثر هذا عنهم ، وتطير خبره في الأجيال . فالقوم قد تصفحوا آيات الكتاب وقلبوها على وجوه ما نبغوا فيه من شعر ونثر فلم يجدوا مسلكاً لمحاكاته ، أو منفذاً لمعارضته ، بل جرى على ألسنتهم الحق الذي أخرجهم عفو الخاطر عندما زلزلت آيات القرآن الكريم قلوبهم كما أثر ذلك عن الوليد بن المغيرة ، وعندما عجزت حيلتهم رموه بقول باهت فقالوا : سحر يؤثر ، أو شاعر مجنون ، أو أساطير الأولين . ولم يكن لهم بد أمام العجز والمكابرة إلا أن يعرضوا رقابهم للسيوف ، وكأن اليأس القاتل بنقل بنيه من نظرتهم للحياة الطويلة والعمر المديد إلى ساعة الاحتضار فيستسلمون للموت الزوأم — وبهذا ثبت إعجاز القرآن بلا مرأ .

وكان سماعه حجة ملزمة (وإن أخذ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ٦ - التوبة) . وكان ما يحتويه من نواحي الإعجاز يفوق كل معجزة كونية سابقة ويغني عنها جميعاً (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ٥٠ ، ٥١ - العنكبوت) .

وعجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعي عجز للغة العربية في ريعان شبابها وعنفوان قوتها .

والإعجاز لسائر الأمم على مر العصور ظل ولا يزال في موقف التجدي شامخ الأنف ، فأسرار الكون التي يكشف عنها العلم الحديث ما هي إلا مظاهر للحقائق العليا التي ينطوي عليها سر هذا الوجود في خالقه ومدبره ، وهو ما أجمله القرآن أو أشار إليه - فصار القرآن بهذا معجزاً للإنسانية كافة .

وجوه إعجاز القرآن

لقد كان لنشأة علم الكلام في الإسلام أثر أصدق ما يقال فيه : إنه كلام في كلام ، وما فيه من وميض التفكير يجر متبعه إلى مجاهر من القول بعضها فوق

بعض . وقد بدأت مأساة علماء الكلام في القول بخلق القرآن ، ثم اختلفت آراؤهم وتضاربت في وجوه إعجازه : —

١ — فذهب أبو اسحاق ابراهيم النظام ومن تابعه كالمرتضى من الشيعة إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرقة ، ومعنى الصرقة في نظر النظام : أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها ، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة . ومعناها في نظر المرتضى : ان الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيثوا بمثل القرآن — وهو قول يدل على عجز ذويه ، فلا يقال فيمن سلب القدرة على شيء إن الشيء أعجزه ما دام مقدوره أن يأتي به في وقت ما ، وإنما المعجز حيثئذ هو قدر الله ، فلا يكون القرآن معجزاً ، وحديثنا عن إعجاز مضاف إلى القرآن سوف يظل ثابتاً له في كل عصر ، لا عن إعجاز الله .

ب — وذهب قوم إلى أن القرآن معجز ببلاغته التي وصلت إلى مرتبة لم يعهد لها مثيل — وهذه النظرة نظرة أهل العربية الذين يولعون بصور المعاني الحية في النسيج المحكم ، والبيان الرائع .

ج — وبعضهم يقول : إن وجه إعجازه في تضمنه البديع الغريب المخالف لما عهد في كلام العرب من الفواصل والمقاطع ، ويقول آخرون بل إعجازه في الإخبار عن المغيبات المستقبلية التي لا يطلع عليها إلا بالوحي . أو الإخبار عن الأمور التي تقدمت منذ بدء الخلق بما لا يمكن صدوره من أمي لم يتصل بأهل الكتاب .

د — وذهب جماعة إلى أن القرآن معجز لما تضمنه من العلوم المختلفة ، والحكم البليغة، وهناك وجوه أخرى للإعجاز تدور في هذا القللك جمعها بعضهم في عشرة أو أكثر :

والحقيقة أن القرآن معجز بكل ما يتحمله هذا اللفظ من معنى : —

فهو معجز في ألفاظه وأسلوبه ، والحرف الواحد منه في موضعه من الإعجاز

الذي لا يغنى عنه غيره في تماسك الكلمة ، والكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة ، والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية .

وهو معجز في بيانه ونظمه ، يجد فيه القارئ صورة حية للحياة والكون والإنسان وهو معجز في معانيه التي كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها في الوجود .

وهو معجز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها المغيبة . وهو معجز في تشريعه وصيانيته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالي تسعد الدنيا على يديه .

والقرآن - أولاً وآخرأ - هو الذي صير العرب رعاة الشاء والغنم ساسة شعوب وقادة أمم ، وهذا وحده إعجاز .

القدر المعجز من القرآن

١ - يذهب المعتزلة إلى أن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن لا ببعضه .

ب - ويذهب البعض إلى أن المعجز منه القليل والكثير دون تقييد بالسورة لقوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله ٣٤ - الطور) .

ج - ويذهب آخرون إلى أن الإعجاز يتعلق بسورة تامة ولو قصيرة ، أو قدرها من الكلام كآية واحدة أو آيات .

ولقد وقع التحدي بالقرآن كله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) وبعشر سور (فأتوا بعشر سور مثله) وبسورة واحدة (فأتوا بسورة مثله) وبحديث مثله (فليأتوا بحديث مثله) .

ونحن لا نرى الإعجاز في قدر معين لأننا نجد في أصوات حروفه ووقع كلماته ، كما نجد في الآية والسورة ، فالقرآن كلام الله وكفى .

وأيا كان وجه الإعجاز ، أو القدر المعجز . فإن الباحث المتصف الذي يطلب الحق إذا نظر في القرآن من أي النواحي أحب : من ناحية أسلوبه ، أو من ناحية علومه ، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغير به وجه التاريخ ، أو من تلك النواحي مجتمعة ، وجد الإعجاز واضحا جليا . ويجدر بنا أن نأتي بكلمة في هذه النواحي الثلاثة من الإعجاز القرآني : ناحية الإعجاز اللغوي ، وناحية الإعجاز العلمي ، وناحية الإعجاز التشريعي .

الإعجاز اللغوي

لقد مارس أهل العربية فنونها منذ نشأت لغتهم حتى شبت وترعرت ، وأصبحت في عنفوان شبابها عملاقا معطاء ، واستظهروا شعرها ونثرها . وحكمها وأمثالها ، وطاوعهم البيان في أساليب ساحرة ، حقيقية ومجازا ، إيجازا وإطنابا ، حديثا ومقالا ، وكلما ارتفعت اللغة وتسامت ، وقفت على أعتاب لغة القرآن في إعجازه اللغوي كسيرة صاغرة ، تنحني أمام أسلوبه لإجلالا وخشية ، وما عهد تاريخ العربية حقبة من أحقاب التاريخ . ازدهرت فيها اللغة إلا وتطامن أعلامها وأساتذتها أمام البيان القرآني اعترافا بسموه ، وإدراكا لأسراره ، ولا عجب «فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه ، لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعانا لعظمتها ، وثقة بالعجز عنها ، ولا كذلك صناعات الخلق ، فإن فضل العلم بها يمتدك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها ، ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون» ^(١)

والذين تملكهم الغرور ، وأصابتهم لومة الإعجاب بالنفس ، وحاولوا التناول على أسلوب القرآن ، حاكوه بكلام فارغ . أشبه بالسخف والتفاهة والهذيان والعبث ، وارتدوا على أعقابهم خاسرين ، كالمتهبئين وأشباه المتهبئين ، من الدجالين والمغرورين .

(١) النبأ العظيم ، صفحة ٨١ .

وقد شهد التاريخ فرسانا للعربية خاضوا غمارها وأحرزوا قصب السبق فيها ، فما استطاع أحد منهم أن تحدّثه نفسه بمعارضة القرآن . إلا بآء بالخزي والهوان ، بل إن التاريخ سجل هذا العجز على اللغة ، في أزهى عصورها ، وأرقى أدوارها ، حين نزل هذا القرآن ، وقد بلغت العربية أشدها ، وتوافرت لها عناصر الكمال والتهذيب في المجامع العربية وأسواقها ، ووقف القرآن من أصحاب هذه اللغة موقف التحدي . في صور شتى ، منتزلا معهم إلى الأخف من عشر سور إلى سورة إلى حديث مثله ، فما استطاع أحد أن يباريه أو يحاربه منهم ، وهم أهل الأنفة والعزة والإباء . ولو وجدوا قدرة على محاكاة شيء منه ، أو وجدوا ثغرة فيه . لما ركبوا المركب الصعب أمام هذا التحدي ، بإشهار السيوف ، بعد أن عجز البيان ، وتحطمت الأقلام .

وتتابعت القرون لدى أهل العربية ، وظل الإعجاز القرآني اللغوي راسخا كالطود الشامخ . تذلل أمامه الأعناق خاضعة . لا تفكر في أن تدانيه ، فضلا عن أن تساميه ، لأنها أشد عجزا واقل طمعا في هذا المطلب العزيز . وسيظل الأمر كذلك إلى يوم الدين .

ولا يستطيع أحد أن يدعي عدم الحاجة إلى معارضة القرآن ، وإن كان ذلك ممكنا ، فإن التاريخ يشهد بأنه قد توافرت الدواعي الملحة لدى القوم لمعارضة القرآن ، حيث وقفوا من الرسالة وصاحبها موقف الجحود والنكران ، واستنار القرآن حميتهم . وسفه أحلامهم ، وتحداهم تحديا سافرا يثير حفيظة الجبان الرعديد مع ما كانوا عليه من أنفة وعزة . فسلكوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم مسالك شتى ، ساوموه بالمال والملك ليكف عن دعوته ، وقاطعوه ومن معه حتى يموتوا جوعا . واتهموه بالسحر والجنون ، وتآمروا على حبسه ، أو قتله أو إخراجة . وقد دهم على الطريق الوحيد لإسكاته وهو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به ، « ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره في يدهم ؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب ، وكان القتل والأسر واللفة والذل وكل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذي دهم عليه ، فأى شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز ؟ »

والقرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم . ألفاظاً وحروفاً ، تركيباً وأسلوباً ، ولكنه في اتساق حروفه ، وطلاوة عبارته ، وحلاوة أسلوبه ، وجرس آياته ، ومراعاة مقتضيات الحال في ألوان البيان ، في الجمل الإسمية والفعلية .. وفي النفي والإثبات ، وفي الذكر والحذف ، وفي التعريف والتشكيك ، وفي التقديم والتأخير ، وفي الحقيقة والمجاز ، وفي الاطناب والإيجاز . وفي العموم والخصوص ، وفي الإطلاق والتقييد ، وفي النص والفحوى .. وهلم جرا - ولكن القرآن في هذا ونظائره بلغ الذروة التي تعجز أمامها القدرة اللغوية لدى البشر .

عن ابن عباس : « أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن ، فكانه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأثاه فقال له : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبلكه . قال : قد علمت قريش أنني من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلو ، وإنه ليعظم ما تحته ، قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره ، فنزلت (ذرني ومن خلقت وحيداً ١١ - المدثر) ^(١) »

وحيثما قلب الإنسان نظره في القرآن وجد أسراراً من الإعجاز اللغوي .

يجد ذلك في نظامه الصوتي البديع بجرس حروفه . حين يسمع حركاتها وسكناتها ، ومداتها وغنائها ، وفواصلها ومقاطعها ، فلا تمل أذنه السماع ، بل لا تغتأ تطلب منه المزيد .

ويجد ذلك في ألفاظه التي تفي بحق كل معنى في موضعه ، لا ينبو منها لفظ

(١) أخرجه الحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل .

يقال إنه زائد ، ولا يعثر الباحث على موضع يقول إنه يحتاج إلى إثبات لفظ ناقص .

ويجد ذلك في ضروب الخطاب التي يتقارب فيها أصناف الناس في الفهم بما تطبقه عقولهم ، فبإزاها كل واحد منهم مقدرة على مقياس عقله ووفق حاجته ، من العامة والخاصة (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ١٧ - القمر)

ويجد ذلك في إقناع العقل وإمتاع العاطفة ، بما يفي بحاجة النفس البشرية تفكيراً ووجداناً في تكافؤ واتزان ، فلا تطنى قوة التفكير على قوة الوجدان ، ولا قوة الوجدان على قوة التفكير .

وهكذا حيثما قلب النظر قامت أمامه حجة القرآن في التحدي والإعجاز (١) .

قال القاضي أبو بكر الباقلاني : « والذي يشتمل عليه بديع نظم المتضمن للإعجاز وجوه : منها ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالاً فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلاً في وزنه ، وذلك شبيهة بجملة الكلام الذي لا يتعمل يتصنع له ، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق ، فليس من باب السجع ، وليس من قبيل الشعر ، وتبين بخروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة . وأنه معجز ، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن ، وتميز حاصل في جميعه ... »

(١) راجع الإعجاز اللغوي في « النبأ العظيم » بتوسع .

وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع ، والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والشبابة في البراعة على هذا الطول — وعلى هذا القدر ، وإنما تنسب إلى حكمهم كلمات معدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف ، والتكلف والتعسف ، وقد جاء القرآن على كثرتة وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله عز من قائل : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ٢٣ — الزمر) (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ٨٢ — النساء) فأخبر أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبأن عليه الاختلال .

وعجيب نظم القرآن وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها — من ذكر قصص ومواعظ ، واحتجاج وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المقلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور ، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح ، ومنهم من يسبق في التفريط دون التأبين ، ومنهم من يقرب في وصف الإبل والحيل ، أو سير الليل ، أو وصف الحرب ، أو وصف الروض ، أو وصف الخمر ، أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام . ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب ، والنابعة إذا رهب ، وبزهير إذا رغب ، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام ...

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم ، وبديع التأليف والوصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا .. فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر ..^(١)

(١) إعجاز القرآن بتصرف .

الإعجاز العلمي

يخطئ كثير من الناس حين يحرصون على أن يتضمن القرآن الكريم كل نظرية علمية ، وكلما ظهرت نظرية جديدة التمسوا لها محملاً في آية يتأولونها بما يوافق هذه النظرية .

ومنشأ الخطأ في هذا أن العلوم تتجدد نظرياتها مع الزمن تبعاً لسنة التقدم ، فلا تزال في نقص دائم يكتنفه الغموض أحياناً ، والخطأ أحياناً أخرى ، وتستمر هكذا حتى تقترب من الصواب ، وتصل إلى درجة اليقين ، وأي نظرية منها تبدأ بالحدس والتخمين وتخضع للتجربة حتى يثبت يقينها ، أو يتضح زيفها وخطؤها ، ولهذا كانت عرضة للتبديل ، وكثير من القواعد العلمية التي ظن الناس أنها أصبحت من المسلمات تتزعزع بعد ثبوت ، وتنقوض بعد رسوخ ، ثم يستأنف الباحثون تجاربهم فيها مرة أخرى .

والذين يفسرون القرآن الكريم بما يطابق مسائل العلم ، ويحرصون على أن يستخرجوا منه كل مسألة تظهر في أفق الحياة العلمية ، يسيئون إلى القرآن من حيث يظنون أنهم يحسنون صنعا ، لأن هذه المسائل التي تخضع لسنة التقدم تتبدل ، وقد تنقوض من أساسها وتبطل ، فإذا فسرنا القرآن بها تعرضنا في تفسيره للنقائص كلما تبدلت القواعد العلمية ، أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم ، أو يقين يبطل التخمين .

والقرآن الكريم كتاب عقيدة وهداية ، يخاطب الضمير فيجبي فيه عوامل النمو والارتقاء ، وبواعث الخير والفضيلة .

وإعجازه العلمي ليس في اشتماله على النظريات العلمية التي تتجدد وتتبدل وتكون ثمرة للجهد البشري في البحث والنظر ، وإنما في حثه على التفكير ، فهو يحث الإنسان على النظر في الكون وتدبره ، ولا يشل حركة العقل في تفكيره ، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وليس ثمة كتاب من كتب الأديان السابقة يكفل هذا بمثل ما يكفله القرآن .

فأي مسألة من مسائل العلم ، أو قاعدة من قواعده ، يثبت رسوخها ، ويتبين يقينها ، تكون محققة لما حث عليه القرآن من تفكير سليم ، ولا تتعارض معه بحال من الأحوال ، وقد تقدمت العلوم وكثرت مسائلها ولم يتعارض شيء ثابت منها مع آية من آيات القرآن ، وهذا وحده إعجاز .

والقرآن الكريم يجعل التفكير السديد والنظر الصائب في الكون وما فيه أعظم وسيلة من وسائل الإيمان بالله .

إنه يحث المسلم على التفكير في مخلوقات الله في السماء والأرض . (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقلنا عذاب النار . ١٩٠ ، ١٩١ - آل عمران)

ويحثه على التفكير في نفسه ، وفي الأرض التي يعمرها ، وفي الطبيعة التي تحيط به (أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ٨ - الروم)

(وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ٢٠ ، ٢١ - الذاريات)

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ وإلى السماء كيف رفعت ؟ وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ؟ ١٧ - ٢٠ - الغاشية)

ويثير فيه الحس العلمي للتفكير والفهم والتعقل .

(كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تفكرون ٢١٩ - البقرة)

(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ٢١ - الحشر)

(كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ٢٤ - يونس)

(إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ٣ - الرعد)

(كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون ٣٢ - الأعراف)

(قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ٩٧ - الأنعام)

(انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ٦٥ - الأنعام)

(قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ٩٨ - الأنعام)

ويرفع القرآن مكانة المسلم بفضيلة العلم .

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ١١ - المجادلة)

ولا يسوي بين عالم وجاهل .

(قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ٩ - الزمر) ويأمر المسلم أن

يسأل ربه نعمة العلم .

(قل رب زدني علماً ١١٤ - طه)

ويجمع الله علوم الفلك والنبات وطبقات الأرض والحيوان ويجعل ذلك من بواعث خشيته (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ٢٧ - ٢٨ - فاطر)

وهكذا فإن إعجاز القرآن العلمي في أنه يحث المسلمين على التفكير . ويفتح لهم أبواب المعرفة ، ويدعوهم إلى ولوجها ، والتقدم فيها ، وقبول كل جديد راسخ من العلوم .

وفي القرآن مع هذا إشارات علمية سبقت مساق الهداية . فالتلقيح في النبات . ذاتي وخلطي : والذاتي : ما اشتملت زهرته على عضوي التذكير والتأنيث ، والخلطي : هو ما كان عضو التذكير فيه منفصلاً عن عضو التأنيث كالنخيل ، فيكون التلقيح بالنقل . ومن وسائل ذلك الرياح ، وجاء في هذا قول الله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح ٢٢ - الحجر)

« والأوكسجين » ضروري لتنفس الإنسان ، ويقل في طبقات الجو العليا ، فكلما ارتفع الإنسان في أجواء السماء أحس بضيق الصدر وصعوبة التنفس ، والله تعالى يقول (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ١٢٥ - الأنعام)

وقد ساد الاعتقاد بأن الذرة هي الجزء الذي لا يقبل التجزئة : وفي القرآن (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ٦١ - يونس) ولا أصغر من الذرة سوى تحطيم الذرة .

وفي علم الأجنة جاء قوله تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ٥-٧ - الطارق) وقوله (خلق الإنسان من علق ٢ - العلق) وقوله (يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ٥ - الحج) .

وفي وحدة الكون وحاجة الحياة إلى عنصر الماء يقول تعالى (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ؟ ٣٠ - الأنبياء)

تلك الإشارات العلمية ونظائرها في القرآن جاءت في سياق الهداية الإلهية ، وللعقل البشري أن يبحث فيها ويتدبر .

يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى (يسألونك عن الأهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج ١٨٩ - البقرة) : « اتجه الجواب إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظري ، وحدشهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم ولم يحدشهم عن الدورة الفلكية للقمر ، وكيف تتم ؟ وهي داخلة في مدلول السؤال ... إن القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية ، ولم يحجى ليكون كتاب علمي فلكي ، أو كيماوي أو طبي .. كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم ، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلتمسوا مخالقاته لهذه العلوم .

إن كلنا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله . إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية ، وإن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه ، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته ومن بينها طاقته العقلية ، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها لتعمل — بالبحث العلمي — في الحدود المتاحة للإنسان ، وبالتجريب والتطبيق ، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ، ليست نهائية ولا مطلقة . بطبيعة الحال

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه ، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه ، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها .. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه ...

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة .. أما ما يصل إليه البحث الإنساني — أيا كانت الأدوات المتاحة له — فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة ، وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها ، فمن الخطأ المنهجي — بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته — أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية ، وهي كل ما يصل إليه العلم البشري .

هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية ، والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات الفروض التي تسمى «علمية» ... فهي قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة ، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب ، بظهور أداة كشف جديدة ، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة .

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة — أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا — تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي ، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة ، كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم .

الأولى : هي المزمجة الداخلية التي تخيل لبعض الناس ، أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع ، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم ، أو الاستدلال له من العلم ، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ، ونهائي في حقائقه ، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبتته بالأمس ، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق ، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته ، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة .

والثانية : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته . وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق - بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية - مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي ، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله ، بل يصادفه ويعرف بعض أسرارهِ ، ويستخدم بعض نواميسهِ من خلافته ، نواميسهِ التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق ، وفق ما يهديهِ إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة .

والثالثة : هي التأويل المستمر - مع التمثل والتكلف - لنصوص القرآن كي نحملها ونلث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر ، وكل يوم يجد فيها جديد ^(١) .

الإعجاز التشريعي

أودع الله في الإنسان كثيراً من الغرائز التي تعمل في النفس وتؤثر عليها في اتجاهات الحياة ، ولئن كان العقل الرشيد يعصم صاحبه من الزلل فإن النزعات النفسية المنحرفة تطغي على سلطان العقل ، ولا يستطيع العقل أن يكبح جماحها في كل حال . لهذا كان لا بد لاستقامة الإنسان من تربية خاصة لغرائزه ، تهذيبها وتنميتها ، وتقودها إلى الخير والفلاح .

(١) اقتبسنا هذه الفقرات من كتاب « في ظلال القرآن » بتصرف .

والإنسان مدني بالطبع ، فهو في حاجة إلى غيره ، وغيره في حاجة إليه ، وتعاون الإنسان مع أخيه الإنسان ضرورة اجتماعية يفرضها العمران البشري . وكثيراً ما يظلم الإنسان أخاه بدافع الأثرة وحب السيطرة ، فلو ترك أمر الناس دون ضابط يحدد علاقاتهم ، وينظم أحوال معاشهم ، ويصون حقوقهم . ويحفظ حرمانهم لصار أمرهم فوضى ، ولذا كان لا بد لأي مجتمع بشري من نظام يحكم زمامه ، ويحقق العدل بين أفراداه .

وبين تربية الفرد وصلاح الجماعة . وشائج قوية لا تنفصم عراها ، فإن هذا يقوم على تلك ، فصالح الفرد من صلاح الجماعة ، وصلاح الجماعة بصالح الفرد .

وقد عرفت البشرية في عصور التاريخ ألواناً مختلفة من المذاهب والنظريات والنظم والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمع فاضل ، ولكن واحداً منها لم يبلغ من الروعة ، والإجلال مبلغ القرآن في إعجازه التشريعي . إن القرآن يبدأ بتربية الفرد ، لأنه لبنة المجتمع وقيم تربيته على تحرير وجدانه ، وتحمله التبعة .

يحرر القرآن وجدان المسلم بعقيدة التوحيد الذي تخلصه من سلطان الخرافة والوهم ، وتفك أسرهِ من عبودية الأهواء والشهوات ، حتى يكون عبداً خالصاً لله ، يتجرد للإله الخالق المعبود ، ويستعلي بنفسه عما سواه ، فلا حاجة للمخلوق إلا لدى خالقه ، الذي له الكمال المطلق . ومنه يمنح الخير للخلائق كلها . إنه خالق واحد وإله واحد . لا أول له ولا آخر ، قدير على كل شيء ، عليم بكل شيء . محيط بكل شيء ، وليس كمثل شيء .

عالم مخلوق خلقه الله ، ويرجع إلى الله ، ويفنى كما يوجد بمشيئة الله ، وهذه أكمل عقيدة في العقل وأكمل عقيدة في الدين .

(قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد)

(هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ٣ - الحديد)

- (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ٨٨ - القصص)
- (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ١٠٢ - الأنعام)
- (وكان الله على كل شيء قديراً ٢٧ - الأحزاب)
- (والله بصير بما يعملون ٩٦ - البقرة)
- (ألا إنه بكل شيء محيط ٥٤ - فصلت)
- (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ١١ - الشورى)
- (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ١٠٥ - الأنعام) . ويؤكد القرآن الكريم وحدانية الله بالحجج القاطعة التي تقوم على المنطق العقلي السليم . فلا تقبل الجدال والمراء
- (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ٢٢ - الأنبياء)
- (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سيلا ٤٢ - الإسراء)

وإذا صحت عقيدة المسلم كان عليه أن يأخذ بشرائع القرآن في الفرائض والعبادات ، وكل عبادة مفروضة يراد بها صلاح الفرد ولكنها مع ذلك ذات علاقة بصلاح الجماعة .

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والجماعة واجبة على الرأي الراجح إلا لعذر ، وهي شرط في الجمعة والعيد ، والذي يصلي منفرداً لا يغيب عن شعوره آصرة القربى بينه وبين الجماعة الإسلامية في أقطار الأرض ، من شمال إلى جنوب ، ومن مشرق إلى مغرب ، لأنه يعلم أنه في تلك اللحظة يتجه وجهة واحدة مع كل مسلم على ظهر الأرض ، يؤدي فريضة الصلاة ، ويستقبل معه قبلة واحدة ، ويدعو بدعاء واحد ، وإن تباعدت بينهم الديار .

وحسب المسلم في تربيته أن يقف بين يدي الله خمس مرات في اليوم الواحد

لتمتزج حياته بشرع الله ، ويتمثل الوازع الأعلى نضرب عينيه ما بين كل صلاة وصلاة (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ٤٥ - العنكبوت)

والزكاة تقتلع من النفس جذور الشح ، وعبادة المال ، والحرص على الدنيا ، وهي مصلحة للجماعة . فتقيم دعائم التعاون بين المجدودين والمحرومين ، وتشعر النفس بتكافل الجماعة شعورا يخرجها من ضيق الأثرة والإنفراد .

والحج سياحة تروض النفس على المشقة ، وتفتح بصيرتها على أسرار الله في خلقه ، وهو مؤتمر عالمي يجتمع فيه المسلمون على صعيد واحد ، فيتعارفون ويتشاورون .

والصيام ضبط للنفس ، وشحن لعزيمتها ، وتقوية للإرادة ، وحبس للشهوات ، وهو مظهر اجتماعي يعيش فيه المسلمون شهرا كاملا على نظام واحد في طعامهم . كما تعيش الأسرة في البيت الواحد .

والقيام بهذه العبادات المفروضة يربي المسلم على الشعور بالتبعية الفردية التي يقرها القرآن وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين ، وكل فضيلة من فضائل الأخلاق .

(كل نفس بما كسبت رهينة ٣٨ - المدثر)

(كل امرئ بما كسب رهين ٢١ - الطور)

(لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ٢٨٦ - البقرة)

وحض القرآن على الفضائل المثلى التي تروض النفس على الوازع الديني ، كالصبر والصدق والعدل والإحسان والحلم والعفو والتواضع ..

ومن تربية الفرد ينتقل الإسلام إلى بناء الأسرة ، لأنها نواة المجتمع ، فشرع القرآن الزواج استجابة لغريزة الجنس وإبقاء على النوع الإنساني في تناسل طاهر نظيف .

ويقوم رباط الأسرة في الزواج على الود والرحمة والسكن النفسي والعشرة بالمعروف ، ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة ، والوظيفة الملائمة لكل منهما .
(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ٢١ - الروم)

(وعاشروهن بالمعروف ١٩ - النساء)

(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ٣٣ - النساء)

ثم يأتي نظام الحكم الذي يسود المجتمع المسلم ، وقد قرر القرآن قواعد الحكومة الإسلامية في أصلح أوضاعها .

فهي حكومة الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية .

(وشاورهم في الأمر ١٥٩ - آل عمران)

(وأمرهم شورى بينهم ٣٨ - الشورى)

(إنما المؤمنون إخوة ١٠ - الحجرات)

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ٦٤ - آل عمران) .

وهي حكومة تقوم على العدل المطلق الذي لا يتأثر بحب الذات ، أو عاطفة القرابة ، أو العوامل الاجتماعية في الغنى والفقير .

(يأياها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ١٣٥ - النساء)

كما لا تؤثر في هذا العدل شهوة الانتقام من الأعداء المبعوضين (يأياها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا

هو أقرب للتقوى ٨ - المائدة)
(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن
تحكموا بالعدل ٥٨ - النساء)
والتشريع في الحكومة الإسلامية ليس متروكا للناس ، فقد قرره القرآن ،
والخروج عنه كفر وظلم وفسق .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ٤٤ - المائدة)
(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ٤٥ - المائدة)
(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ٤٧ - المائدة)
(أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ٥٠ - المائدة)
وقرر القرآن صيانة الكليات الخمسة الضرورية للحياة الإنسانية : النفس ،
والدين ، والعرض ، والمال ، والعقل ورتب عليها العقوبات المنصوصة ، التي تعرف
في الفقه الإسلامي بالحنائيات والحدود .

(ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ١٧٩ - البقرة)
(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ٢ - النور)
(والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ٤
- النور)

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ٣٨ - المائدة) .
وقرر القرآن العلاقات الدولية في الحرب والسلام بين المسلمين وجيرانهم أو
معاهدهم ، وهي أرفع معاملة عرفت في عصور الحضارة الإنسانية .
وخلاصة القول أن القرآن دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية على
أفضل صورة وأرقى مثال ، وسيظل إعجازه التشريعي قريناً لإعجازه العلمي وإعجازه
اللغوي إلى الأبد . ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث في العالم أثراً غير وجه
التاريخ .

أمثال القرآن

الحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب حسن يقربها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقيني ، والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان ، بتشبيه الغائب بالحاضر ، والمعقول بالمحسوس . وقياس النظير على النظير ، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالا ، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له ، واقتناع العقل به ، وهو من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه .

ومن العلماء من أفرد الأمثال في القرآن بالتأليف ، ومنهم من عقد لها بابا في كتاب من كتبه ، فأفردا بالتأليف أبو الحسن الماوردي ، وعقد لها بابا السيوطي في الإقتان ^(١) وابن القيم في كتاب أعلام الموقعين . حيث تتبع أمثال القرآن التي تضمنت تشبيه الشيء بنظيره ، والتسوية بينهما في الحكم — فبلغت بضعة وأربعين مثالا .

وذكر الله في كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال (وتلك الأمثال يضربها للناس لعلهم يتفكرون ٢١ — الحشر) (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا

(١) أنظر الإقتان ، صفحة ١٣١ ج ٢ .

العالمون ٤٣ - العنكبوت) (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون ٢٧ - الزمر) وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أنزل القرآن أمرا وزاجرا ، وسنة خالية ، ومثلا مضروبا » (١)

وكما عني العلماء بأمثال القرآن فإنهم عنوا كذلك بالأمثال النبوية . وعقد لها أبو عيسى الترمذي بابا في جامعه أورد فيه أربعين حديثا . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : لم أر من أهل الحديث من صنف فأفرد للأمثال بابا غير أبي عيسى ، والله دره ، لقد فتح بابا ، وبني قصرا أو دارا ، ولكنه اختط خطا صغيرا . فنحن نقنع به ، ونشكره عليه »

تعريف المثل

والأمثال : جمع مثل ، والمثَل والمِثْل والمثيل : كالشبه والشبه والشبيه لفظا ومعنى .

والمثل في الأدب : قول محكي سائر يقصد به تشبيه حال الذي حكى فيه بحال الذي قيل لأجله ، أي يشبه مضربه بمورده ، مثل « رب رمية من غير رام » أي رب مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطيء ، وأول من قال هذا الحكم بن يغوث النخري ، يضرب للمخطيء يصيب أحيانا ، وعلى هذا فلا بد له من مورد يشبه مضربه به .

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن ، وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات . كقوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ١٥ - محمد) (٢) : أي قصتها وصفتها التي يتعجب منها .

وأشار الزمخشري إلى هذه المعاني الثلاثة في كشافه فقال : « والمثل في أصل

(١) رواه الترمذي .

(٢) أنظر بلاغة القرآن للأستاذ محمد الخضر حسين صفحة ٢٦ .

كلامهم بمعنى المثل والنظير ، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل ، ولم يضر بوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتسيير ولا جديراً بالتداول والقبول الا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه . ثم قال : وقد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة .

وهناك معنى رابع ذهب إليه علماء البيان في تعريف المثل . فهو عندهم : المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله . وأصله الاستعارة التمثيلية . كقولك للمتردد في فعل أمر : « مالي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى » .

وقيل في ضابط المثل كذلك : إنه إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالاً . والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد ، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً .

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التي يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر ، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة ، أم بطريق التشبيه الصريح ؟ أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز ، أو التي يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه ، فإن الله تعالى ابتدأها دون أن أن يكون لها مورد من قبل .

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو التشبيه والنظير ، ولا يستقيم حملها على ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال ، إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها ، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة وما لم يفش استعماله . ولذا كان الضابط الأخير أليق بتعريف المثل في القرآن : فهو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس ، سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلًا .

قابن العزم يقول في أمثال القرآن : تشبيه شيء بشيء في حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر .

ويسوق الأمثلة : فتجد أكثرها على طريقة التشبيه الصريح كقوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ٢٤ - يونس) ومنها ما يجيء على طريقة التشبيه الضمني ، كقوله تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ١٢ - الحجرات) ! إذ ليس فيه تشبيه صريح. ومنها ما لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة ، كقوله تعالى (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له أن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ٧٣ - الحج) فقوله (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً) قد سماه الله مثلاً وليس فيه استعارة ولا تشبيه .

أنواع الأمثال في القرآن

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع : ١ - الأمثال المصروفة ٢ - والأمثال الكامنة ٣ - والأمثال المرسلة .

النوع الأول : - الأمثال المصروفة : - وهي ما صرح فيها بلفظ المثل ، أو ما يدل على التشبيه . وهي كثيرة في القرآن نورد منها ما يأتي :

أ - قوله تعالى في حق المنافقين (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمي فهم لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق - إلى قوله - إن الله على كل شيء قدير ١٧ - ٢٠ - البقرة) .

ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين : مثلاً نارياً في قوله : (كمثل الذي استوقد ناراً...) لما في النار من مادة النور ، ومثلاً مائياً في قوله : (أو كصيب من السماء...) لما في الماء من مادة الحياة ، وقد نزل الوحي من السماء متضمناً لاستنارة القلوب وحياتها . وذكر الله حظ المنافقين في الحاليين . فهم بمنزلة من استوقد ناراً للإضاءة والنفع حيث انتفعوا مادياً بالدخول في الإسلام ، ولكن لم يكن

له أثر نوري في قلوبهم ، فذهب الله بما في النار من الإضاءة (ذهب الله بنورهم) وأبقى ما فيها من الإحراق ، وهذا مثلهم الناري .

وذكر مثلهم المائي فشبههم بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع إصبعيه في أذنيه وغمض عينيه خوفاً من صاعقة تصيبه ، لأن القرآن يزوجه وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق .

ب - وذكر الله المثليين : المائي والناري - في سورة الرعد للحق والباطل . فقال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ١٧ - الرعد) .

شبه الوحي الذي أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، والسيل إذا جرى في الأودية احتل زبداً وغثاء ، فكذلك الهدى والعلم إذا سرى في القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها ، وهذا هو المثل المائي في قوله (أنزل من السماء ماء ...) وهكذا يضرب الله الحق والباطل .

وذكر المثل الناري في قوله (ومما يوقدون عليه في النار ...) فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سكبها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيذهب جفاء . فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويحفظها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث .

النوع الثاني من الأمثال : الأمثال الكامنة - وهي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ، ولكنها تدل على معان رائعة في إيجاز ، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها ، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها :

١ - ما في معنى قولهم (خير الأمور الوسط) .

أ - قوله تعالى في البقرة (لا فارض ولا بكر عوان بسين ذلك ٦٨ - البقرة) .

ب - قوله تعالى في النفقة (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ٦٧ - الفرقان) .

ج - قوله تعالى في الصلاة (ولا تجهروا بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ١١٠ - الإسراء) .

د - قوله تعالى في الإنفاق (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ٢٩ - الإسراء) .

٢ - ما في معنى قولهم (ليس الخبر كالمعاينة) .

قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام (قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ٢٦٠ - البقرة)

٣ - ما في معنى قولهم (كما تدين تدان) .

قوله تعالى (من يعمل سوءاً يجز به ١٢٣ - النساء)

٤ - ما في معنى (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) .

قوله تعالى على لسان يعقوب (قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ٦٤ - يوسف) .

النوع الثالث : الأمثال المرسلة في القرآن : وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه . فهي آيات جارية مجرى الأمثال .

ومن أمثلة ذلك ما يأتي :

١ - (الآن حصحص الحق ٥١ - يوسف) ٢ - (ليس لها من دون الله كاشفة ٥٨ - النجم) ٣ - (قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ٤١ - يوسف)

- ٤ - أليس الصبح بقريب ٥٨ - هود) ٥ - (لكل نبأ مستقر ٦٧ - الأنعام)
 ٦ - (ولا يحيق المكر السوء إلا بأهله ٤٣ - فاطر) ٧ - (قل كل يعمل على شاكلته ٨٤ - الإسراء) ٨ - (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ٢ - البقرة)
 ٩ - (كل نفس بما كسبت رهينة ٣٨ - المدثر) ١٠ - (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ٦٠ - الرحمن) ١١ - (كل حزب بما لديهم فرحون ٥٣ - المؤمنون) ١٢ - (ضعف الطالب والمطلوب ٧٣ - الحج) ١٣ - (لمثل هذا فليعمل العاملون ٦١ - الصافات) ١٤ - (لا يستوي الخبيث والطيب ١٠٠ - المائدة) ١٥ - (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ٢٤٩ - البقرة)
 ١٦ - (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ١٤ - الحشر) .

واختلفوا في هذا النوع من الآيات الذي يسمونه لإرسال المثل ، ما حكم استعماله استعمال الأمثال ؟

فراه بعض أهل العلم خروجاً عن أدب القرآن ، قال الرازي في تفسير قوله تعالى (لكم دينكم ولي دين) « جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند التاركة ، وذلك غير جائز ، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليمثل به ، بل يتدبر فيه ، ثم يعمل بموجبه » .

ورأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجدل ، كأن يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول : (ليس لها من دون الله كاشفة) أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواؤه إلى باطله فيقول (لكم دينكم ولي دين) والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح ^(١) .

قوائد الأمثال

١ - الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس ، فيقبله

(١) بلاغة القرآن صفحة ٢٣ .

العقل لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم ، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق رياء ، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب ، فقال تعالى (فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا ٢٦٤ - البقرة) .

٢ - وتكشف الأمثال عن الحقائق ، وتعرض الغائب في معرض الحاضر ، كقوله تعالى (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ٢٧٥ - البقرة) .

٣ - وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلة في الآيات الآتية الذكر .

٤ - ويضرب المثل للتغيب في الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس ، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير ، فقال تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ٢٦١ - البقرة)

٥ - ويضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس ، كقوله تعالى في النهي عن الغيبة (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ١٢ - الحجرات) .

٦ - ويضرب المثل للمدح الممثل كقوله تعالى في الصحابة (ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ٢٩ - الفتح) وكذلك حال الصحابة فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلاً ، ثم أخذوا في النمو حتى استحكم أمرهم . وامتلأت القلوب إعجاباً بعظمتهم .

٧ - ويضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس ، كما ضرب

الله مثلاً لحال من آناه الله كتابه ، فتنكب الطريق عن العمل به ، وانحط في أهوائه ، فقال تعالى (واتل عليهم نبأ الذي أتينا آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ١٧٤ ، ١٧٥ - الأعراف)

٨ - والأمثال أوقع في النفس ، وأبلغ في الوعظ ، وأقوى في الزجر ، وأقوم في الإقناع ، وقد أكثر الله تعالى الأمثال في القرآن للتذكير والعبرة ، قال تعالى : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون ٢٧ - الزمر) وقال : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ٤٣ - العنكبوت) وضربها النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه ، واستعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة ، ويستعين بها المربون ، ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق ، ووسائل التربية في الترغيب أو التنفير ، في المدح أو الذم .

أقسام القرآن

يختلف الاستعداد النفسي عند الفرد في تقبله للحق وانقياده لنوره ، فالنفس الصافية التي لم تتدنس فطرتها بالرجس تستجيب للهدى ، وتفتح قلبها لإشعاعه ، ويكفيها في الانصباع إليه اللمحة والإشارة . أما النفس التي رانت عليها سحابة الجهل ، وغشيتها ظلمة الباطل فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر ، وصيغ التأكيد ، حتى يتزعزع نكيرها . والقسم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخللها البرهان المفحم ، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يحدد .

تعريف القسم وصيغته

والأقسام : جمع قَسَمَ : بفتح السين ، بمعنى الحلف واليمين ، والصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل أقسم أو أخلف متعدياً بالباء إلى المقسم به . ثم يأتي المقسم عليه ، وهو المسمى بجواب القسم ، كقوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ٣٨ - النحل) فأجزاء صيغة القسم ثلاثة : ١ - الفعل الذي يتعدى بالباء ٢ - والمقسم به ٣ - والمقسم عليه .

(١) أفرد هذا الفصل بالبحث العلامة ابن القيم في كتابه « أقسام القرآن » ، المسمى بالبيان وهو كتاب فريد في بابه اختصرنا منه هذا المبحث .

ولما كان القسم يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفي بالباء (١) ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى (والليل إذا يغشى ١ - الليل) وبالتالي في لفظ الجلالة كقوله (وتالله لأكيذن أصنامكم ٥٧ - الأنبياء) وهذا قليل ، أما الواو فكثيرة .

والقسم واليمين واحد : ويعرف بأنه : ربط النفس ، بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه ، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً ، وسمى الحلف عيناً لان العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف .

فائدة القسم في القرآن

تتماز اللغة العربية بدقة التعبير واختلاف الأساليب بتنوع الأغراض ، وللمخاطب حالات مختلفة ، هي المسماة في المعاني بأضرب الخبر الثلاثة : الابتدائي ، والطلبي ، والإنكاري .

فقد يكون المخاطب خالي الذهن من الحكم فيلقى اليه الكلام غفلاً من التأكيد ، ويسمى هذا الضرب ابتدائياً .

وقد يكون متردداً في ثبوت الحكم وعدمه ، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده ، ويسمى هذا الضرب طلبياً .

وقد يكون منكراً للحكم ، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفاً ، ويسمى هذا الضرب إنكارياً .

والقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه ، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة ، ووقف الناس منه مواقف متباينة ، فمنهم الشاك ، ومنهم المنكر ، ومنهم الخصم الألد . فالقسم في كلام الله يزيل الشكوك ، ويحبط الشبهات ، ويقيم الحجة ، ويؤكد الاخبار ، ويقرر الحكم في أكمل صورة .

(١) والباء لم ترد في القرآن إلا مع فعل القسم ، كقوله تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم ٥٣ - النور) .

المقسم به في القرآن

يقسم الله تعالى بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته ، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته . وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع :

١ - في قوله (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعن ٧- التغابن)
٢ - وقوله (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ٣- سبأ)
٣ - وقوله (ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه الحق ٥٣- يونس)
وفي هذه الثلاثة أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم به

٤ - وقوله (فوربك لنحشرنهم والشياطين ٦٨- مريم)
٥ - وقوله (فوربك لنسألهم أجمعين ٩٢- الحجر)
٦ - وقوله (فلأوربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ٦٥- النساء)
٧ - وقوله (فلا أقسم برب المشارق والمغارب ٤٠- المعارج) .

وسائر القسم في القرآن بمخلوقاته سبحانه ، كقوله (والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها .. أول سورة الشمس) ، وقوله (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر إلا الأنثى ١ : ٣ - الليل) وقوله (والفجر وليال عشر ١ ، ٢ - الفجر) وقوله (فلا أقسم بالخنس ١٥ - التكوير) وقوله (والتين والزيتون وطور سنين ١ ، ٢ - التين) وهذا هو الكثير في القرآن .

ولله أن يحلف بما شاء ، أما حلف العباد بغير الله فهو ضرب من الشرك ، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك ^(١) . » وإنما أقسم الله بمخلوقاته لأنها تدل على بارئها ، وهو الله تعالى ، وللاشارة إلى فضيلتها ومنفعتيها ليعتبر الناس بها . وعن الحسن قال : « إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله » ^(٢) .

(١) رواه الترمذي وحسنه ، وصححه الحاكم .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .

أنواع القسم

القسم إما ظاهر ، وإما مضمّر .

١ - فالظاهر : - هو ما صرح فيه بفعل القسم ، وصرح فيه بالمقسم به ، ومنه ما حذف فيه فعل القسم كما هو الغالب اكتفاءً بالجار من الباء أو الواو أو التاء ، وقد أدخلت (لا) النافية على فعل القسم في بعض المواضع . كقوله تعالى (لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ١ ، ٢ - القيامة) فقليل : لا في الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام ، والتقدير مثلاً : لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب ، ثم استأنف فقال : أقسم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوامة ، إنكم ستبعثون ، وقيل : لا . لنفي القسم كأنه قال : لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكني أسألك غير مقسم ، أتخسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت ؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم - وقيل : لا . زائدة - وجواب القسم في الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد : أبحسب الإنسان . الخ ، والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

٢ - والقسم المضمّر : هو ما لم يصرح فيه بفعل القسم ولا بالمقسم به ، وإنما تدل عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم كقوله تعالى (لتبطلن في أموالكم وأنفسكم ١٨٩ - آل عمران) .

أحوال المقسم عليه

١ - المقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه ، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك ، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها .

٢ - وجواب القسم يذكر تارة - وهو الغالب - وتارة يحذف ، كما يحذف جواب لو كثيراً ، كقوله (كلا لو تعلمون علم اليقين ٥ - التكاثر) وحذف مثل هذا من أحسن الأساليب ، لأنه يدل على التفضيم والتعظيم ، فالتقدير مثلاً :

لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين لفعلتم ما لا يوصف من الخير ،
فحذف جواب القسم كقوله (والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل
إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر ١ : ٦ - الفجر) فالمراد بالقسم أن
الزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب عز وجل به . فلا يحتاج
إلى جواب ، وقيل : الجواب محذوف ، أي : لتعذبين يا كفار مكة ، وقيل :
مذكور ، وهو قوله (إن ربك لبالمرصاد ١٤ - الفجر) والصحيح المناسب
أنه لا يحتاج إلى جواب .

وقد يحذف الجواب للدلالة المذكور عليه ، كقوله تعالى (لا أقسم بيوم
القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة) فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد
(أيجسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ... الخ) والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

٣ - والماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للقسم
تلزمه اللام وقد ، ولا يجوز الاختصار على إحداهما إلا عند طول الكلام . كقوله
تعالى (والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا
يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها فألهمها
فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها ١ : ٨ - الشمس) فجواب القسم (قد
أفلح من زكاها) حذفته منه اللام لطول الكلام .

ولذلك قالوا في قوله تعالى (والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد
ومشهد ، قتل أصحاب الأخدود ١ : ٤ - البروج) : إن الأحسن أن يكون
هذا القسم مستغنياً عن الجواب ، لأن القصد التنبيه على المقسم به ، وأنه من آيات
الرب العظيمة ، وقيل الجواب محذوف دل عليه (قتل أصحاب الأخدود) أي
أنهم ملعونون ، يعني كفار مكة كما لعن أصحاب الأخدود ، وقيل حذف
صدره ، وتقديره : لقد قتل لأن الفعل الماضي إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام
وقد ، ولا يجوز الاختصار على إحداهما إلا عند طول الكلام ، كما سبق في قوله
تعالى (والشمس وضحاها ... قد أفلح من زكاها) .

٤ - ويقسم الله على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها فتارة يقسم على التوحيد كقوله (والصفات صفاً ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً ، إن إلهكم لواحد ١ : ٤ - الصفات) .

وتارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم ٧٥ : ٧٧ - الواقعة) .

وتارة على أن الرسول حق كقوله (يس والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ١ : ٣ - يس) .

وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، كقوله (والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمراً ، إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ١ : ٦ - الذاريات) .

وتارة على حال الإنسان ، كقوله (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى ١ : ٤ - الليل) .
والمتبع لأقسام القرآن يستخلص الفنون الكثيرة .

٥ - والقسم إما على جملة خبرية - وهو الغالب - كقوله تعالى (فوبر السماء والأرض إنه لحق ٢٣ - الذاريات) ، وإما على جملة طلبية في المعنى كقوله تعالى (فوبرك لنسألكم أجمعين ، عما كانوا يعملون ٩٢ ، ٩٣ - الحجر) لأن المراد التهديد والوعيد .

- ٢٠ -

جدل القرآن

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان وتنطق بها شواهد الكون ولا يحتاج إلى برهان على ثبوتها ، أو دليل على صحتها . ولكن المكابرة كثيراً ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق بشبه تلبسها لباس الحق ، وتزيينها في مرآة العقل ، فهي في حاجة إلى مقارعتها بالحجة ، واستدراجها إلى ما يلزمها بالاعتراف آمنت أو كفرت . والقرآن الكريم - وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة - وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله . فألجم خصومتهم بالحس والعيان ، وعارضهم في أسلوب مقنع ، واستدلال ملزم ، وجدل محكم .

تعريف الجدل

والجدل والجدال : - المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لألزام الخصم ، أصله من جدلت الحبل : أي أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يقتل كل واحد الآخر عن رأيه .

وقد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ٥٤ - الكهف) أي خصومة ومنازعة .

وأمر رسول الله ﷺ أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التي تلين عريكتهم في قوله (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتتي هي أحسن ١٢٥ - النحل) .

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة في قوله (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتتي هي أحسن ٤٦ - العنكبوت) .

ومثل هذا من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق ، وإقامة البرهان على صحته ، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين . بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة ، قال تعالى (ويجادل الذين كفروا بالباطل ٥٦ - الكهف) .

طريقة القرآن في المناظرة

والقرآن الكريم تناول كثيراً من الأدلة والبراهين التي حاج بها خصومه في صورة واضحة جليلة يفهمها العامة والخاصة ، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج ، سليم التركيب ، لا يحتاج إلى عمل عقل أو كثير بحث .

ولم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج التي يعتمدون عليها ، من الإستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول ، أو الإستدلال بأحد الجزئين على الآخر في قياس التمثيل ، أو الإستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الإستقراء .

أ - لأن القرآن جاء بلسان العرب ، وخاطبهم بما يعرفون .

ب - ولأن الإعتماد في الإستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان

بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثراً وأبلغ حجة .

ج - ولأن ترك الجلي من الكلام والإلتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والإلغاز لا يفهمه إلا الخاصة ، وهو على طريقة المناطقة ليس سليماً من كل وجه ، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة في القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية : قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الرد على المنطقيين) : « وما يذكره النظار من الأدلة القياسية التي يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شيء منها على عينه ، وإنما يدل على أمر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، فإنما إذا قلنا : هذا محدث ، وكل محدث فلا بد له من محدث . أو ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، وإنما يدل هذا على محدث مطلق ، أو واجب مطلق ... لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه » ... وقال : « فبرهانهم لا يدل على شيء معين بخصوصه ، لا واجب الوجود ولا غيره ، وإنما يدل على أمر كلي ، والكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه ، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله » ... وقال : « وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات في كتابه ، كقوله : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار - إلى قوله - لقوم يعقلون ١٦٤ - البقرة) وقوله (إن في ذلك الآيات لقوم يعقلون ، لقوم يتفكرون) وغير ذلك ، فإنه يدل على المعين كالشمس التي هي آية النهار ... وقال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ١٢ - الإسراء) فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره ، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه ، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه .

فأدلة الله على توحيدِهِ وما أخبر به من المعاد ، وما نصبه من البراهين لصديق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولي أو تمثيلي ، بل هي مستلزمة لمدلولها عيناً ، والعلم

بها مستلزم للعلم بالمدلول ، وانتقال الذهن منها إلى المدلول يبين واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطاوعها ، وهذا النوع من الاستدلال بدهي يستوي في إدراكه كل العقول .

أنواع من مناظرات القرآن وأدلتها

أ - ما يذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه في ألوهيته ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر - وهذا النوع كثير في القرآن .

فمنه قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون - إلى قوله - فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ٢١ ، ٢٢ - البقرة) وقوله تعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم - إلى قوله - لآيات لقوم يعقلون ١٦٣ ، ١٦٤ - البقرة) .

ب - ما يرد به على الخصوم ويلزم أهل العناد ، ولهذا صور مختلفة :

١ - منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره ، كالأستدلال بالخلق على وجود خالق في مثل قوله تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون - إلى قوله - سبحانه الله عما يشركون ٣٥ - ٤٣ - الطور) .

٢ - الاستدلال بالمبدأ على المعاد . كقوله تعالى (أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ١٥ - ق) وقوله (أيجيب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مني يمني ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ٣٦ - ٤٠ ، القيامة) وقوله (فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر ٥ : ٨ - الطارق) - ومثله الاستدلال بحياة الأرض بغير موتها بالإثبات على الحياة بعد الموت للحساب كقوله (ومن

آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحيي الموتى ٣٩ - فصلت) .

٣ - إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها - كقوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ٩١ - الأنعام) رداً على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله (وما قدرُوا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) .

٤ - السبر والتقسيم - بحصر الأوصاف ، وإبطال أن يكون واحد منها غلة للحكم ، كقوله تعالى (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكركين حرم أم الاثنين - إلى قوله - إن الله لا يهدي القوم الظالمين ١٤٢ - ١٤٤ - الأنعام) .

٥ - إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد - كقوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ١٠٠ - ١٠١ ، الأنعام) فنفي التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد ، وأن التولد إنما يكون من اثنين ، وهو سبحانه لا صاحبة له ، وأيضاً فإنه خلق كل شيء ، وخلق له لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته ، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع ، فيمتنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمر الطبيعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور - كالحر والبارد ، فلا يجوز إضافة الولد إليه ^(١) .

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة ، كمنافرة الأنبياء مع أمهم ، أو فريق المؤمنين مع المنافقين ، وما شابه ذلك .

(١) هذه الفقرة (*) من كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وهي رائعة في الاستدلال .

قصص القرآن

الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع . فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفة من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس ، والموعظة الخطابية تسرد سرداً لا يجمع العقل أطرافها ولا يعي جميع ما يلقي فيها ، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها ، ويرتاح المرء لسماعها ، ويصغي إليها بشوق ولطف ، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات ، وقد أصبح أدب القصة اليوم فناً خاصاً من فنون اللغة وآدابها ، والقصصي الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل ، ويصوره في أبلغ صورة قصص : القرآن الكريم .

معنى القصص

القصص : تتبع الأثر ، يقال : قصصت أثره : أي تتبعته ، والقصص مصدر ، قال تعالى (فارتدا على آثارهما قصصاً ٦٤ - الكهف) أي رجعا بقصصان الأثر الذي جاءا به . وقال على لسان أم موسى (وقالت لأخته قصيه ١١ - القصص) تبغي أثره حتى تنظري من يأخذه . والقصص كذلك : الأخبار المتتابعة قال تعالى (إن هذا هو القصص الحق ٦٢ - آل عمران) وقال (لقد كان في

قصصهم عبرة لأولي الألباب ٢١١ - يوسف) والقصة : الأمر ، والخبر ،
والشأن ، والحال .

وقصص القرآن : إخباره عن أحوال الأمم الماضية ، والنبوءات السابقة ،
والحوادث الواقعة - وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي ، وتاريخ
الأمم ، وذكر البلاد والديار . وتتبع آثار كل قوم ، وحكى عنهم صورة ناطقة
لما كانوا عليه .

انواع القصص في القرآن

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : - قصص الأنبياء ، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم ،
والعجرات التي أيدهم الله بها ، وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة وتطورها
وعاقبة المؤمنين والمكذبين . كقصص نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وهارون ،
وعيسى ، ومحمد ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة
والسلام .

النوع الثاني : قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة ، وأشخاص لم تثبت
نبوتهم ، كقصص الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . وطالوت
وجالوت ، وابني آدم ، وأهل الكهف ، وذو القرنين ، وقارون ، وأصحاب السبب
ومريم ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم .

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ
كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران ، وغزوة حنين وتبوك في التوبة ، وغزوة
الأحزاب في سورة الأحزاب ، والهجرة ، والإسراء ، ونحو ذلك .

فوائد قصص القرآن

وللقصص القرآني فوائد نجمل أهمها فيما يأتي : -

١ - إيضاح أسس الدعوة إلى الله ، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ٢٥ - الأنبياء) .

٢ - تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله (وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ١٢٠ - هود) .

٣ - تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم .

٤ - إظهار صدق محمد ﷺ في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال .

٥ - مقارنته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى ، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل ، كقوله تعالى (كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ٩٣ - آل عمران) .

٦ - والقصص ضرب من ضروب الأدب ، يصغي إليه السمع ، وترسخ عبره في النفس ، (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ١١١ - يوسف) .

تكرار القصص وحكمته

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع ، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن ، وتعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، وما شابه ذلك . ومن حكمة هذا :

١ - بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها . فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة ، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتميز عن الآخر ، وتصاغ في قالب غير القالب ، ولا يمل الإنسان من تكرارها ، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى .

٢ - قوة الإعجاز - فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي .

٣ - الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس ، فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام . كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون ، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل - مع أن القصة لا تكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها .

٤ - اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة - فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام ، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال .

القصة في القرآن حقيقة لا خيال

ومن الجدير بالذكر أن أحد الطلاب الجامعيين في مصر قدم رسالة لنيل درجة « الدكتوراه » كان موضوعها « الفن القصصي في القرآن »^(١) أثارت جدلاً طويلاً سنة ١٣٦٧ هجرية ، وكتب عنها أحد أعضاء اللجنة الذين اشتركوا في مناقشة الرسالة ، وهو الأستاذ أحمد أمين - تقريراً بعث به إلى عميد كلية الآداب ، ونشر في مجلة « الرسالة » وقد تضمن التقرير نقداً لا ذعاً لما كتبه الطالب الجامعي ، وإن كان أستاذه المشرف قد دافع عنه . وصدّر الأستاذ « أحمد أمين » تقريره بالعبارة الآتية :

(١) هو الدكتور محمد أحمد خلف الله .

« وقد وجدتها رسالة ليست عادية ، بل هي رسالة خطيرة ، أساسها أن القصص في القرآن عمل في خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ . والواقع أن محمداً فنان بهذا المعنى » ثم قال : « وعلى هذا الأساس كتب كل الرسالة من أولها إلى آخرها ، وأنا أرى من الواجب أن أسوق بعض أمثلة ، توضح مرامي كاتب هذه الرسالة وكيفية بنائها » ثم أورد الأستاذ « أحمد أمين » أمثلة منتزعة من الرسالة تشهد بما وصفها به من هذه العبارة المجملية . ^(١) كادعاء صاحب الرسالة أن القصة في القرآن لا تلتزم الصدق التاريخي . وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادثة تصويراً فنياً ، وزعمه أن القرآن يختلق بعض القصص وأن الأقدمين أخطأوا في عدّ القصص القرآني تاريخاً يعتمد عليه ...

والمسلم الحق هو الذي يؤمن بأن القرآن كلام الله ، وأنه منزّه عن ذلك التصوير الفني الذي لا يعني فيه بالواقع التاريخي ، وليس قصص القرآن إلا الحقائق التاريخية تصاغ في صور بديعة من الألفاظ المتقاة ، والأساليب الرائعة .

ولعل صاحب الرسالة درس فن القصة في الأدب ، وأدرك من عناصرها الأساسية الخيال الذي يعتمد على التصور ، وأنه كلما ارتقى خياله ونأى عن الواقع كثر الشوق إليها ، ورغبت النفس فيها ، واستمتعت بقراءتها . ثم قاس القصص القرآني على القصة الأدبية .

وليس القرآن كذلك ، فإنه تنزيل من عليم حكيم ، ولا يرد في أخباره إلا ما يكون موافقاً للواقع ، وإذا كان الفضلاء من الناس يتورعون من أن يقولوا زورا ويعدون من أقبح الرذائل المزرية بالإنسانية ، فكيف يسوغ لعاقل أن يلصق الزور بكلام ذي العزة والجلال ؟

والله تعالى هو الحق :

(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ٦٢ - الحج)

(١) انظر نقد كتاب « الفن القصصي في القرآن - للأستاذ محمد الحضر حسين - بلاغة القرآن صفحة ٩٤

وأرسل رسوله بالحق

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ٢٤ - فاطر)

(والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ٣١ - فاطر)

(يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ١٠٧ - آل عمران)

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ٤٨ - المائدة)

(والذي أنزل إليك من ربك الحق ١ - الرعد)

وما قصه الله تعالى في القرآن هو الحق :

(نحن نقص عليك نأهم بالحق ١٣ - الكهف)

(نتلو عليك من نأ موسى وفرعون بالحق ٣ - القصص)

أثر القصص القرآني في التربية والتهذيب

مما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف - وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر ، وتسرسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا تكدر ، ويرتاد العقل عناصرها فيجني من حقوها الأزاهير والثمار .

والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل ، ولا تستطيع الناشئة أن تتابعها وتستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة . وإلى أمد قصير . ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعاً ، وأكثر فائدة .

والمعهد - حتى في حياة الطفولة - أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية ، ويصغي إلى رواية القصة ، وتعي ذاكرته ما يروى له ، فيحاكيه ويقصه .

هذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغي للمربين أن يفيدوا منها في مجالات التعليم ، لاسيما التهذيب الديني ، الذي هو لب التعليم ، وقوام التوجيه فيه .

وفي القصص القرآني تربة خصبة تساعد المربين على النجاح في مهمتهم ،
وتمدهم بزيادة تهذيبية ، من سيرة النبيين ، وأخبار الماضين وسنة الله في حياة
المجتمعات ، وأحوال الأمم . ولا تقول في ذلك إلا حقاً وصدقاً .

ويستطيع المربي أن يصوغ القصة القرآنية بالأسلوب الذي يلائم المستوى
الفكري للمتعلمين ، في كل مرحلة من مراحل التعليم . وقد نجحت مجموعة
القصص الديني للأستاذين « سيد قطب ، والسحار » في تقديم زاد مفيد نافع
لصغارنا نجاحاً معدوم النظير ، كما قدم « الجارم » القصص القرآني في أسلوب أدبي
بليغ أعلى مستوى ، وأكثر تحليلاً وعمقا . وجبذا لو نهج آخرون هذا النهج
التربوي السديد^(١) .

(١) صدر للسيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي مجموعة قصص النبيين وهي من القصص الرائدة (الناشر)

ترجمة القرآن

يتوقف نجاح الدعوة إلى حد كبير على التقارب بين الداعية وأمتة . فالداعية الذي ينبت من صميم البيئة يكون على دراية كاملة بمسالك الغواية ودروب الجهالة التي يغشاها قومه . يعرف نفوسهم والأبواب التي بطرقها منها حتى تفتتح لتعاليم دعوته ، وتهتدي بهداها ، والتخاطب بينهما بلسان واحد رمز للتجانس الاجتماعي في جميع صوره . وفي هذا يقول الله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليين لهم ٤ - ابراهيم) .

وقد نزل القرآن الكريم على الرسول العربي بلسان عربي مبين ، فكانت هذه الظاهرة ضرورة اجتماعية لنجاح رسالة الإسلام ، ومنذ ذلك الحين أصبحت اللغة العربية جزءاً من كيان الإسلام ، وأساساً للتخاطب في إبلاغ دعوته . وكانت بعثة رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى الإنسانية كلها . وأعلن ذلك القرآن في غير موضع (قل يأيتها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ١٥٨ - الأعراف) (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ٢٨ - سبأ)

ونشأت نواة الدولة الإسلامية في جزيرة العرب ، ولا شك أن اللغة تحيا بحياة أمتها وتموت بموتها ، فكانت نشأة الدولة الإسلامية على هذا النحو حياة للغة العرب ، فالقرآن وحي الإسلام ، والإسلام دين الله المفروض ، ولن يتأنى معرفة

أصوله وأسسها إلا إذا فهم القرآن بلغته ، فأخذت موجة الفتح الإسلامي تمتد إلى الألسنة الأخرى الأعجمية ، فتعربها بالإسلام ، وصار لزاما على كل من يدخل في حوزة هذا الدين الجديد أن يستجيب له في لغة كتابه باطنا وظاهرا ، حتى يستطيع القيام بواجباته ، ولم يكن هناك حاجة إلى ترجمة القرآن له ما دام القرآن قد ترجم لسانه وعربه إيمانا وتسليما .

معنى الترجمة

والترجمة تطلق على معنيين : —

أولهما : الترجمة الحرفية : — وهي نقل ألفاظ من لغة إلى نظائرها من اللغة الأخرى بحيث يكون النظم موافقا للنظم ، والترتيب موافقا للترتيب .

ثانيهما : الترجمة التفسيرية أو المعنوية : — وهي بيان معنى الكلام بلغة أخرى من غير تقييد بترتيب كلمات الأصل أو مراعاة لنظمه .

والذين على بصر باللغات يعرفون أن الترجمة الحرفية بالمعنى المذكور لا يمكن حصولها مع المحافظة على سياق الأصل والإحاطة بجميع معناه . فإن خواص كل لغة تختلف عن الأخرى في ترتيب أجزاء الجملة . فالجملة الفعلية في اللغة العربية تبدأ بالفعل فالفاعل في الاستفهام وغيره ، والمضاف مقدم على المضاف إليه ، والموصوف مقدم على الصفة ، إلا إذا أريد الإضافة على وجه التشبيه مثلا كلجين الماء ، أو كان الكلام من إضافة الصفة ، إلى معمولها كعظيم الأمل ، وليس الشأن كذلك في سائر اللغات .

والتعبير العربي يحمل في طياته من أسرار اللغة ما لا يمكن أن يحل محله تعبير آخر بلغة أخرى ، فإن الألفاظ في الترجمة لا تكون متساوية المعنى من كل وجه فضلا عن التراكيب .

والقرآن الكريم في قمة العربية فصاحة وبلاغة ، وله من خواص التراكيب

وأسرار الأساليب ولطائف المعاني ، وسائر آيات إعجازه ما لا يستقل بأدائه لسان .

حكم الترجمة الحرفية

ولهذا لا يجد المرء أدنى شبهة في حرمة ترجمة القرآن ترجمة حرفية . فالقرآن كلام الله المنزل على رسوله المعجز بألفاظه ومعانيه المتعبد بتلاوته ، ولا يقول أحد من الناس إن الكلمة من القرآن إذا ترجمت يقال فيها إنها كلام الله ، فإن الله لم يتكلم إلا بما نزلوه بالعربية ، ولن يتأتى الإعجاز بالترجمة ، لأن الإعجاز خاص بما أنزل باللغة العربية - والذي يتعبد بتلاوته هو ذلك القرآن العربي المبين بألفاظه وحروفه وترتيب كلماته .

فترجمة القرآن الحرفية على هذا مهما كان المترجم على دراية باللغات وأساليبها وتراكيبها تخرج القرآن عن أن يكون قرآنا .

الترجمة المعنوية

القرآن الكريم - ككل كلام عربي بليغ - له معان أصلية ، ومعان ثانوية .

والمراد بالمعاني الأصلية المعاني التي يستوي في فهمها كل من عرف مدلولات الألفاظ المفردة وعرف وجوه تراكيبها معرفة إجمالية .

والمراد بالمعاني الثانوية خواص النظم التي يرتفع بها شأن الكلام ، وبها كان القرآن معجزا .

فالمعنى الأصلي لبعض الآيات قد يوافق فيه منشور كلام العرب أو منظومه ، ولا تمس هذه الموافقة إعجاز القرآن ، فإن إعجازه ببديع نظمه وروعة بيانه ، أي

بالمعنى الثانوي . وإياه عنى الزمخشري في كشافه بقوله : « إن في كلام العرب - خصوصاً القرآن - من لطائف المعاني ما لا يستقل بأدائه لسان » .

حكم الترجمة المعنوية

وترجمة معاني القرآن الثانوية أمر غير ميسور ، إلا أنه توجد لغة توافق اللغة العربية في دلالة ألفاظها على هذه المعاني المسماة عند علماء البيان خواص التراكيب ، وذلك ما لا يسهل على أحد ادعاؤه . وهو ما يقصده الزمخشري من عبارته السابقة . فوجوه البلاغة القرآنية في اللفظ أو التركيب . تنكيراً وتعريفاً ، أو تقدماً وتأخيراً ، أو ذكراً وحذفاً ، إلى غير ذلك مما تسامت به لغة القرآن ، وكان له وقعه في النفوس - هذه الوجوه في بلاغة القرآن لا يفني بحقها في أداء معناها لغة أخرى ، لأن أي لغة لا تحمل تلك الخواص .

أما المعاني الأصلية فهي التي يمكن نقلهما إلى لغة أخرى . وقد ذكر الشاطبي في الموافقات المعاني الأصلية والمعاني الثانوية ثم قال : « إن ترجمة القرآن على الوجه الأول - يعني النظر إلى معانيه الأصلية - ممكن - ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معانيه للعامة ومن ليس لهم فهم يقوى على تحصيل معانيه . وكان ذلك جائزاً باتفاق أهل الإسلام ، فصار هذا الاتفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي »

ومع هذا فإن ترجمة المعاني الأصلية لا تخلو من فساد فإن اللفظ الواحد في القرآن قد يكون له معنيان أو معان تحتملها الآية فيضع المترجم لفظاً يدل على معنى واحد حيث لا يجد لفظاً يشاكل اللفظ العربي في احتمال تلك المعاني المتعددة .

وقد يستعمل القرآن اللفظ في معنى مجازي فيأتي المترجم بلفظ يرادف اللفظ العربي في معناه الحقيقي . ولهذا ونحوه وقعت أخطاء كثيرة فيما ترجم لمعاني القرآن .

وما ذهب إليه الشاطبي واعتبره حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي ليس على إطلاقه . فإن بعض العلماء يخص هذا بمقدار الضرورة في إبلاغ الدعوة . بالتوحيد وأركان العبادات ، ولا يتعرض لما سوى ذلك ، ويؤمر من أراد الزيادة بتعلم اللسان العربي .

الترجمة التفسيرية

ويحق لنا أن نقول : إن علماء الإسلام إذا قاموا بتفسير القرآن ، يتوخى فيه أداء المعنى القريب الميسور الراجح ، ثم يترجم هذا التفسير بأمانة وبراعة ، فإن هذا يقال فيه « ترجمة تفسير القرآن » أو « ترجمة تفسيرية » بمعنى شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى . ولا بأس بذلك ، فإن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام إلى البشرية كافة على اختلاف أجناسها وألوانها « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة »^(١) وشرط لزوم الرسالة البلاغ - والقرآن الذي نزل بلغة العرب صار إبلاغه للأمة العربية ملزما لها ، ولكن سائر الأمم التي لا تحسن العربية ، أو لا تعرفها يتوقف إبلاغها الدعوة على ترجمتها بلسانها . وقد عرفنا قبل استحالة الترجمة الحرفية وحرمتها . واستحالة ترجمة المعاني الثانوية ، ومشقة ترجمة المعاني الأصلية وما فيها من أخطار ، فلم يبق إلا أن يترجم تفسير القرآن الذي يتضمن أسس دعوته بما يتفق مع نصوص الكتاب وصريح السنة إلى لسان كل قبيل حتى تبلغهم الدعوة وتلزمهم الحجة . وترجمة تفسير القرآن على نحو ما ذكرنا يصح أن نسميها بالترجمة التفسيرية . وهي تختلف عن الترجمة المعنوية وإن كان الباحثون لا يفرقون بينهما ، فإن الترجمة المعنوية توهم أن المترجم أخذ معاني القرآن من أطرافها ونقلها إلى اللغة الأجنبية ، كما يقال في ترجمة غيره : ترجمة طبق الأصل . فالمفسر يتكلم بلهجة المبين لمعنى الكلام على حسب فهمه ، فكأنه يقول للناس : هذا ما أفهمه من الآية ،

(١) من حديث : « أعطيت حسنا لم يعطهن أحد قبلي ... في الصحيحين وغيرهما ... » .

والمترجم يتكلم بلهجة من أحاط بمعنى الكلام وصبه في ألفاظ لغة أخرى . وشتان بين الأمرين . فالمفسر يقول في تفسير الآية : يعني كذا ، ويذكر فهمه الخاص . والمترجم يقول : معنى هذا الكلام هو عين معنى الآية ، وقد عرفنا ما في ذلك .

وينبغي أن يؤكد في الترجمة التفسيرية أنها ترجمة لفهم شخصي خاص ، لا تتضمن وجوه التأويل المحتملة لمعاني القرآن ، وإنما تتضمن ما أدركه المفسر منها ، وبهذا تكون ترجمة للعقيدة الإسلامية ومبادئ الشريعة كما تفهم من القرآن .

وإذا كان إبلاغ الدعوة من واجبات الإسلام فإن ما يتوقف على هذا البلاغ من دراسة اللغات ونقل أصول الإسلام إليها واجب كذلك . كما أن معرفتنا لهذه اللغات بالقدر الضروري تمكننا من دراسة كتبها للرد على المبشرين والمستشرقين الذين غمزوا عود الإسلام من بعيد أو قريب ، وهذا هو ما عناه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه « العقل والنقل » عندما قال : « وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك ، وكانت المعاني صحيحة— كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم ، فإن هذا جائز حسن للحاجة ، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه » ثم قال : « ولذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة ، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ، ويترجم بالعربية ، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقراً له ويكتب له ذلك . حيث لم يأتمن اليهود عليه »

وإذا كانت الترجمة بمعناها الحقيقي ولو للمعاني الأصلية لا تتيسر في جميع آيات القرآن . وإنما المتيسر الترجمة على معنى التفسير كان من الضروري لإشعار القارئ بذلك ، ومن وسائله كتابة جمل في حواشي الصحائف يبين بها أن هذا أحد وجوه أو أرجح وجوه احتملها الآية « ولو قامت جماعة ذات نيات صالحة وعقول راجحة . وتولت نقل تفسير القرآن إلى بعض اللغات الأجنبية ، وهي على بينة

من مقاصده — وعلى رسوخ في معرفة تلك اللغات ، وتحامت الوجوه التي دخل منها
الخلل في التراجم السائرة اليوم في أوروبا لفتحت لدعوة الحق سبيلا كانت مقفلة .
ونشرت الحنفية السمحة في بلاد طافحة بالغواية قاتمة ^(١)

القراءة في الصلاة بغير العربية

يختلف العلماء في القراءة في الصلاة بغير العربية إلى مذهبين :
أحدهما : الجواز مطلقا أو عند العجز عن النطق بالعربية .

وثانيهما : أن ذلك محظور ، والصلاة بهذه القراءة غير صحيحة .

والمذهب الأول هو مذهب الأحناف ، فإنه يروى عن أبي حنيفة أنه كان
يرى جواز القراءة في الصلاة باللغة الفارسية ، وبني على هذا بعض أصحابه جوازها
بالتركية والهندية وغيرها من الألسنة ، ولعلمهم يرون في ذلك أن القرآن اسم للمعاني
التي تدل عليها الألفاظ العربية . والمعاني لا تختلف باختلاف ما قد يتعاقب عليها
من الألفاظ واللغات .

وقيد الصحابان : أبو يوسف ومحمد بن الحسين . هذا بما تدعو إليه الضرورة .
فأجازا للعاجز عن العربية القراءة في الصلاة باللسان الأعجمي دون القادر على
القراءة بها ، قال في «معراج الدراية» : « إنما جوزنا القراءة بترجمة القرآن للعاجز إذا
لم يخل بالمعنى ، لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى ، فالإتيان به أولى من
الترك مطلقا ، إذ التكليف بحسب الوسع ...

ويروى أن أبا حنيفة رجع عن الإطلاق الذي نقل عنه .

والمذهب الثاني هو ما عليه الجمهور ، فقد منع المالكية والشافعية والحنابلة
القراءة بترجمة القرآن في الصلاة ، سواء أكان المصلي قادرا على العربية أم عاجزا ،

(١) بلاغة القرآن — صفحة ٢١ .

لأن ترجمة القرآن ليست قرآناً ، إذ القرآن هو النظم المعجز الذي هو كلام الله ، والذي وصفه تعالى بكونه عربياً ، وبالترجمة يزول الإعجاز ، وليست الترجمة كلام الله .

قال القاضي أبو بكر بن العربي ، وهو من فقهاء المالكية ، في تفسير قوله تعالى (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي ؟ ٤٤ - فصلت) قال علماؤنا : هذا يبطل قول أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ، إن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز ، لأن الله تعالى قال : (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي ؟) نفى أن يكون للعجمة إليه طريق - فكيف يصرف إلى ما نفى الله عنه ؟ ثم قال : إن التبيان والإعجاز إنما يكون بلغة العرب ، فلو قلب إلى غير هذا لما كان قرآناً ولا بياناً ولا اقتضى إعجازاً » .

وقال الحافظ ابن حجر - وهو من فقهاء الشافعية - في « فتح الباري » : « إن كان القارئ قادراً على تلاوته باللسان العربي فلا يجوز له العدول عنه ، ولا تجزئ صلاته - أي بقراءة ترجمته - وإن كان عاجزاً ، ثم ذكر أن الشارع قد جعل للعاجز عن القراءة بالعربية بدلاً وهو الذكر »

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - وهو من فقهاء الحنابلة - وإن كانت له اجتهاداته - : « وأما الإتيان بلفظ يمين المعنى كبيان لفظ القرآن فهذا غير ممكن أصلاً ، ولهذا كان أئمة الدين على أنه لا يجوز أن يقرأ بغير العربية ، لا مع القدرة عليها ولا مع العجز عنها ، لأن ذلك يخرجها عن أن يكون هو القرآن المنزل » ^(١)

ويقول ابن تيمية في « كتاب اقتضاء الصراط المستقيم » عند الحديث عن اختلاف الفقهاء في أذكار الصلاة ، أتقال بغير العربية أم لا ؟ : « فأما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور ، وهذا هو

الصواب الذي لا ريب فيه ، بل قد قال غير واحد أنه يمتنع أن يترجم سورة أو مما يقوم به الإعجاز « وقد خص السورة أو ما يقوم به الإعجاز إشارة إلى أقل ما وقع به التحدي .

والدين يوجب على معتنقيه تعلم العربية لأنها لغة القرآن ومفتاح فهمه . قال ابن تيمية كذلك في الاقتضاء : « وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين — ومعرفتهما فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

أما اختلاف الأحناف في جواز الصلاة بترجمة القرآن ، فالمجيزون يرون إباحة هذا عند العجز على أنه رخصة ، وهم متفقون على أن الترجمة لا تسمى قرآناً ، فهي لمجرد الأجزاء في الصلاة ، ومثلها مثل ذكر الله عند غير الحنيفة .

والذكر في الصلاة يختلف فيه ، سواء أكان واجبا كتكبيره الاحرام أم غير واجب ؟ فقد منع ترجمة الأذكار الواجبة مالك وإسحاق وأحمد في أصح الروايتين . وأباحها أبو يوسف ومحمد والشافعي ، وسائر الأذكار لا يترجم عند مالك وإسحاق وبعض أصحاب الشافعي ، ومتى فصل بطلت صلاته « ونص الشافعي على الكراهة . وهو قول أصحاب أحمد إذا لم يحسن العربية .

قوة الأمة الإسلامية هي سبيل انتصار الإسلام وسيادة لغة القرآن . وننتهي من هذا البحث إلى أن القرآن لا يمكن ولا يجوز أن يترجم ترجمة حرفية . وأن ترجمة المعاني الأصلية وإن كانت ممكنة في بعض الآيات الواضحة المعنى فإنها لا تخلو من فساد . وأن ترجمة المعاني الثانوية غير ممكنة ، لأن وجوه البلاغة القرآنية لا تؤديها ألفاظ بأي لغة أخرى .

بقي أن يفسر القرآن ، وأن يترجم تفسيره لإبلاغ دعوته . قال القفال — من كبار علماء الشافعية — : « عندي أنه لا يقدر أحد على أن يأتي بالقرآن بالفارسية . قيل له : فإذا لا يقدر أحد أن يفسر القرآن ، قال : ليس كذلك ، لأنه هناك

يجوز أن يأتي ببعض مراد الله ويعجز عن بعضه ، أما إذا أراد أن يقرأها بالفارسية فلا يمكن أن يأتي بجميع مراد الله »

وترجمة التفسير تكون ضرورة بقدر الحاجة إلى إبلاغ دعوة الإسلام إلى الشعوب غير الإسلامية ، قال الحافظ ابن حجر : « فمن دخل الإسلام أو أراد الدخول فيه ففريء عليه القرآن فلم يفهمه فلا بأس أن يعرّب له لتعريف أحكامه . أو لتقوم عليه الحجة فيدخل فيه » (١) .

ولقد كان المسلمون فيما سلف يقتحمون للسيادة كل وعمر ويركبون لإظهار دين الله كل خطر ، ويلبسون من برود البطولة والعدل وكرم الأخلاق مما يملأ عيون مخالفيهم مهابة وإكباراً ، وكانت اللغة العربية تجر رداها أينما رفعوا رايتهم ، وتنتشر في كل واد وطئته أقدامهم ، فلم يشعروا في دعوتهم إلى الإسلام بالحاجة إلى نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية ، وربما كان عدم نقلها إلى غير العربية وهم في تلك العزة والسلطان من أسباب إقبال غير العرب على معرفة لسان العرب ، حتى صارت أوطان أعجمية إلى النطق بالعربية » (٢)

والظاهرة التي نشاهدها الآن في ضرورة تعلم اللغات الأجنبية للأمة العربية حتى تتمكن من إرسال بعثاتها العلمية إلى جامعات الدول الأخرى ، أو دراسة أمهات الكتب للعلوم الكونية في جامعاتها لأنها بلغة أجنبية لمؤلفين أجانب — هذه الظاهرة دعت إليها الحاجة إلى العلم والثقافة ، ونحن نراها تنشر سيطرتها على تفكير الكثير وتحدد اتجاهه في الحياة ، وتصل إلى درجة الولوع بها والشغف والتوسع في فنونها ، وقد كان لها الأثر البالغ في الأخلاق والعادات والتقاليد مما جعل حياتنا العامة في شتى صورها تخرج عن سمت الإسلام وطابع فضائله ، ولم تكن الأمم الأخرى في حاجة إلى ترجمة كتبها إلى اللغة العربية لما لها من المكانة العلمية فلو ظلت دولة الإسلام في طريق نهضتها الأولى علماً وثقافة وسياسة وخلقاً وقوة وسلطاناً

(١) فتح الباري باب ما يجوز من تفسير التوراة وكتب الله بالعربية

(٢) بلاغة القرآن ، صفحة ١٨

ومهاة لرمقها العالم من جميع أطراف المعمورة ، وتطلع إلى دراسة اللغة العربية لينهل من معين نتاج الإسلام الفكري ، ويروي ظمأه من معارفه ، ويستظل بسلطانه ، ويحتمي في سيادته ، ولأرى في هذا حاجته بمثل ما نرى نحن اليوم حاجتنا إلى لغته .

فالحديث عن ترجمة القرآن من مظاهر ضعف دولته ، وحري بنا أن يتجه نظرنا إلى بذل جهودنا في تكوين دولة القرآن وتوطيد دعائم نهضتها على أساس من الإيمان والعلم والمعرفة ، فهي وحدها الكفيلة بالسيطرة الروحية على أجناس البشر وتعريب ألسنتهم . وإذا كان الإسلام هو دين الإنسانية كافة ، فالشأن في لغته حين تعمل على تحقيق ما كتبه الله له ولأمته من العزة أن تكون كذلك .

التفسير والتأويل

القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول للأمة المحمدية ، وعلى فقه معناه ومعرفة أسرارہ والعمل بما فيه تتوقف سعادتها . ولا يستوي الناس جميعا في فهم ألفاظه وعباراته مع وضوح بيانه وتفصيل آياته ، فإن تفاوت الإدراك بينهم أمر لا مرأ فيه فالعامي يدرك من المعاني ظاهرها ومن الآيات مجملها ، والذكي المتعلم يستخرج منها المعنى الرائع . وبين هذا وذاك مراتب فهم شتى ، فلا غرو أن يجد القرآن من أبناء أمته اهتماماً بالغاً في الدراسة لتفسير غريب ، أو تأويل تركيب .

معنى التفسير والتأويل

التفسير في اللغة : - تفصيل من الفسر بمعنى الإبانة والكشف وإظهار المعنى المعقول ، وفعله : كضرب ونصر ، يقال : فسر الشيء يفسر بالكسر ويفسره بالضم فسرا ، وفسره : أبانه ، والتفسير والفسر : الإبانة وكشف المغطى ، وفي لسان العرب : الفسر كشف المغطى . والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل . وفي القرآن (ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ٣٣ - الفرقان) أي بيانا وتفصيلا .

والتفسير في الاصطلاح : - عرفه أبو حيان بأنه : « علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب ، وتتمتات لذلك .

ثم خرج التعريف فقال : فقولنا : علم ، هو جنس يشمل سائر العلوم ، وقولنا : يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، هذا هو علم القراءات ، وقولنا ! ومدلولاتها ، أي مدلولات تلك الألفاظ ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم ، وقولنا : وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب ، وعلم البيان ، وعلم البديع ، وقولنا : ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب ، يشمل ما دلالاته عليه بالحقيقة ، وما دلالاته عليه بالمجاز ، فإن التركيب قد يقتضي بظاهرة شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر ، وهو المجاز ، وقولنا : وتتمتات لذلك . هو معرفة النسخ وسبب النزول ، وقصة توضيح بعض ما أنبهم في القرآن ونحو ذلك .

وقال الزركشي : التفسير : علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه .^(١)

والتأويل في اللغة : مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع إلى الأصل ، يقال : آل إليه أولاً ومآلاً : رجع .. ويقال : أول الكلام تأويلاً وتأوله : دبره وقدره وفسره . وعلى هذا : فتأويل الكلام في الاصطلاح له معنيان : ١ - تأويل الكلام : بمعنى ما أوله إليه المتكلم ، أو ما يؤول إليه الكلام ويرجع ، والكلام إنما يرجع ويعود إلى حقيقته التي هي عين المقصود . وهو نوعان : لإنشاء وإخبار ، ومن الإنشاء الأمر .

فتأويل الأمر : هو الفعل المأمور به ، ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله

(١) الإتيان صفحة ١٧٤ ج ٢

عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك اللهم أغفر لي ، يتأول القرآن ^(١) نعي قوله تعالى (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ٢ - النصر) .

وتأويل الإخبار : هو عين المخبر به إذا وقع . كقوله تعالى : (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ٥٢ ، ٥٣ - الأعراف) فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وأنهم لا ينتظرون إلا تأويله ، أي محيي ما أخبر القرآن بوقوعه ، من القيامة وأشراطها ، وما في الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وغير ذلك . فحيثئذ يقولون : (قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل) ؟

٢ - **تأويل الكلام :** أي تفسيره وبيان معناه . وهو ما يعنيه ابن جرير الطبري في تفسيره بقوله : « القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا » وبقوله : « اختلف أهل التأويل في هذه الآية » فإن مراده التفسير .

ذلك هو معنى التأويل عند السلف :

والتأويل في عرف المتأخرين : هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقتزن به - وهذا الاصطلاح لا يتفق مع ما يراد بلفظ التأويل في القرآن عند السلف .

الفرق بين التفسير والتأويل

اختلف العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل - وعلى ضوء ما سبق في معنى التفسير والتأويل نستطيع أن نستخلص أهم الآراء فيما يأتي :

(١) رواه البخاري ومسلم

١ - إذا قلنا : إن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه ، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان أو مترادفان ، ومنه دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل »

٢ - وإذا قلنا أن التأويل هو نفس المراد بالكلام ، فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب ، وتأويل الخبر نفس الشيء ، المخبر به ، فعلى هذا يكون الفرق كبيرا بين التفسير والتأويل ، لأن التفسير شرح وإيضاح للكلام ، ويكون وجوده في الذهن بتعقله ، وفي اللسان بالعبارة الدالة عليه ، أما التأويل فهو نفس الأمور الموجودة في الخارج ، فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا هو نفس طلوعها ، وهذا هو الغالب في لغة القرآن كما تقدم ، قال تعالى (أم يقولون اقترأه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ٣٨ - ٣٩ - يونس) فالمراد بالتأويل وقوع المخبر به .

٣ - وقيل : التفسير : ما وقع مبينا في كتاب الله أو معينا في صحيح السنة ، لأن معناه قد ظهر ووضح ، والتأويل ما استنبطه العلماء ، ولذا قال بعضهم : « التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية » (١) .

٤ - وقيل : التفسير : أكثر ما يستعمل في الألفاظ وفرداتها ، والتأويل : أكثر ما يستعمل في المعاني والجمال - وقيل غير ذلك .

شرف التفسير

والتفسير من أجل علوم الشريعة وأرفعها قدرا ، وهو أشرف العلوم موضوعا وغرضا وحاجة إليه - لأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة . ومعدن كل فضيلة - ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية - وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال ديني أو دنيوي لا بد وأن يكون موافقا للشرع ، وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله (٢) .

(١) الإتقان ، صفحة ١٧٣ ج ٢

(٢) انظر الإتقان صفحة ١٧٥ ج ٢

شروط المفسر وآدابه

البحث العلمي التنزيه أساس المعرفة الحقة التي تعود على طلابها بالنفع ،
وثمرته من أشهى الأكل لغذاء الفكر وتنمية العقل ، ولذلك فإن تهيؤ أسبابه لأي
باحث أمر له اعتباره في نضج ثماره ودنو قطوفه ، والبحث في العلوم الشرعية عامة
وفي التفسير خاصة من أهم ما يجب الاعتناء به والتعرف على شروطه وآدابه ، حتى
يصفو مشربه ، ويحفظ روعة الوحي وجلاله .

شروط المفسر

وقد ذكر العلماء للمفسر شروطاً نجملها فيما يأتي :

- ١ - صحة الاعتقاد : فإن العقيدة لها أثرها في نفس صاحبها ، وكثيراً ما
تحمّل ذوبها على تحريف النصوص والحياة في نقل الأخبار ، فإذا صنف أحدهم
كتاباً في التفسير أوّل الآيات التي تخالف عقيدته ، وحملها باطل مذهبه ، ليصد
الناس عن اتباع السلف ، ولزوم طريق الهدى .
- ٢ - التجرد عن الهوى : فالأهواء تدفع أصحابها إلى نصره مذهبهم ،

فيغرون الناس بلين الكلام ولحن البيان ، كدأب طوائف القدريّة والرافضة والمعتزلة ونحوهم من غلاة المذاهب .

٣ - أن يبدأ أولاً بتفسير القرآن بالقرآن ، فما أجمل منه في موضع فإنه قد فصل في موضع آخر ، وما اختصر منه في مكان فإنه قد بسط في مكان آخر .

٤ - أن يطلب التفسير من السنة شارحة للقرآن موضحة له ، وقد ذكر القرآن أن أحكام رسول الله ﷺ فإنها إنما تصدر منه عن طريق الله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ١٠٥ - النساء) وذكر الله أن السنة مبيّنة للكتاب (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ٤٤ - النحل) ولهذا قال رسول الله ﷺ « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » يعني السنة . وقال الشافعي رضي الله عنه « كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن » وأمثلة هذا في القرآن كثيرة - جمعها صاحب الإنقان مرتبة مع السور في آخر فصل من كتابه كتفسير السبيل بالزاد والراحلة ، وتفسير الظلم بالشرك ، وتفسير الحساب اليسير بالعرض .

٥ - فإذا لم يجد التفسير من السنة رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح .

٦ - فإذا لم يجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين ، كمجاهد ابن جبر ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك ابن مزاحم ، وغيرهم من التابعين ، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والمعتمد في ذلك كله النقل الصحيح ، ولهذا قال أحمد : « ثلاث كتب لا أصل لها ، المغازي والملاحم والتفسير » .

٧ - العلم باللغة العربية وفروعها : فإن القرآن نزل بلسان عربي ، ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع ، قال مجاهد : « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب » .

والمعاني تختلف باختلاف الإعراب ، ومن هنا مست الحاجة إلى اعتبار علم النحو . والتصريف الذي تعرف به الأبنية ، والكلمة المبهمة يتضح معناها بمصادرها ومشتقاتها . وخواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى ، ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها . ثم من ناحية وجوه تحسين الكلام - وهي علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع - من أعظم أركان المفسر . إذ لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز ، وإنما يدرك الإعجاز بهذه العلوم .

٨ - العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن ، كعلم القراءات لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن ويترجح بعض وجوه الاحتمال على بعض ، وعلم التوحيد ، حتى لا يؤول آيات الكتاب التي في حق الله وصفاته تأويلاً يتجاوز به الحق ، وعلم الأصول ، وأصول التفسير خاصة مع التعمق في أبوابه التي لا يتضح المعنى ولا يستقيم المراد بدونها ، كعرفة أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، ونحو ذلك .

٩ - دقة الفهم التي تمكن المفسر من ترجيح معنى على آخر ، أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة .

آداب المفسر

١ - حسن النية وصحة المقصد - فإنما الأعمال بالنيات ، والعلوم الشرعية أولى بأن يكون هدف صاحبها منها الخير العام ، وإسداء المعروف لصالح الإسلام ، وأن يتطهر من أعراض الدنيا ليسدد الله خطاه ، والانتفاع بالعلم ثمرة الإخلاص فيه .

٢ - حسن الخلق : فالمفسر في موقف المؤدب ، ولا تبلغ الآداب مبلغها في

النفس إلا إذا كان المؤدب مثلاً يحتذى في الخلق والفضيلة ، والكلمة النابية قد تصرف الطالب عن الاستفادة مما يسمع أو يقرأ وتقطع عليه مجرى تفكيره .

٣ - الامتثال والعمل : - فإن العلم يجد قبولاً من العاملين أضعاف ما يجد من سمو معارفه ودقة مباحثه - وحسن السيرة يجعل المفسر قدوة حسنة لما يقرره من مسائل الدين ، وكثيراً ما يصد الناس عن تلقي العلم من بحر زاهر في المعرفة لسوء سلوكه وعدم تطبيقه .

٤ - تحري الصدق والضبط في النقل : فلا يتكلم أو يكتب إلا عن ثبت لما يرويه حتى يكون في مأمن من التصحيف واللعن .

٥ - التواضع ولين الجانب : - فالصلف العلمي حاجز حصين يحول بين العالم والانتفاع بعلمه .

٦ - عزة النفس : - فمن حق العالم أن يترفع عن سفاسف الأمور ، ولا يغشى اعتاب الجاه والسلطان كالسائل المتكفف .

٧ - الجهر بالحق : - فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر .

٨ - حسن السمعة : - الذي يكسب المفسر هبة ووقاراً في مظهره العام وجلوسه ووقوفه ومشيته .

٩ - الأناة والروية : - فلا يسرد الكلام سرداً بل يفصله ويبين عن مخارج حروفه .

١٠ - تقديم من هو أولى منه - فلا يتصدى للتفسير بحضرتهم وهم أحياء ، ولا يغمطهم حقهم بعد الممات ، بل يرشد إلى الأخذ عنهم وقراءة كتبهم .

١١ - حسن الإعداد وطريقة الأداء : كأن يبدأ بذكر سبب النزول - ثم معاني المفردات وشرح التراكيب وبيان وجوه البلاغة والإعراب الذي يتوقف عليه تحديد المعنى ، ثم يبين المعنى العام ويصله بالحياة العامة التي يعيشها الناس في عصره ، ثم يأتي إلى الاستنباط والأحكام .

أما ذكر المناسبة والربط بين الآيات أولاً وآخرها فذلك حسب ما يقتضيه النظم والسياق .

نشأة التفسير وتطوره

جرت سنة الله أن يرسل كل رسول بلسان قومه . ليتم مخاطبه معهم (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم ليبين لهم ٤ - ابراهيم) وأن يكون الكتاب الذي أنزل عليه بلسانه ولسانهم ، وإذا كان لسان محمد صلى الله عليه وسلم عربيا فإن الكتاب الذي أنزل عليه يكون بلسان عربي ، وبذلك نطق محكم التنزيل (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ٢ - يوسف) (وإنه لتنزيل رب العالمين - نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين ١٩٢ - الشعراء) .

فألفاظ القرآن عربية ، ووجوه المعاني في القرآن توافق وجوه المعاني عند العرب ، وإذا كانت هناك ألفاظ قليلة تختلف فيها أنظار العلماء ، أهي من لغات أخرى وعربت ، أم هي عربية بحتة ولكنها مما تواردت عليها اللغات ؟ فإن هذا لا يخرج القرآن عن أن يكون عربيا .

والذي عليه المحققون أنها كلمات اتفقت فيها ألفاظ العرب مع ألفاظ غيرهم من بعض أجناس الأمم . وهذا هو ما رجحه جهبذ المفسرين ابن جرير الطبري .^(١)

(١) راجع هذا البحث بالتفصيل في كتاب : « التفسير والمفسرون » للأستاذ محمد حسين الذهبي

(٢) تفسير الطبري صفحة ١٣ ج ١

فقد أورد ما روى في ذلك كقوله تعالى (يؤتكم كفلين من رحمته ٢٨ - الحديد)
 قيل : الكفلان : ضعفان من الأجر بلسان الحبشة . وقوله (إن ناشئة الليل - ٦ -
 المزملة) قيل : بلسان الحبشة إذا قام الرجل من الليل قالوا : نشأ . وقوله (يا جبال
 أوبي معه ١٠ - سبأ) قيل : سبحي بلسان الحبشة . وقوله (فرت من قسورة
 ٥١ - المدثر) قيل الأسد بالحبشة . وقوله (حجارة من سجيل ٨٢ - هود -
 والحجر ٧٤) قيل فارسية أعربت - أورد الطبري ما روي في ذلك ثم بين أن أحداً
 لم يقل أن هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاماً . وإنما قال بعضهم :
 حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا ، وحرف كذا بلسان العجم معناه كذا ،
 وقد ظهر أن بعض الألفاظ اتفقت فيها الألسن المختلفة ، كالدرهم والدينار
 والدواة والقلم والقرطاس ، فأى مرجح يجعل اللفظ من لغة بعينها ثم نقل إلى اللغة
 الأخرى ؟ فليس أحد الجنسين أولى بأن يكون أصل ذلك كان من عنده من الجنس
 ومدعي ذلك يدعي شيئاً بلا دليل .

التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

تكفل الله تعالى لرسوله بحفظ القرآن وبيانه (إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا
 قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ١٧ - ١٩ القيامة) فكان النبي صلى الله
 عليه وسلم يفهم القرآن جملة وتفصيلاً . وكان عليه أن يبينه لأصحابه (وأنزلنا إليك
 الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ٤٤ - النحل)

وكان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون القرآن كذلك لأنه نزل بلغتهم . وإن
 كانوا لا يفهمون دقائقه ، يقول ابن خلدون في مقدمته : « إن القرآن نزل بلغة
 العرب - وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في
 مفرداته وتراكيبه » ولكنهم مع هذا كانوا يتفاوتون في الفهم ، فقد يغيب عن واحد
 منهم ما لا يغيب عن الآخر .

أخرج أبو عبيدة في الفضائل عن أنس : أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر

(وفاكهة وأبا) فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا هو التكلف يا عمر « (١)

وأخرج أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، يقول : أنا ابتدأتها « (٢)

ولذا قال ابن قتيبة : « إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل في ذلك عن بعض » (٣)

وكان الصحابة يعتمدون في تفسيرهم للقرآن بهذا العصر على :

أولا : القرآن الكريم : فما جاء مجملا في موضع جاء مبينا في موضع آخر ، تأتي الآية مطلقة أو عامة ، ثم ينزل ما يفيدها أو يخصها ، وهذا هو الذي يسمى : بتفسير القرآن بالقرآن ولهذا أمثلة كثيرة ، فقصص القرآن جاء موجزا في بعض المواضع ومسهباً في مواضع أخرى ، وقوله تعالى (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ١ - المائدة) فسر آية (حرمت عليكم الميتة ٣ - المائدة) وقوله تعالى (لا تدركه الأبصار ١٠٣ - الأنعام) فسر آية (إلى ربها ناظرة ٢٣ - القيامة)

ثانيا : النبي صلى الله عليه وسلم : فهو المبين للقرآن ، وكان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكل عليهم فهم آية من الآيات عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا لإيمانهم بظلم) شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح « إن الشرك لظلم عظيم » إنما هو الشرك « (٤)

(١) الإتيقان صفحة ١١٣ ج ٢

(٢) الإتيقان صفحة ١١٣ ج ٢

(٣) التفسير والمفسرون صفحة ٣٦ ج ١

(٤) رواه أحمد والشيخان وغيرهم

كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبين لهم ما يشاء عند الحاجة عن عقبة بن عامر قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ألا وإن القوة الرمي » (١) .

وعن أنس قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكوثر نهر أعطانيه ربي في الجنة » (٢) .

وقد أفردت كتب السنة باباً للتفسير بالمأثور عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال الله تعالى (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ٦٤ — النحل)

ومن القرآن ما لا يُعلم تأويله إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم . كتفصيل وجوه أمره ونهيه ، ومقادير ما فرضه الله من أحكام وهذا البيان ، هو المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه .. » .

ثالثاً : الفهم والاجتهاد : فكان الصحابة إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله تعالى ، ولم يجدوا شيئاً في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . اجتهدوا في الفهم ، فإنهم من خلاص العرب ، يعرفون العربية ، ويحسنون فهمها ، ويعرفوا وجوه البلاغة فيها .

واشتهر بالتفسير من الصحابة جماعة منهم : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبدالله بن الزبير ، وأنس بن مالك ، وعبدالله بن عمر ، وجابر بن عبدالله ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وعائشة ، على تفاوت فيما بينهم قلة وكثرة ، وهناك روايات منسوبة إلى هؤلاء وغيرهم في مواضع متعددة من تفسير القرآن بالمأثور تتفاوت درجتها من حيث السند . صحة وضعفاً .

(١) أخرجه مسلم وغيره

(٢) أخرجه أحمد ومسلم

ولا شك أن التفسير بالمأثور عن الصحابة له قيمته ، وذهب جمهور العلماء إلى أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول وكل ما ليس للرأي فيه مجال . أما ما يكون للرأي فيه مجال فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والموقوف على الصحابي من التفسير يوجب بعض العلماء الأخذ به لأنهم أهل اللسان ، ولما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم الصحيح . قال الزركشي في البرهان : « اعلم أن القرآن قسمان : قسم ورد تفسيره بالنقل ، وقسم لم يرد ، والأول : إما أن يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم . أو الصحابة ، أو رؤوس التابعين — فالأول يبحث فيه عن صحة السند ، والثاني ينظر في تفسير الصحابي ، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان ، فلا شك في اعتماده . أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه » (١) .

وقال الحافظ بن كثير في مقدمة تفسيره « وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح — ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة ، والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم » (٢) .

ولم يدون شيء من التفسير في هذا العصر ، لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني ، وكان التفسير فرعا من الحديث ، ولم يتخذ شكلا منظما — بل كانت هذه التفسيرات تروى منثورة لآيات متفرقة . من غير ترتيب وتسلسل لآيات القرآن وسوره كما لا تشمل القرآن كله .

التفسير في عصر التابعين

كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير ، اشتهر بعض أعلام التابعين

(١) الإتيان ، صفحة ١٨٣ ج ٢ .

(٢) ابن كثير ، صفحة ٣ ج ١ .

الذين أخذوا عنهم من تلاميذهم بالتفسير كذلك معتمدين في مصادره على المصادر التي جاءت في العصر السابق بالإضافة إلى ما كان لهم من اجتهاد ونظر .

قال الأستاذ محمد حسين الذهبي : « وقد اعتمد هؤلاء المفسرون في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في الكتاب نفسه . وعلى ما روه عن الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى ما روه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم . وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم ، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى .

وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير قالوها بطريق الرأي والاجتهاد ، ولم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن أحد من الصحابة .

وقد قلنا فيما سبق : إن ما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن ، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم ، ثم تزايد هذا الغموض — على تدرج — كلما بعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص ، فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض ، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعاً ، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول ، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التي حدثت في عصر نزول القرآن ، وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث » ^(١)

لقد اتسعت الفتوحات الإسلامية ، وانتقل كثير من أعلام الصحابة إلى الأمصار المفتوحة ، ولدى كل واحد منهم علم . وعلى يد هؤلاء تلقى تلاميذهم من التابعين علمهم ، وأخذوا عنهم ، ونشأت مدارس متعددة .

ففي مكة نشأت مدرسة ابن عباس ، واشتهر من تلاميذه بمكة : سعيد بن

(١) التفسير والمفسرون صفحة ٩٩ ، ١٠٠ ج ١ .

جبير ، ومجاهد وعكرمة مولى ابن عباس ، وطاوس بن كيسان اليماني ، وعطاء بن أبي رباح .

وهؤلاء جميعا من الموالى ، وهم يختلفون في الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة ، كما اختلف العلماء في مقدار الثقة بهم والركون إليهم ، والذي ورد فيه شيء ذو بال هو عكرمة ، فإن العلماء يختلفون في توثيقه وإن كانوا يشهدون له بالعلم والفضل وفي المدينة اشتهر أبي بن كعب بالتفسير أكثر من غيره ، وكثر ما نقل عنه في ذلك . واشتهر من تلاميذه من التابعين الذين أخذوا عنه مباشرة أو بالواسطة : زيد ابن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظي .

وفي العراق نشأت مدرسة ابن مسعود التي يعتبرها العلماء نواة مدرسة أهل الرأي : وعرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين . اشتهر منهم علقمة بن قيس ، ومسروق ، والأسود بن يزيد ، ومرة الهمداني ، وعامر الشعبي ، والحسن البصري ، وقتادة بن دعامة السدوسي .

هؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين في الأمصار الإسلامية الذين أخذ عنهم أتباع التابعين من بعدهم . وخلقوا لنا تراثا علميا خالدا .

واختلف العلماء فيما أثر عن التابعين من تفسير إذا لم يؤثر في ذلك شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة . أيؤخذ بأقوالهم أم لا ؟

فذهب جماعة إلى أنه لا يؤخذ بتفسيرهم لأنهم لم يشاهدوا القرآن والأحوال التي نزل عليها القرآن ، فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد .

وذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بتفسيرهم ، لأنهم تلقوه غالبا عن الصحابة .

والذي يترجح أنه إذا أجمع التابعون على رأي فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره .

قال ابن تيمية : « قال شعبة بن الحجاج وغيره ، أقوال التابعين ليست حجة ،

فكيف تكون حجة في التفسير ؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم . وهذا صحيح ، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة في ذلك » (١)

وقد ظل التفسير محتفظاً في هذا العصر بطابع التلقي والرواية ، ولكن التابعين — بعد أن كثر دخول أهل الكتاب في الإسلام ، نقلوا عنهم في التفسير كثيراً من الإسرائيليات ، كالذي يروى عن عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار — ووهب بن منبه ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، كما بدأ الاختلاف فيما يروى عنهم من تفسير لكثرة أقوالهم . ومع هذا فإنها أقوال متقاربة أو مترادفة ، فهو من باب اختلاف العبارة لا اختلاف التباين والتضاد .

التفسير في عصور التدوين

بدأ التدوين في أواخر عهد بني أمية ، وأوائل عهد العباسيين ، وحظي الحديث بالنصيب الأول في ذلك ، وشمل تدوين الحديث أبواباً متنوعة ، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب ، فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة ، وآية آية ، من مبدئه إلى منتهاه .

واشتد عناية جماعة برواية التفسير المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم . أو إلى الصحابة ، أو إلى التابعين ، مع عنايتهم بجمع الحديث . وفي مقدمة هؤلاء : يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة ١١٧ هجرية ، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية ، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هجرية ، وروح بن عباد البصري المتوفى سنة ٢٠٥ هجرية .

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير صفحة ٢٨ ، ٢٩ ، والإتقان صفحة ١٧٩ ج ٢ .

وعبد الززاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هجرية ، وآدم بن أبي إياس المتوفى سنة ٢٢٠ هجرية ، وعبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩ هجرية .

ولم يصل إلينا من تفاسيرهم شيء ، وإنما روي ما نقل مسنداً إليهم في كتب التفسير بالمأثور .

جاء بعد هؤلاء من أفرد التفسير بالتأليف وجعله علماً قائماً بنفسه منفصلاً عن الحديث . ففسر القرآن حسب ترتيب المصحف . وذلك كابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هجرية ، وابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هجرية ، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٨ هجرية . وابن أبي حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هجرية ، وأبو الشيخ بن حيان المتوفى سنة ٣٦٩ هجرية ، والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥ هجرية ، وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠ هجرية .

وتفاسير هؤلاء مروية بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى الصحابة والتابعين ، وأتباع التابعين مع الترجيح أحياناً فيما يروى من آراء ، واستنباط بعض الأحكام . والإعراب عند الحاجة ، كما فعل ابن جرير الطبري .

ثم جاء على أثر هؤلاء جماعة من المفسرين لم يتجاوزوا حدود التفسير بالمأثور ، ولكنهم اختصروا الأسانيد، وجمعوا شتات الأقوال دون أن ينسبوها إلى قائلها ، وبهذا التبس الأمر ، ولم يتميز الصحيح من السقيم .

اتسعت العلوم ، وتم تدوينها ، وتشعبت فروعها ، وكثر الاختلاف ، وأثيرت مسائل الكلام ، وظهر التعصب المذهبي ، واختلطت علوم الفلسفة العقلية بالعلوم النقلية ، وحرصت الفرق الإسلامية على دعم مذهبها فأصاب التفسير من هذا الجوّ غباره ، وأصبح المفسرون يعتمدون في تفسيرهم على الفهم الشخصي ، ويتجهون اتجاهات متعددة ، وتحكمت فيهم الاصطلاحات العلمية . والعقائد المذهبية ، والثقافة الفلسفية ، واهتم كل واحد من المفسرين بحشوه بما برز فيه من العلوم الأخرى ، فصاحب العلوم العقلية يعنى في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة كفخر الدين الرازي ، وصاحب الفقه يعنى بالفروع الفقهية كالحصائص

والقرطبي ، وصاحب التاريخ يعنى بالقصص والأخبار كالثعلبي والهازم . وصاحب البدعة يؤول كلام الله على مذهبه الفاسد ، كالرومي والحياثي ، والقاضي عبد الجبار والزحشرى من المعتزلة وملا محسن الكاش من الإمامية الاثني عشرية . وصاحب التصوف يستخرج المعاني الإشارية كابن عربي .

هذا مع علوم النحو والصرف والبلاغة ، وهكذا أصبحت كتب التفسير تحمل في طياتها الغث والسمين ، والنافع والضار ، والصالح والفاسد . وحمل كل مفسر آيات القرآن ما لا تتحمله ، انتصاراً لمذهبيه . ورداً على خصومه . وفقد التفسير وظيفته الأساسية في الهداية والإشارة ومعرفة أحكام الدين .

وبذلك طغى التفسير بالرأي على التفسير بالأثر ، وتدرج التفسير في العصور المتتابعة على هذا النمط ، بنقل المتأخر .

طبقات المفسرين

وعلى ضوء ما سبق نستطيع أن نقسم طبقات المفسرين على النحو التالي :

١ - المفسرون من الصحابة : - واشتهر منهم الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبدالله بن الزبير ، وأنس بن مالك ، وأبو هريرة ، وجابر ، وعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وأكثر من روى عنه من الخلفاء الأربعة علي بن أبي طالب ، والرواية عن الثلاثة نزره جداً ، وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم ، كما أن ذلك هو السبب في قلة رواية أبي بكر رضي الله عنه ، فقد روى معمر عن وهب بن عبدالله عن أبي الطفيل قال : « شهدت علياً يخطب وهو يقول : سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم - وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلاً نزلت أم بنهار ، أم في سهل أم في جبل ».

وأما ابن مسعود فروي عنه أكثر مما روي عن علي ، وقد أخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال : « والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته » وأما ابن عباس فسنترجم له بعد إن شاء الله .

٢ - المفسرون من التابعين : - قال ابن تيمية : « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كعجاءه ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وطاوس وغيرهم - وفي الكوفة أصحاب ابن مسعود - وفي المدينة زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ، ومالك بن أنس » ومن أصحاب ابن مسعود علقمة ، والأسود بن يزيد ، وإبراهيم النخعي ، والشعبي ، ومن هذه الطبقة : الحسن البصري ، وعطاء بن أبي سلمة ميسرة الخرساني ، ومحمد بن كعب القرظي ، وأبو العالية رفيع بن مهران اليرباعي ، والضحاك بن مزاحم ، وعطية بن سعد العوفي . وقتادة بن دعامة السدوسي ، والربيع بن أنس ، والسدي - فهؤلاء قدماء المفسرين من التابعين ، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة .

٣ - ثم بعد هذه الطبقة : طبقة الذين صنف كثير منهم كتب التفسير التي تجمع أقوال الصحابة والتابعين ، كسفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون ، وعبد الرزاق ، وآدم بن أبي إياس ، وإسحاق بن راهويه ، وعبد بن حميد ، وروح بن عباد ، وأبي بكر بن أبي شيبة ، وآخرين .

٤ - ثم بعد هؤلاء طبقات أخرى : منها علي بن أبي طلحة ، وابن جرير الطبري ، وابن أبي حاتم ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن مردويه ، وأبو الشيخ بن حيان ، وابن المنذر في آخرين ، وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم ، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط ، فهو يفوقها بذلك .

٥ - ثم انتصبت طبقة بعدهم : إلى تصنيف تفسير مشحونة بالفوائد عن المتقدم ، ويضيف القليل من رأيه ، حتى جاء عصر النهضة الحديثة ، فانتجى كثير من المفسرين منحه جديدا . في العناية بطلاوة الأسلوب ، وحسن العبارة ، والاهتمام بالنواحي الاجتماعية والأفكار المعاصرة . فكان التفسير الأدبي الاجتماعي محذوفة الأسانيد ، مثل أبي إسحاق الزجاج ، وأبي علي الفارسي ، وأبي بكر النقاش ، وأبي جعفر النحاس ، وأبي العباس المهدي .

٦ - ثم ألف في التفسير طائفة من المتأخرين : فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال بتراء : فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل .

٧ - ثم صار كل من سنع له قول يورده : ومن خطر بباله شيء يعتمد عليه . ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظاناً أن له أصلاً ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ، ومن هم القدوة في هذا الباب - قال السيوطي : رأيت في تفسير قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) نحو عشرة أقوال ، مع أن الوارد عن النبي (ص) وجميع الصحابة والتابعين ليس غير اليهود والنصارى ، حتى قال ابن أبي حاتم : لا أعلم في ذلك اختلافاً من المفسرين .

٨ - صنف بعد ذلك قوم : برعوا في شيء من العلوم . منهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن ، واقتصر فيه على ما تمهر هو فيه ، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير ، مع أن فيه تبيان كل شيء .

فالنحوي نراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير أوجهه المحتملة فيه ، وإن كانت بعيدة ، وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافاته كأبي حيان في البحر والنهر .

والإخباري همه القصص واستيفائه ، والإخبار عن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة . ومنهم الثعلبي .

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعاً ، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية أصلاً . والجواب على أدلة المخالفين ، كالقرطبي .

وصاحب العلوم العقلية ، خصوصاً الإمام فخر الدين الرازي ، قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ، وخرج من شيء إلى شيء ، حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية . قال أبو حيان في البحر : جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شيء إلا التفسير .

والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث أنه لولاح له شاردة من بعيد اقتنصها ، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه ، كما نقل عن البلقيني أنه قال : استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقش ، منها أنه قال في قوله سبحانه وتعالى (فمن زُحِزِح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ١٨٥ - آل عمران) أي فوز أعظم من دخوله الجنة ؟ أشار به إلى عدم الرؤية .

وهكذا الشأن بالنسبة إلى الملحدين وغيرهم .

التفسير بالمأثور بالرأي

التفسير بالمأثور : هو الذي يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب التي ذكرت سابقاً في شروط المفسر ، من تفسير القرآن بالقرآن ، أو بالسنة لأنها جاءت مبينة لكتاب الله ، أو بما روي عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله ، أو بما قاله كبار التابعين لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة .

وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة في معنى الآية فيذكرها ، ولا يجتهد في بيان معنى من غير أصل ، ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح .

قال ابن تيمية : يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن ، كما بين لهم ألفاظه ، فقلوه تعالى (لتبين للناس ما نزل إليهم) يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن . كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً » ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة ، قال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا » رواه أحمد في مسنده ، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمانين سنين ، أخرجه مالك

في الموطأ ، وذلك أن الله تعالى قال : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) .
وقال (أفلا يتدبرون القرآن) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وأيضاً
فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه ،
فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم
ودنياهم ؟ » (١)

ومن التابعين من أخذ التفسير كله عن الصحابة ، عن مجاهد قال :
« عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ،
استوقفه عند كل آية وأسأله عنها »

الاختلاف فيه

والتفسير بالمأثور يدور على رواية ما نقل عن صدر هذه الأمة ، وكان
الاختلاف بينهم قليلاً جداً بالنسبة إلى من بعدهم ، وأكثره لا يعدو أن يكون
خلافاً في التعبير مع اتحاد المعنى ، أو يكون من تفسير العام ببعض أفرادها على
طريق التمثيل ، قال ابن تيمية : « والخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغالب
ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، وذلك
نوعان :

أحدها : أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على
معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ، كتفسيرهم « الصراط
المستقيم) قال بعضهم : القرآن أي اتباعه ، وقال بعضهم : الإسلام ، فالقولان
متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير
الوصف الآخر .

الثاني : أن يذكر كل منهما من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل

(١) الإتيان ١٧٦ ج ٢ .

وتنبية المستمع على النوع ، ومثاله : ما نقل في قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ٣٢ - فاطر) قيل : السابق : الذي يصلي في أول الوقت ، والمقتصد : الذي يصلي في أثنائه ، والظالم لنفسه ، الذي يؤخر العصر إلى الاصفراء - وقيل : السابق : المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد : الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط ، والظالم : مانع الزكاة ^(١) .

وقد يكون الاختلاف لاحتمال اللفظ الأمرين ، كلفظ (عسعس) الذي يراد به إقبال الليل وإدباره ، أو لأن الألفاظ التي عبر بها عن المعاني متقاربة ، كما إذا فسر بعضهم (تبسل) بتحبس ، وبعضهم بترهن ، لأن كلا منهما قريب من الآخر .

تجنب الاسرائ依ليات

وربما كان الاختلاف فيما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته مما وقع فيه بعض المفسرين في نقل اسرائ依ليات عن أهل الكتاب ، كاختلافهم في أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعددهم ، وقد قال الله تعالى (قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً ٢٢ - الكهف) واختلافهم في قدر سفينة نوح وخشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر وفي أسماء الطيور التي أحياها الله لابراهيم ، وفي نوع شجرة عصا موسى ، ونحو ذلك . فهذه الأمور طريق العلم بها النقل . فما كان منه منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل ، وإلا توقفنا عنه ، وإن كانت النفس تسكن إلى ما نقل عن الصحابة ، لأن نقلهم عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ^(٢) .

(١) الإتيان صفحة ١٧٧ ج ٢ .

(٢) في الحديث : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم .

حكم التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور هو الذي يجب اتباعه والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة ، وهو آمن سبيل للحفظ من الزلل والزيغ في كتاب الله . وقد روي عن ابن عباس أنه قال « التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله »

فالذي تعرفه العرب هو الذي يرجع فيه إلى لسانهم ببيان اللغة .

والذي لا يعذر أحد بجهله : هو ما يتبادر فهم معناه إلى الأذهان من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ولا لبس فيها ، فكل امرئ يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله - ١٩ القتال) وإن لم يعلم أن هذه العبارة وردت بطريق النفي والاستثناء فهي دالة على الحصر .

وأما ما لا يعلمه إلا الله ، فهو المغيبات ، كحقيقة قيام الساعة ، وحقيقة

الروح .

وأما ما يعلمه العلماء : فهو الذي يرجع إلى اجتهادهم المعتمد على الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي ، من بيان مجمل ، أو تخصيص عام ، أو نحو ذلك .

وقد ذكر ابن جرير الطبري نحو هذا . فقال : « فقد تبين ببيان الله جل ذكره : » أن مما أنزل الله من القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك تأويل جميع ما فيه : من وجوه أمره - واجبه ونذبه وإرشاده - وصنوف نهيه ، ووظائف حقوقه وحدوده ، ومبالغ فرائضه ، ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض ، وما أشبه ذلك من أحكام آية التي لم يدرك علمها إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته ، وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم له تأويله بنص منه عليه ، أو بدلالة قد نصبها دالة أمته على تأويله .

وأن منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار ، وذلك ما فيه من الخبر عن

آجال حادثة ، وأوقات آتية ، كوقت قيام الساعة ، والنفخ في الصور ، ونزول عيسى بن مريم ، وما أشبه ذلك (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يحليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ١٨٧ - الأعراف)

وأن منه ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن ، وذلك إقامة إعرابه ، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها ، والموضوعات بصفات الخاصة دون ما سواها ، فإن ذلك لا يحمله أحد منهم ، وذلك كسامع منهم لو سمع تالياً يتلو : (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ١١ ، ١٢ - البقرة) لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه مما هو مضر وأهـ الإصلاح هو ما ينبغي فعله مما فعله منفعة ، وإن جهل المعاني التي جعلها الله إفساداً ، والمعاني التي جعلها الله إصلاحاً .. » (١)

التفسير بالرأي

التفسير بالرأي : هو ما يعتمد فيه المفسر في بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأي المجرد - وليس منه الفهم الذي يتفق مع روح الشريعة ، ويستند إلى نصوصها فالرأي المجرد الذي لا شاهد له مدعاة للشطط في كتاب الله ، وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذه الروح كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم . كتفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم ، والجبائي ، وعبد الجبار ، والرماني ، والزنجشري وأمثالهم ،

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة يدس مذهبه في كلام يروج على كثير من الناس كما صنع صاحب الكشف في اعتزالياته ، وقال بعضهم أخف من

(١) تفسير الطبري صفحة ٧٤ ، ٧٥ ج ١ .

بعض ، فمنهم طوائف من أهل الكلام أولت آيات الصفات بما يتفق مع مذهبها .
وهؤلاء أقرب إلى أهل السنة من المعتزلة ، إلا أنهم حين جاؤوا بما يخالف مذهب
الصحابه والتابعين فقد شاركوا المعتزلة وغيرهم من أهل البدع .

حكم التفسير بالرأي

وتفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل حرام لا يجوز تعاطيه ،
قال تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم ٣٦ - الإسراء) وقال صلى الله عليه
وسلم : « من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار » ^(١) وفي
لفظ : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » .

ولهذا تخرج السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، فقد روي عن يحيى بن
سعيد عن سعيد بن المسيب « أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال :
« إنا لا نقول في القرآن شيئاً » ^(٢) .

وأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام « أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل
عن الأب في قوله تعالى (وفاكهة وأبا ٣١ - عبس) فقال : « أي سماء تظلني ؟
وأي أرض تقلني ؟ إذا قلت في كلام الله ما لا أعلم » ^(٣)

قال الطبري : « وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا : من أن ما
كان من تأويل أي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، أو بنصبه الدلالة عليه ، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه ، بل القائل
في ذلك برأيه - وإن أصاب الحق فيه - فمخطيء فيما كان من فعله ، بقيله فيه
برأيه ، لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق ، وإنما هو إصابة خاوص وظان ،

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود ، وقال الترمذي : هذا حسن .

(٢) رواه مالك في الموطأ .

(٣) ورواه ابن أبي شيبة والطبري .

والقائل في دين الله بالظن ، قائل على الله ما لا يعلم ، وقد حرم الله جل ثناؤه ذلك في كتابه على عباده ، فقال : (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ٣٣ - الأعراف) « (١) » .

فهذه الآثار وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم من الكلام في التفسير بما لا علم لهم به . أما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه ، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير - ولا منافاة - لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل إنسان ، ويكون الأمر أشد نكيراً لو ترك التفسير بالمأثور الصحيح وعدل عنه إلى القول برأيه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « وفي الحملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً ، بل مبتدعاً ، لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه ، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم » .

وقال الطبري : « فأحق المفسرين بإصابة الحق في تأويل القرآن - الذي إلى علم تأويله للعباد سبيل - أوضحهم حجة فيما تأول وفسر ، مما كان تأويله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم دون سائر أئمة ، من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه : إما من جهة النقل المستفيض فيما وجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض ، وإما من جهة نقل العدول الإثبات ، فيما لم يكن فيه عنه النقل المستفيض . أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته ، وأصحهم برهاناً - فيما ترجم وبين من ذلك - مما كان مدركاً علمه من جهة اللسان ، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة ، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة ، كائناً من كان ذلك المتأول والمفسر ، بعد أن لا يكون خارجاً تأويله وتفسيره ما تأول وفسر من ذلك ، عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة ، والخلف من التابعين وعلماء الأمة » (٢) .

(١) تفسير الطبري ، صفحة ٧٨ ، ٧٩ ج ١

(٢) تفسير الطبري صفحة ٩٣ ج ١

الاسرائيليات

لليهودية ثقافتها الدينية التي تستمد من التوراة . وللنصرانية ثقافتها الدينية التي تستمد من الانجيل . وقد انضوى تحت لواء الإسلام منذ ظهوره كثير من اليهود والنصارى ، وهؤلاء وأولئك ثقافتهم الدينية .

وقد اشتمل القرآن على كثير مما جاء في التوراة والانجيل ولا سيما ما يتعلق بقصص الأنبياء وأخبار الأمم ، ولكن القصص القرآني يحمل القول مستهدفاً مواطن العبرة والعظة دون ذكر للتفاصيل الحزنية كتاريخ الوقائع ، وأسماء البلدان والأشخاص ، أما التوراة فإنها تتعرض مع شروحها للتفاصيل والحزنيات ، وكذلك الإنجيل .

وحيث دخل أهل الكتاب في الاسلام فقد حملوا معهم ثقافتهم الدينية من الأخبار والقصص الديني ، وهؤلاء حين يقرؤون قصص القرآن قد يتعرضون لذكر التفاصيل الواردة في كتبهم ، وكان الصحابة يتوقفون إزاء ما يسمعون من ذلك ، امثالاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمناً بالله وما أنزل إلينا .. » ^(١) وقد يدور حوار بينهم وبين أهل الكتاب في شيء من تلك الحزنيات ، ويقبل الصحابة بعض ذلك ما دام لا يتعلق بالعقيدة ولا يتصل بالأحكام ، ثم يتحدثون به ، لما فهموه من الإباحة في قوله صلى الله عليه وسلم : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ^(٢) . أي حدثوا عن بني اسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، أما ما جاء في الحديث الأول : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » فهو محمول على ما إذا كان ما يخبرون به محتملاً لأن يكون صدقاً ، ولأن يكون كذباً ، فلا تعارض بين الحديثين .

(١) أخرجه البخاري

(٢) أخرجه البخاري

تلك الأخبار التي تحدث بها أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام هي التي يطلق عليها الإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصراني ، حيث كان النقل عن اليهود أكثر لشدة اختلاطهم بالمسلمين منذ بدأ ظهور الإسلام . وكانت الهجرة إلى المدينة .

ولم يأخذ الصحابة عن أهل الكتاب شيئاً في تفسير القرآن من الأخبار الحزنية سوى القليل النادر ، فلما جاء عهد التابعين وكثر الذين دخلوا في الإسلام من أهل الكتاب كثر أخذ التابعين عنهم ، ثم عظم شغف من جاء بعدهم من المفسرين بالإسرائيليات قال ابن خلدون : « وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكنونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى ... فامتألت التفاسير من المنقولات عنهم .. » (١) .

ولم يكن المفسرون يتحرون صحة النقل فيما يأخذونه من هذه الإسرائيليات ، ومنها ما هو فاسد باطل ، لذا كان على من يقرأ في كتبهم أن يتجاوز عما لا طائل تحته ، وألا ينقل منها إلا ما تدعو إليه الضرورة وتبين صحة نقله ، ويظهر صدق خبره .

وأكثر ما يروى من هذه الإسرائيليات إنما يروى عن أربعة أشخاص : هم : عبدالله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وقد اختلفت أنظار العلماء في الحكم عليهم والثقة بهم ، ما بين مجرح وموثق ، وأكثر الخلاف يدور حول كعب الأحبار . وكان عبدالله بن سلام أكثرهما علماً ، وأعلاهم قدراً . واعتمده البخاري وغيره من أهل الحديث ، ولم ينسب إليه من التهم ما نسب إلى كعب الأحبار ووهب بن منبه .

(١) انظر التفسير والمفسرون صفحة ١٧٧ ج ١

تفسير الصوفية

إذا أريد بالتصوف السلوك التعبدي المشروع الذي تصفو به النفس ، وترغب عن زينة الدنيا بالزهد والتقشف . والعبادة ، فذلك أمر لا غبار عليه إن لم يكن مرغوباً فيه . ولكن التصوف أصبح فلسفة نظرية خاصة لا صلة لها بالورع والتقوى والتقشف ، واشتملت فلسفته على أفكار تتنافى مع الإسلام وعقيدته . وهذا هو الذي نعنيه هنا ، وهو الذي كان له أثره في تفسير القرآن .

ويعتبر ابن عربي زعيم التصوف الفلسفي النظري وهو يفسر الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع نظرياته الصوفية سواء كان ذلك في التفسير المشهور باسمه ، أو في الكتب التي تنسب إليه كالفصوص ، وهو من أصحاب نظرية وحدة الوجود . فهو يفسر مثلاً قوله تعالى في شأن إدريس عليه السلام : (ورفعهنا مكاناً علياً ٥٧ - مريم) بقوله : وأعلى الأمكنة المكان الذي تدور عليه رحي عالم الافلاك ، وهو فلك الشمس ، وفيه مقام روحانية إدريس ... ثم يقول : وأما علو المكانة فهو لنا أعني المحمدين ، كما قال تعالى (وأنتم الأعلون والله معكم ٣٥ - محمد) في هذا العلو وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة .

ويقول في تفسير قوله تعالى في أول سورة النساء : (يأيتها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ...) اتقوا ربكم : اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم ، واجعلوا ما بطن منكم -- وهو ربكم -- وقاية لكم ، فإن الأمر دم وحمد ، فكونوا وقاية في الدم ، واجعلوه وقايتكم في الحمد تكونوا أدباء عالمين ^(١) .

فهذا التفسير ونظائره يحمل النصوص على غير ظاهرها ، ويغرق في التأويلات الباطنية البعيدة ، ويجر إلى متاهات من الإلحاد والزيف .

(١) انظر : المفسرون والمفسرون صفحة ٧ ، ٨ .. ج ٣

التفسير الإشاري

ومن هؤلاء المتصوفة من يدعي أن الرياضة الروحية التي يأخذ بها الصوفي نفسه تصل الى درجة ينكشف له فيها ما وراء العبارات القرآنية من إشارات قدسية ، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية ، ويسمى هذا بالتفسير الإشاري ، فلاآية ظاهر وباطن ، والظاهر : هو الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره ، والباطن هو : ما وراء ذلك من إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك وهذا التفسير الإشاري كذلك إذا أوغل في الإشارات الخفية صار ضرباً من التجهيل ، ولكنه إذا كان استنباطاً حسناً يوافق مقتضى ظاهر العربية وكان له شاهد يشهد لصحته من غير معارض ، فإنه يكون مقبولاً .

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم . فما رثيت أنه دعاني يومئذ إلا ليربهم ، قال : ما تقولون في قوله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح) فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ، فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له ، قال : إذا جاء نصر الله والفتح ، وذلك علامة أجلك ، فسيح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول » ^(١) .

قال ابن القيم : « وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول : تفسير على اللفظ ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون ، وتفسير على المعنى : وهو الذي يذكره السلف ، وتفسير على الإشارة : وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم ، وهذا لا بأس به بأربعة شروط : ١ - ألا يناقض معنى الآية - ٢ - وأن يكون

(١) أخرجه البخاري

معنى صحيحاً في نفسه - ٣ - وأن يكون في اللفظ إشعار به - ٤ - وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم ، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً .

غرائب التفسير

من الناس من له شغف بالإغراب في القول وإن حاد عن الجادة وركب مسلكاً وعراً ، فكلفوا أنفسهم من الأمر ما لا يطيقون ، وأعملوا فكرهم فيما لا يعلم إلا بالتوقيف ، فخرجوا وليس في يدهم سوى ما تسفههم عقولهم من الرعونة والغف ، ولهذا عجائب في معاني آيات من القرآن نذكر من غرائبها : -

١ - قول من قال في (ألم) معنى ألف : ألف الله محمداً فبعثه نبياً - ومعنى لام : لامة الجاحدون وأنكروه - ومعنى ميم - ميم الجاحدون المنكرون ، من الموم بالضم وهو البرسام ، علة يهذي المعلوم فيها .

٢ - قول من قال في (حم عسق) إن الحاء : حرب علي ومعاوية - والميم : المروانية « نسبة إلى مروان من بني أمية » والعين : ولاية العباسية - والسين : ولاية السفينانية - والقاف : قدوة مهدي .

٣ - ما ذكره ابن فورك في تفسير قوله تعالى (ولكن ليطمئن قلبي ٢٦٠ - البقرة) إن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه ، أي ليسكن هذا الصديق إلى هذه المشاهدة إذا رآها عياناً .

٤ - قول أبي معاذ النحوي في قوله تعالى (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ٨٠ - يس) يعني من إبراهيم نارا ، أي نورا ، هو محمد صلى عليه وسلم (فإذا أنتم منه توقدون) تقتبسون الدين .

التعريف بأشهر كتب التفسير

تزخر المكتبة الإسلامية بكتب التفسير بالمأثور ، وكتب التفسير بالرأي ، وكتب التفسير المعاصر . وبعض هذه الكتب أشهر من بعض في التداول بين أيدي القراء .

أشهر الكتب المؤلفة في التفسير بالمأثور

- ١ - التفسير المنسوب إلى ابن عباس .
- ٢ - تفسير ابن عيينة
- ٣ - تفسير ابن أبي حاتم
- ٤ - تفسير أبي الشيخ ابن حيان
- ٥ - تفسير ابن عطية
- ٦ - تفسير أبي الليث السمرقندي « بحر العلوم » .
- ٧ - تفسير أبي اسحاق الثعلبي « الكشف والبيان عن تفسير القرآن » .
- ٨ - تفسير ابن جرير الطبري « جامع البيان في تفسير القرآن »

٩ - تفسير ابن أبي شيبة

١٠ - تفسير البغوي معالم التنزيل

١١ - تفسير أبي الفداء الحافظ ابن كثير « تفسير القرآن العظيم »

١٢ - تفسير الشوكاني « فتح القدير » .

وسنعرف ببعض منها :

١ - تفسير ابن عباس

ينسب إلى ابن عباس رضي الله عنه جزء كبير في التفسير . طبع في مصر مراراً باسم : « تنوير المقياس من تفسير ابن عباس » جمعه « أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز ابادي الشافعي » . صاحب القاموس المحيط .

وابن عباس ، كان يحق « ترجمان القرآن » وكان عمر بن الخطاب يثق بتفسيره ويحمله ، وقد أخذ في بعض المواضع عن أهل الكتاب فيما اتفق القرآن فيه مع التوراة والإنجيل ، وذلك في دائرة محدودة .

وقد أهتمه الأستاذ جولد زهر في كتاب « المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن » بالتوسع في الأخذ عن أهل الكتاب ، ونسج على منواله الأستاذ أحمد امين في « فجر الإسلام » وتولى الرد عليهما الأستاذ محمد حسين الذهبي في كتابه « التفسير والمفسرون » ^(١) فابن عباس كغيره من الصحابة ما كان يسأل علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام عن شيء يمس العقيدة ، أو يتصل بأصول الدين أو فروعه، إنما كان يقبل الصواب الذي لا يتطرق إليه الشك في بعض القصص والأخبار الماضية .

ويمتاز ابن عباس برجوعه في فهم معاني ألفاظ القرآن إلى الشعر العربي ، لمعرفته بلغة العرب وإلمامه بديوانها .

(١) أنظر صفحة ٧٢ ، ٧٣ - ج ١ .

وتتعدد الروايات عن ابن عباس ، وتتفاوت صحة وضعفاً ، وقد تتبع العلماء هذه الروايات وكشفوا عن مبلغها من الصحة . فمن أشهر طرق هذه الروايات .

١ - طريق معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس - وهذه هي أجود الطرق عنه ، وفيها قال الإمام أحمد « إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً » (١) وقال الحافظ بن حجر : « وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث - رواها عن معاوية بن صالح - عن علي بن أبي طلحة - عن ابن عباس ، وهي عند البخاري عن أبي صالح ، وقد اعتمد عليها في صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس .

٢ - طريق قيس بن مسلم الكوفي عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين .

٣ - طريق ابن اسحاق صاحب السير ، عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت ، عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - وهي طريق جيدة ، وأسنادها حسن .

٤ - طريق اسماعيل عبد الرحمن السدي الكبير ، تارة عن أبي مالك ، وتارة عن أبي صالح عن ابن عباس ، وإسماعيل السدي مختلف فيه ، وهو تابعي شيعي ، وقال السيوطي : روى عن السدي الأئمة مثل الثوري وشعبة ، لكن التفسير الذي جمعه رواه أسباط بن نصر ، وأسباط لم يتفقا عليه ، غير أن أمثل التفسير « تفسير السدي » .

٥ - طريق عبد الملك بن جريج عن ابن عباس - وهذه الطريق تحتاج إلى دقة في البحث ، فإن ابن جريج روى ما ذكر في كل آية من الصحيح والسقيم .

٦ - طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس - وهي طريق غير

(١) الإثنان ، صفحة ١٨٨ ج ٢ .

مقبولة ، لأن الضحاك مختلف في توثيقه ، وطريقه إلى ابن عباس منقطعة ، لأنه لم يلقه . فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة ، عن أبي روق . عن الضحاك ، فضعيفة ، لضعف بشر .

٧ - طريق عطية العوفي ، عن ابن عباس ، وهي غير مقبولة ، لأن عطية ضعيف .

٨ - طريق مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني - ومقاتل ضعيف ، يروي عن مجاهد وعن الضحاك ولم يسمع منهما ، وقد كذبه غير واحد ، ولم يوثقه أحد ، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه ، وقال أحمد بن حنبل : « لا يعجبني أن أروي عن مقاتل بن سليمان شيئاً » .

٩ - طريق محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس - وهذه أو هي الطرق ، والكلبي مشهور بالتفسير ، وقد قيل فيه : أجمعوا على ترك حديثه ، وليس بثقة ، ولا يكتب حديثه ، واتهمه جماعة بالوضع ، ولذا قال السيوطي في الإتقان : فإن انضم إلى ذلك - أي إلى طريق الكلبي - رواية محمد بن مروان السدي الصغير عنه فهي سلسلة الكذب .

ويتضح من التفسير المنسوب إلى ابن عباس أن معظم ما روي عن ابن عباس في هذا الكتاب - إن لم يكن جميعه يدور على محمد بن مروان السدي الصغير ، عن محمد بن السائب الكلبي . عن أبي صالح عن ابن عباس ، وقد عرفنا مبلغ رواية السدي الصغير عن الكلبي فيما تقدم .

٢ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري

يعتبر ابن جرير الطبري من الأئمة الأعلام الذين برعوا في علوم كثيرة ، وتركوا تراثاً إسلامياً ضخماً تناقلته العصور والأجيال ، وقد أحرز شهرة واسعة بكتابه : في التاريخ : تاريخ الأمم والملوك ، والتفسير ، جامع البيان في تفسير

القرآن . وهما من أهم المراجع العلمية . بل ان كتابه في التفسير هو المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير بالمأثور .

ويقع تفسير ابن جرير في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير ، وقد كان مفقوداً إلى عهد قريب ، ثم قدر الله له الظهور حين وجدت نسخة مخطوطة في حيازة أمير « حائل » الأمير حمود بن عبد الرشيد من أمراء نجد ، طبع عليها الكتاب منذ زمن قريب ، فأصبحت في يدنا دائرة معارف غنية في التفسير بالمأثور .

وهو تفسير عظيم القيمة ، لا غنى لطالب التفسير عنه ، قال السيوطي : « وكتابه - يعني تفسير محمد بن جرير - أجل التفاسير وأعظمها ، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، والإعراب ، والاستنباط ، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين » وقال النووي : « أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري » (١) .

وتفسير الطبري أقدم كتابه وصل إلينا كاملاً في التفسير . فإن المحاولات التفسيرية قبله لم يصل إلينا شيء منها ، اللهم إلا ما وصل إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب .

وطريقة ابن جرير في تفسيره إنه إذا أراد أن يفسر الآية من القرآن يقول : « القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا » ثم يفسر الآية مستشهداً بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين من التفسير بالمأثور عنهم ، ويعرض لكل ما روي في الآية ، ولا يقتصر على مجرد الرواية ، بل يوجه الأقوال ويرجح بعضها على بعض ، كما يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك ، ويستنبط بعض الأحكام . وقد يقف من السند موقف الناقد البصير أحياناً ، فيعدل من رجال الإسناد ، ويخرج من يخرج منهم ، ويرد الرواية التي لا يثق بصحتها .

(١) الإتيقان ، صفحة ١٩٠ ج ٢ .

ويعتني ابن جرير بذكر القراءات وتوجيهها ، ويقال : انه ألف فيها مؤلفاً خاصاً .

ومع روايته الأخبار المأخوذة من القصص الإسرائيلي فانه كثيراً ما يتعقبها بالبحث .

ويعتمد ابن جرير على الاستعمالات اللغوية بجانب الروايات المنقولة ، ويستشهد بالشعر القديم ، ويهتم بالمذاهب النحوية ، ويحتكم إلى المعروف من لغة العرب ، ويعالج الأحكام الفقهية مجتهداً ، فيذكر أقوال العلماء ومذاهبهم ، ويخلص من ذلك برأي يختاره لنفسه ويرجحه .

ويناقش مسائل العقيدة مناقشة فاحصة ، يرد فيها على الفرق ومذاهب أهل الكلام ، وينتصر لأهل السنة والجماعة .

وقد طبعت دار المعارف بمصر كتابه ، في اخراج حسن ، وخرج أحاديثه الأستاذ أحمد محمد شاكر ، ولكن هذه الطبعة لم تتم . مع عظيم نفعها ، والعناية بتحقيقها .

٣ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية

ابن عطية من قضاة الأندلس المشهورين ، نشأ في بيت علم وفضل ، وكان فقيهاً جليلاً ، عارفاً بعلوم الحديث والتفسير واللغة والأدب ، ذكي الفؤاد ، حسن الفهم ، من أعيان مذهب المالكية . وكتابه في التفسير يسمى « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » .

وقد لخص فيه ابن عطية ما روي من التفسير بالمنقول وأضفى عليه من روحه العلمية الفياضة ما أكسبه دقة ورواجا ، والكتاب يقع في عشر مجلدات كبار ، ولا يزال مخطوطاً إلى اليوم ، وذكر الشيخ محمد الذهبي ^(١) أنه يوجد منه في دار

(١) التفسير والمفسرون صفحة ٣٤٠ ج ١ .

الكتب المصرية أربعة أجزاء فقط . مع أن الكتاب له شهرته ، وينقل عنه كثير من المفسرين . وهو كثير الاهتمام بالشواهد الأدبية ، والصناعة النحوية . ويقارن أبو حيان في مقدمة تفسيره بينه وبين تفسير الزمخشري فيقول : « وكتاب ابن عطية أنقل ، وأجمع ، وأخلص ، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص » .

ويعقد ابن تيمية مقارنة بين الكتابين كذلك فيقول : « وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلاً وبحثاً ، وأبعد عن البدع ، وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفسيرات » .

ويقول ابن تيمية كذلك : « وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة ، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفسيرات المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل . فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري - وهو من أجل التفسيرات وأعظمها قدراً - ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لايحكيه بحال ، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة ، أصولهم ، وإن كان أقرب إلى السنة من المعتزلة » ^(١) .

٤ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير

كان عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير إماماً جليلاً حافظاً . أخذ عن ابن تيمية ، واتبعه في كثير من آرائه . وشهد له العلماء بغزارة علمه في التفسير والحديث والتاريخ ، وكتابه في التاريخ « البداية والنهاية » مرجع أصيل للتاريخ الإسلامي . وكتابه في التفسير « تفسير القرآن العظيم » من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور ، ويأتي في المرتبة الثانية بعد كتاب ابن جرير ، فهو يفسر كلام الله بالأحاديث والآثار مستندة إلى أصحابها ، مع الكلام عما يحتاج إليه

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير صفحة ٢٣ .

جزحاً وتعديلاً ، وترجيح بعض الأقوال على بعض ، وتضعيف بعض الروايات وتصحيح بعضها الآخر .

ويمتاز ابن كثير بأنه ينبه في كثير من الأحيان إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات ، كما يذكر أقوال العلماء في الأحكام الفقهية ، ويناقش مذاهبهم وأدلتهم أحياناً .

وتفسير ابن كثير طبع مع « معالم التنزيل » للبغوي ، وطبع مستقلاً في أربعة أجزاء كبار ، وقام الشيخ أحمد شاكر بطبعه قبيل وفاته بعد أن جرده من الأسانيد.

أشهر الكتب المؤلفة في التفسير بالرأي

- ١ - تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم
- ٢ - تفسير أبي علي الجبائي .
- ٣ - تفسير عبد الجبار .
- ٤ - تفسير الزمخشري « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل ، في وجوه التأويل » .
- ٥ - تفسير فخر الدين الرازي « مفاتيح الغيب »
- ٦ - تفسير ابن فورك
- ٧ - تفسير الشفي « مدارك التنزيل وحقائق التأويل »
- ٨ - تفسير الحازن « لباب التأويل في معاني التنزيل »
- ٩ - تفسير أبي حيان « البحر المحيط »
- ١٠ - تفسير البيضاوي « أنوار التنزيل وأسرار التأويل »
- ١١ - تفسير الجلالين : جلال الدين المحلي ، وجلال الدين السيوطي .

أما جلال الدين المحلي ، فقد ابتداء تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس ، ثم ابتداء بتفسير الفاتحة ، وبعد أن أتمها اختارته المنية فلم يفسر ما بعدها .

وأما جلال الدين السيوطي . فقد جاء بعد الجلال المحلي فأكمل تفسيره ، فأبتداء بتفسير سورة البقرة وانتهى عند آخر سورة الإسراء ، ووضع تفسير الفاتحة في آخر تفسير الجلال المحلي لتكون ملحقة به .

وكثيراً ما يخطئ بعض الناس في هذا التقسيم .

١٢ - تفسير القرطبي « الجامع لأحكام القرآن » .

١٣ - تفسير أبي السعود « إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم »

١٤ - تفسير الألوسي « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني »
وسنعرف ببعض منها :

١ - مفاتيح الغيب

للرازي

فخر الدين الرازي من العلماء المتبحرين الذين نبغوا في العلوم النقلية والعلوم العقلية ، واكتسب شهرة عظيمة طوّقت به في الآفاق ، وله مصنفات كثيرة ، ومن أهم مصنفاته تفسيره الكبير ، المسمى بمفاتيح الغيب .

ويقع هذا التفسير في ثماني مجلدات كبار ، وتدل الأقوال على أن الفخر الرازي لم يتمه . وتتضارب الآراء في الموضوع الذي انتهى إليه في تفسيره ، وفيمن أتمه بعده . ويعلق على هذا الشيخ محمد الذهبي فيقول : « والذي أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب ، هو أن الإمام فخر الدين كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء ، فأتى بعده شهاب الدين الخويزي فشرع في تكملة هذا التفسير

ولكنه لم يتمه ، فأتى بعده نجم الدين القمولي فأكمل ما بقي منه ، كما يجوز أن يكون الخوئي أكمله إلى النهاية ، والقمولي كتب تكملة أخرى غير التي كتبها الخوئي ، وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون ^(١) .

والقارئ لهذا التفسير لا يجد تفاوتاً في المنهج والمسلوك ، ولا يستطيع أن يميز بين الأصل والتكملة .

وبهم الفخر الرازي ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره ، ويكثر من الاستطراد إلى العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والفلسفية ومباحث الإلهيات على نمط استدلالات الفلاسفة العقلية ، ويذكر مذاهب الفقهاء ، ومعظم ذلك لا حاجة إليه في علم التفسير .

فكتابه موسوعة علمية في علم الكلام ، وفي علوم الكون والطبيعة ، وبهذا فقد أهميته كتفسير للقرآن الكريم .

٢ - البحر المحيط لأبي حيان

كان أبو حيان الأنديلسي الغرناطي على جانب كبير من المعرفة باللغة ، وكان على علم واسع في التفسير ، والحديث ، وتراجم الرجال ، ومعرفة طبقاتهم ، خصوصاً المقاربة ، وله مؤلفات كثيرة ، أهمها تفسيره « البحر المحيط » .

ويقع هذا التفسير في ثماني مجلدات كبار ، وهو مطبوع متداول ، وبهم أبو حيان فيه بذكر وجوه الإعراب ، ومسائل النحو ، ويتوسع في هذا فيذكر الخلاف بين النحويين ، ويناقش ويجادل ، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير .

وينقل أبو حيان في تفسيره كثيراً من تفسير الزمخشري وتفسير ابن عطية ، ولا سيما ما يتعلق بمسائل النحو وجوه الإعراب ، ويتعقبها كثيراً بالرد ، ويحمل

(١) التفسير والمفسرون ٢٩٣ ج ١ .

على الزمخشري أحياناً حملات قاسية ، وإن كان يشيد بما له من مهارة فائقة في تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه .

ولا يرضى أبو حيان عن اعتزاليات الزمخشري فينقدها ويردها بأسلوب ساخر ، ويعتمد في أكثر نقوله على كتاب « التحرير والتجوير لأقوال أئمة التفسير » وهو لشيخه : جمال الدين أبي عبدالله محمد بن سليمان المقدسي المعروف بابن النقيب ، ويذكر أبو حيان عنه أنه أكبر كاتب صنف في علم التفسير ، يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد .

٣ - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري

كان الزمخشري عالماً عبقرياً فذاً في النحو واللغة والأدب والتفسير ، وآراؤه في العربية يستشهد علماء اللغة بها لأصالتها ودقتها .

والزمخشري معتزلي الاعتقاد ، حنفي المذهب ، ألف كتاب « الكشف » بما يدعم عقيدته ومذهبه .

واعتراليات الزمخشري في تفسيره إمارات على حذقه ودهائه ومهارته ، فهو يأتي بالإشارات البعيدة ليضمنها معنى الآية في الانتصار للمعتزلة والرد على خصومهم . ولكنه في الجانب اللغوي كشف عن جمال القرآن وسحر بلاغته لما له من إحاطة بعلوم البلاغة والبيان والأدب والنحو والتصريف ، فكان مرجعاً لغوياً غنياً ، وهو يشير في مقدمته إلى هذا فيذكر أن من يتصدى للتفسير لا يغوص على شيء من حقائقه ، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني ، وعلم البيان . وتمهل في ارتيادهما آتية ، وتعب في التنقيب عنهما أزمته ، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامعاً

بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زماناً ورجع إليه ، ورد عليه ، فارساً في علم الإعراب ، مقدماً في حملة الكتاب . وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مستقل القرينة وقادها .

ويحلل ابن خلدون كتاب الكشف للزمخشري في قوله عند الحديث عما يرجع إليه التفسير من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة « ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير ، كتاب الكشف للزمخشري ، من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد ، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرض له في أي القرآن من طرق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير للجمهور من مكانته ، مع اقترانهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة ، وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية ، محسناً للحجاج عنها ، فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فلتغتم مطالعته لغربة فنونه في اللسان ، ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين ، وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز من عراق العجم ، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا ، وتتبع ألفاظه ، وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزييفها ، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة ، لا على ما يراه المعتزلة ، فأحسن في ذلك ما شاء ، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة ، وفوق كل ذي علم عليم » (١)

أشهر كتب التفسير في العصر الحديث

لقد أعطى المفسرون الأوائل كتب التفسير حظها من المنقول والمعقول ، وتوافروا على المباحث اللغوية ، والبلاغية ، والنحوية ، والفقهية والمذهبية والكونية الفلسفية ثم فترت الهمم ، وجاء من بعدهم مختصراً وناقلاً ، أو مفنداً ومرجحاً .

فلما جاءت النهضة العلمية في العصر الحديث شملت فيما شملته « التفسير »

وليك أمثلة منه : —

(١) مقدمة ابن خلدون ، صفحة ٩١ .

١ - « الجواهر في تفسير القرآن » للشيخ طنطاوي جوهرى « كان الشيخ طنطاوي جوهرى مغرمًا بالعجائب الكونية ، وكان مدرساً بمدرسة دار العلوم في مصر ، يفسر بعض آيات القرآن على طلبتها ، كما كان يكتب في بعض الصحف ثم خرج بمؤلفه في التفسير « الجواهر في تفسير القرآن » .

وقد عني في هذا التفسير عناية فائقة ، بالعلوم الكونية ، وعجائب الخلق ، ويقرر في تفسيره أن في القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية ، ويهيب بالمسلمين أن يتأملوا في آيات القرآن التي ترشد إلى علوم الكون ، ويحثهم على العمل بما فيها ، ويفضلها على غيرها في الوقت الحاضر ، حتى على فرائض الدين ، فيقول : « يا ليت شعري : لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آبائنا في آيات الميراث ؟ ولكني أقول : الحمد لله . الحمد لله ! إنك تقرأ في هذا التفسير . خلاصات من العلوم ، ودراساتها أفضل من دراسة علم الفرائض ، لأنه فرض كفاية ، فأما هذه فإنها للزيادة في معرفة الله ، وهي فرض عين على كل قادر » ويأخذ الغرور منه مأخذه ، فينحى باللائمة على المفسرين السابقين ، ويقول : « ان هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الاسلام ، فهذا زمان الانقلاب ، وظهور الحقائق ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

والمؤلف يخلط في كتابه خلطاً ، فيضع في تفسيره صور النبات والحيوانات ومناظر الطبيعة ، وتجارب العلوم كأنه كتاب مدرسي في العلوم ، ويشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون في جمهوريته ، وعن إخوان الصفا في رسائلهم ، ويستخدم الرياضيات ، ويفسر الآيات تفسيراً يقوم على نظريات علمية حديثة .

وقد أساء الشيخ طنطاوي جوهرى في نظرنا بهذا إلى التفسير إساءة بالغة من حيث يظن أنه يحسن صنعاً ولم يجد تفسيره قبولاً لدى كثير من المثقفين . لما فيه من تعسف في حمل الآيات على غير معناها ، ولذا وصف هذا التفسير بما وصف به تفسير الفخر الرازي ، فقليل عنه « فيه كل شيء إلا التفسير » .

٢ - تفسير المنار

للسيد محمد رشيد رضا

لقد قام الشيخ محمد عبده بنهضة علمية مباركة، آتت ثمارها في تلاميذه ، وترتكز هذه النهضة على الوعي الإسلامي ، وإدراك مفاهيم الإسلام الاجتماعية ، وعلاج هذا الدين لمشاكل الحياة المعاصرة ، وبدأت نواة ذلك في حركة جمال الدين الأفغاني ، الذي تتلمذ عليه الشيخ محمد عبده ، وكان الشيخ محمد عبده يلقي دروساً في التفسير بالجامع الأزهر ، ولازمه كثير من طلابه ومريديه ، وكان الشيخ رشيد أأزم الناس لهذه الدروس ، وأحرصهم على تلقيها وضبطها ، فكان يحق الوارث الأول لعلم الشيخ محمد عبده . فظهرت ثمرة ذلك في تفسيره المسمى بتفسير القرآن الحكيم ، والمشهور بتفسير المنار . نسبة إلى مجلة « المنار » التي كان يصدرها .

وقد بدأ تفسيره من أول القرآن ، وانتهى عند قوله تعالى (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفي مسلماً وألحقي بالصالحين . ١٠١ - يوسف) ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن ، وهذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلداً كباراً . وهو تفسير غني بالمأثور عن سالف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، وبأساليب اللغة العربية ، وبسنن الله الاجتماعية ، يشرح الآيات بأسلوب رائع ، ويكشف عن المعاني بعبارة سهلة ، ويوضح كثيراً من المشكلات ، ويرد على ما أثير حول الإسلام من شبهات خصومه ، ويعالج أمراض المجتمع بهدي القرآن ، ويصرح الشيخ رشيد بأن هدفه من هذا التفسير هو : « فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة »

٢ - في ظلال القرآن

لسيد قطب

تعتبر حركة الإخوان المسلمين التي قام بها الشهيد حسن البنا كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة بلا مرأى ، ولا يستطيع أحد من خصومها أن ينكر فضلها فيما أحدثته من وعي في العالم الإسلامي كافة ، فجزر طاقات الشباب المسلم لخدمة الإسلام ، وإعزاز شريعته ، وإعلاء كلمته ، وبناء مجده . واستعادة سلطانه .

ومهما قيل في الأحداث التي وقعت على هذه الجماعة فإن أثرها الفكري لا يحجده إنسان .

وبرز من رجال هذه الجماعة العالم الفذ ، والمفكر الألمعي ، الشهيد سيد قطب ، الذي فلسف الفكر الإسلامي ، وكشف عن مفاهيمه الصحيحة في وضوح وجلاء ، وقد لقي الرجل ربه شهيداً في سبيل عقيدته وترك تراثه الفكري ، وفي مقدمته كتابه في تفسير القرآن ، المسمى « في ظلال القرآن » .

والكتاب تفسير كامل للحياة في ضوء القرآن وهدي الإسلام . عاش مؤلفه في ظلال الذكر الحكيم ، كما يفهم من تسميته - يتذوق حلاوة القرآن ، ويعبر عن مشاعره تعبيراً صادقاً . انتهى فيه إلى أن الإنسانية اليوم في شقاؤها بالمذاهب الهدامة ، وصراعها الدامي من حين لآخر ، لا خلاص لها إلا بالإسلام : يقول في المقدمة : « وانتهيت من فترة الحياة في ظلال القرآن - إلى يقين جازم حاسم .. أنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الإنسان ، ولا رفعة ولا بركة ، ولا طهارة ، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة .. إلا بالرجوع إلى الله .

والرجوع إلى الله - كما يتجلى في ظلال القرآن - له صورة واحدة ، وطريق واحد ... واحد لا سواه .. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم ، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها ، والتحاكم إليه وحده

في شئونها ، وإلا فهو الفساد في الأرض ، والشقاوة للناس ، والارتكاس في الحماة ،
والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله ، (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون
أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم
الظالمين) .

إن الاحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعاً ولا موضع اختيار ،
إنما هو الإيمان ، .. أو فلا إيمان (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله
أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها
ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً . وإن الظالمين
بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين) (١) .

ومن هذا المنطلق نهج سيد قطب في تفسيره . وهو يأتي أولاً بظلاله في
مقدمة السورة ، تربط بين أجزائها ، وتوضح أهدافها ومقاصدها ، ثم يشرع
بعد ذلك في التفسير ، فيذكر المأثور الصحيح ، ويضرب صفحا عن المباحث
اللغوية مكثفياً بالإشارة العابرة ، ويتجه إلى ايقاظ الوعي ، وتصحيح المفاهيم ،
وربط الإسلام بالحياة .

والكتاب يقع في ثمانى مجلدات ، وقد طبع عدة طبعات ، في سنوات معدودة ،
لما له من رواج كبير لدى المثقفين .

وهو بحق ثروة فكرية اجتماعية هائلة لا يستغني عنها المسلم المعاصر .

٣ - التفسير البياني للقرآن الكريم

لعائشة عبد الرحمن

بنت الشاطيء

من تسائنا المعاصرات اللاتي أسهمن بنصيبهن في الأدب العربي - والفكر
الاجتماعي الدكتور عائشة عبد الرحمن ، المشهورة ببنت الشاطيء .

(٢) صفحة (٨) المجلد الأول - الجزء الأول .

وقد تولت التدريس في كلية الآداب بالقاهرة ، وفي كلية التربية للبنات .
وتناولت في تدريسها تفسير بعض سور القرآن القصار . وطبعت ذلك في « التفسير
البياني للقرآن » .

وبنت الشاطيء هم في تفسيرها بالبيان العربي وتذكر في المقدمة أنها اهتمت
إلى هذه الطريقة لمعالجة مشكلاتنا في حياتنا الأدبية واللغوية ، وأنها بحثت ذلك
في عدة مؤتمرات دولية ، ففي مؤتمر المستشرقين الدولي في الهند سنة ١٩٦٤ - كان
موضوع البحث الذي شاركت به في شعبة الدراسات الإسلامية ، هو « مشكلة
الترادف اللغوي » ، في ضوء التفسير البياني للقرآن الكريم » تقول : « وفيه بينت
كيف شهد تتبع الدقيق لمعجم ألفاظ القرآن - واستقراء دلالاتها في سياقها ، بأن
القرآن يستعمل اللفظ بدلالة محدودة ، لا يمكن معها أن يقوم لفظ مقام آخر ،
في المعنى الواحد الذي تحشد له المعاجم اللغوية وكتب التفسير ، عدداً قل أو كثر
من الألفاظ المقول بترادفها » .

وتعيب بنت الشاطيء على الانشغال في دروس الأدب بالمعلقات والنقائض
والمفضليات ومشهور الحمريات والحماسيات عن الاتجاه إلى القرآن الكريم ، ثم
تقول : « ونحن في الجامعة نترك هذا الكثر العالي لدرس التفسير ، وقل فينا من
حاول أن ينقله إلى مجال الدراسة الأدبية الخالصة التي قصرناها على دواوين الشعر ،
ونثر أمراء البيان » .

والتفسير البياني محاولة لا بأس بها لتحقيق الأغراض التي تهدف إليها بنت
الشاطيء ، وهي تعتمد في ذلك على كتب التفسير التي لها عناية بوجوه البلاغة
القرآنية ، وتعتبر تعبيراً أدبياً راقياً .

تراجم لبعض مشاهير المفسرين

ابن عباس

نسبه وحياته : هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ ، أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية ، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث ، وقيل بخمس والأول أثبت .

وقد حج عبد الله بن عباس سنة قتل عثمان بأمر منه ، وكان على الميسرة يوم صفين ، وولاه على البصرة ، فلم يزل ابن عباس عليها حتى قتل علي فاستخلف على البصرة عبد الله بن الحارث ومضى إلى الحجاز . وتوفي بالطائف سنة خمس وستين ، وقيل سبع ، وقيل ثمان وهو الصحيح في قول الجمهور ، قال الواقدي : لا خلاف عند أئمتنا أنه ولد بالشعب حين حصر قريش بني هاشم ، وأنه كان له عند موت النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة .

منزله وعلمه : وابن عباس ترجمان القرآن ، وحبر الأمة ، ورئيس المفسرين ، فقد أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : « نعم ترجمان القرآن ابن عباس » وأخرج أبو نعيم عن مجاهد قال : « كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه » وأخرج ابن سعد بسند صحيح عن يحيى بن سعيد الأنصاري : « لما مات

زيد بن ثابت قال أبو هريرة ، مات خبر هذه الأمة ، ولعل الله أن يجعل في ابن عباس خلفاً .

وقد أحرز ابن عباس منزلته بين كبار الصحابة على صغر سنه بعلمه وفهمه تحقيقاً لدعوة رسول الله ﷺ ففي الصحيح عنه أن النبي ﷺ ضمه إليه وقال : « اللهم علمه الحكمة » . وفي معجم البغوي وغيره عن عمر أنه كان يقرب ابن عباس ويقول « إني رأيت رسول الله ﷺ دعاك فمسح رأسك ، وتفل في فيك » وقال « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » . وأخرج البخاري من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليربهم ، فقال : ما تقولون في قول الله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح) فقال بعضهم : امرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال : إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ، فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول .

تفسيره : وقد ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة ، وجمع ما نقل عنه في تفسير مختصر ممزوج يسمى « تفسير ابن عباس » وفيه روايات وطرق مختلفة ، ولكن أحسن الطرق عنه طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي عنه ، واعتمد على هذه البخاري في صحيحه ، ومن جيد الطرق طريق قيس بن مسلم الكوفي عن عطاء بن السائب .

وفي التفاسير الطوال التي أسندوها إلى ابن عباس مجاهيل : وأوهى طرقه طريق الكلبي عن أبي صالح ، والكلبي هو أبو النصر محمد بن السائب المتوفى سنة ١٤٦ هـ فإن انضم إليه رواية محمد بن مروان السدي الصغير المتوفى سنة ١٨٦ هـ فهي سلسلة

الكذب ، وكذلك طريق مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي ، إلا أن الكلبي يفضل عليه لما في مقاتل من المذاهب الرديئة ..

وطريق الضحاك بن مزاحم الكوفي عن ابن عباس منقطعة ، فإنه لم يلق ابن عباس وإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمار فضعيفة لضعف بشر ، وإن كان من رواية جوير عن الضحاك فأشد ضعفاً ، لأن جويراً شديد الضعف متروك .

وطريق العوفي عن ابن عباس أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً ، والعوفي ضعيف ليس بواه ، وربما حسن له الترمذي .

وبهذا يستطيع القارئ أن ينتقب عن الطرق ويعرف منها الجيد المقبول من الضعيف أو المتروك ، فليس كل ما روي عن ابن عباس بالصحيح الثابت . وقد ذكرنا مزيداً من التفصيل عن ذلك عند الكلام عن تفسيره .

مجاهد بن جبر

نسبه وحياته : هو مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج المخزومي المقرئ ، مولى السائب بن أبي السائب ، روى عن علي . وسعد بن أبي وقاص ، والعبادة الأربعة ، ورافع بن خديج ، وعائشة ، وأم سلمة ، وأبي هريرة ، وسراقة بن مالك ، وعبد الله بن السائب المخزومي ، وخلق كثير . وروى عنه عطاء ، وعكرمة ، وعمرو بن دينار ، وقتادة ، وسليمان الأحول ، وسليمان الأعمش ، وعبد الله بن كثير القارئ ، وآخرون . وكان مولده سنة ٢١ هـ إحدى وعشرين في خلافة عمر ، ومات سنة اثنين أو ثلاث ومائة ، وقال يحيى القطان : مات سنة ١٠٤ هـ أربع ومائة .

منزله : ومجاهد رأس المفسرين من طبقة التابعين حتى قيل أنه كان أعلمهم بالتفسير ، وقد أخذ تفسيره عن ابن عباس ثلاثين مرة ، وعنه أيضاً قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات ، أقف عند كل آية وأسأله عنها ، فیم

نزلت ، وكيف كانت ؟ وقال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، قال ابن تيمية : ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم .

وقال أبو حاتم : مجاهد لم يسمع عن عائشة ، حديثه عنها مرسل ، وقال : مجاهد عن سعد ومعاوية وكعب بن عجرة مرسل ، وقال أبو نعيم : قال يحيى القطان : مرسلات مجاهد أحب إلي من مرسلات عطاء ، وقال قتادة : أعلم من بقي بالتفسير مجاهد ، وقال ابن سعد : كان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث ، وقال ابن حبان : كان فقيهاً ورعاً عابداً متقناً ، وقال الذهبي في آخر ترجمته : أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به ، وقال : قرأ عليه عبد الله بن كثير .

وإذا كان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، فليس معنى هذا أن نأخذ كل ما نسب إلى مجاهد ، فإن مجاهداً كغيره من الرواة الذين نقل عنهم ، وقد يكون من النقلة عنه الضعيف الذي لا يوثق به ، فلا بد من التحري وثبوت سلامة السند ، شأنه في ذلك شأن ابن عباس فيما روي عنه .

الطبري

نسبه وحياته : هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير أبو جعفر الطبري ، الآمل الأصل ، البغدادي المولد والوفاة — ولد سنة ٢٢٤ هـ أربع وعشرين ومائتين ، وتوفي سنة ٣١٠ هـ عشر وثلاثمائة ، وكان عالماً فذاً كثير الرواية ذا بصيرة بالنقل والترجيح بين الروايات ، وله باع طويل في تاريخ الرجال وأخبار الأمم .

تصانيفه : صنف ابن جرير من الكتب : جامع البيان في تفسير القرآن ، وتاريخ الأمم والملوك وأخبارهم ، والآداب الحميدة والأخلاق النفيسة « وتاريخ الرجال ، واختلاف الفقهاء ، وتهذيب الآثار ، وكتاب البسيط في الفقه ، والجامع في القراءات ، وكتاب التبصير في الأصول .

تفسيره : وكتابه في التفسير « جامع البيان في تفسير القرآن » أجل التفاسير وأعظمها ، وهو المرجع الأصل للمفسرين بالآثر ، وابن جرير يورد التفسير مسنداً إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم ، ويتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض ، وقد اجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله ، قال النووي في تهذيبه : كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله ، ويمتاز ابن جرير بالاستنباط الرائع ، والإشارة إلى ما خفي في الإعراب ، وبذلك كان تفسيره فوق أقرانه من التفاسير ، وأكثر ما ينقل ابن كثير عن ابن جرير .

ابن كثير

نسبه وحياته : هو إسماعيل بن عمر القرشي ابن كثير البصري ثم الدمشقي ، عماد الدين أبو الفداء الحافظ المحدث الشافعي .

ولد سنة ٧٠٥ هـ خمس وسبعمائة ، وتوفي سنة ٧٧٤ هـ أربع وسبعين وسبعمائة ، بعد حياة زاخرة بالعلم ، فقد كان فقهياً متقناً ، ومحدثاً بارعاً ، ومؤرخاً ماهراً ، ومفسراً ضابطاً ، قال فيه الحافظ ابن حجر « إنه كان من محدثي الفقهاء » وقال « سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها بعد وفاته » .

تصانيفه - ومن تصانيفه : البداية والنهاية في التاريخ ، وهو من أهم المراجع للمؤرخين ، والكواكب الدراري في التاريخ ، انتخبه من البداية والنهاية وتفسير القرآن ، والاجتهاد في طلب الجهاد ، وجامع المسانيد ، والسنن الهادي لأقوم سنن ، والواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن إدريس .

تفسيره : - قال فيه محمد رشيد رضا : « هذا التفسير من أشهر كتب التفسير في العناية بما روي عن مفسري السلف ، وبيان معاني الآيات وأحكامها ، وتحامي ما أطال به الكثيرون من مباحث الإعراب ونكت فنون البلاغة ، أو الاستطراد لعلوم أخرى لا يحتاج إليها في فهم القرآن ، ولا التفقه فيه ، ولا الاعتاط به .

ومن مزاياه العناية بما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، فهو أكثر ما عرفنا من كتب التفسير سرداً للآيات المناسبة في المعنى ، ويلى ذلك فيه الأحاديث المرفوعة التي تتعلق بالآية وبيان ما يحتاج به منها ، ويليهما آثار الصحابة وأقوال التابعين ومن بعدهم من علماء السلف .

ومنها تذكيره بما في التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات وتحذيره منها بالإجمال ، وبيانه لبعض منكراتها بالتعيين ، ويا ليت استقصى ذلك أو ترك لإيراد ما لم تتوفر فيه داعية التمهيص والتحقيق (هـ) .

فخر الدين الرازي

نسبه وحياته : هو محمد بن عمر بن الحسن التميمي البكري الطبرستاني الرازي فخر الدين المعروف بابن الخطيب الشافعي الفقيه .

ولد بالري سنة ٥٤٣ هـ ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وتوفي بهراة سنة ٦٠٦ هـ ست وستمائة - ودرس العلوم الدينية والعلوم العقلية ، فتعمق في المنطق والفلسفة ، وبرز في علم الكلام ، وله في هذا كله الكتب والشروح والتعليقات ، حتى عدوه من فلاسفة عصره ، ولا تزال كتبه مراجع هامة لمن يسمونهم بالفلاسفة الإسلاميين .

تصانيفه : ولفخر الدين الرازي تصانيف كثيرة ، منها : مفاتيح الغيب في تفسير القرآن ، وتفسيره أسرار التنزيل وأنوار التأويل ، وإحكام الأحكام ، والمحصل في أصول الفقه ، والبرهان في قراءة القرآن ، ودرة التنزيل وغرة التأويل في الآيات المتشابهات ، وشرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا ، وإبطال القياس ، وشرح القانون لابن سينا ، والبيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان ، وتعجيز الفلاسفة ، ورسالة الجوهر ، ورسالة الحدوث ، وكتاب الملل والنحل ، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين في علم الكلام ، وشرح المفصل للزمخشري .

تفسيره : - وقد أثرت العلوم العقلية على الرازي في تفسيره ، فمزجه بخلط من الطب والمنطق والفلسفة والحكمة ، وخرج به عن معاني القرآن وروح آياته ، وحمل نصوص الكتاب ما لم تنزل له من مسائل العلوم العقلية واصطلاحاتها العلمية ، ففقد كتابه بهذا روحانية التفسير وهداية الإسلام ، ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شيء إلا التفسير (كما ذكرنا آنفاً) .

الزنجشري

نسبه وحياته : هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزنجشري - ولد في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٤٦٧ هـ سبع وستين وأربعمائة بزمخشري ، وهي قرية كبيرة من قرى خوارزم ، وتلقى العلم في بلاده ، ورحل إلى بخارى في طلبه ، وأخذ الأدب عن شيخه منصور أبي مضر ، ثم رحل إلى مكة وجاور بها زماناً ، فقليل له (جار الله) وبها ألف كتابه في التفسير (الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعميون الأقاويل في وجوه التأويل) وتوفي الزنجشري سنة ٥٥٣٨ هـ ثمان وثلاثين وخمسمائة ، بمرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة ، ورثاه بعضهم بأبيات منها :

فأرض مكة تذري الدمع مقلتها حزناً لفرقة جار الله محمود

علمه ومؤلفاته : والزمخشري إمام من أئمة اللغة والمعاني والبيان ، وكثيراً ما يجد القارئ في كتب النحو والبلاغة استشادات له من كتبه للاحتجاج بها ، فيقولون : قال الزنجشري في كشافه ، أو في أساس البلاغة ، وهو صاحب رأي وحجة في كثير من مسائل العربية ، وليس من هؤلاء النفر الذين يتهجون نهج غيرهم فيجمعون وينقلون ، ولكنه صاحب رأي يقتفي غيره أثره وينقل عنه ، وله تصانيف في الحديث والتفسير والنحو واللغة والمعاني والبيان وغير ذلك ، منها : كتابه في تفسير القرآن (الكشف) ، والفائق في تفسير الحديث ، والمنهاج في الأصول ، والمفصل في النحو ، وأساس البلاغة في اللغة ، ورؤوس المسائل الفقهية .

مذهبه عقيدته : والزنجشري حنفي المذهب ، معتزلي العقيدة ، يؤول الآيات وفق مذهبه وعقيدته بلحن لا يدركه إلا الخاصة ، ويسمي المعتزلة إخوانه في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية .

تفسيره : — وكتاب الكشف للزنجشري من أشهر كتب المفسرين بالرأي ، الماهرين في اللغة ، ينقل عنه الألوسي ، وأبو السعود ، والنسفي ، وغيرهم من المفسرين بدون نسبة إليه ، واعتزالياته في التفسير قد تولى التنقيب عنها العلامة أحمد النير . وسماها بالانتصاف ، وفيها يناقش الزنجشري فيما أورده من العقائد على مذهب المعتزلة ويورد ما يقابلها ، كما يناقشه في كثير من أبواب اللغة ، وقد طبعت المكتبة التجارية بمصر الكشف طبعة أخيرة رتبها مصطفى حسين أحمد ، وذيلت بأربعة كتب ، الأول : الانتصاف السابق ، والثاني الشاف في تخريج أحاديث الكشف للحافظ ابن حجر العسقلاني ، والثالث : حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشف (كالانتصاف) ، والرابع : مشاهد الإنصاف على شواهد الكشف للمرزوقي المذكور — وقد ضمن تفسيره كثيراً من عقائد المعتزلة على طريق الإشارة ، وقد ذكرنا قبل ما نقل عن البلقيني أنه قال : استخرجت من الكشف اعتزالاً بالمناقيش .

الشوكاني

نسبه وحياته : — هو القاضي محمد بن علي بن عبدالله الشوكاني ثم الصنعاني الإمام المجتهد ، ناصر السنة ، وقامع البدعة .

ولد سنة ١١٧٣هـ ثلاث وسبعين ومائة وألف في بلدة هجرة شوكان ، ونشأ بصنعاء ، فقرأ القرآن ، وأخذ يطلب العلم ، ويسمع من العلماء الأعلام ، وحفظ كثيراً من متون النحو والصرف والبلاغة ، والأصول وآداب البحث والمناظرة ، حتى

صار إماماً يشار إليه بالبنان ، وظل مكباً على العلم قراءة وتدريساً إلى أن توفي سنة ١٢٥٠ هـ خمسين ومائتين والـف .

مذهبه وعقيدته : - تفقه على مذهب الإمام زيد ، وبرع فيه ، وألف وأفتى ، وطلب الحديث ، وفاق فيه أهل زمانه حتى خلع ربة التقليد ، وصار مناصراً للسنة ومناوئاً لأعدائها ، وكان يرى تحريم التقليد حتى ألف في ذلك رسالة أسماها (القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد) .

مؤلفاته : له مؤلفات عديدة في شتى الفنون منها تفسيره « فتح القدير » وشرحه نيل الأوطار على منتقى الأخبار للمجدد بن تيمية جد شيخ الإسلام . وهو من خير ما كتب في الحديث على أبواب الفقه ، وكتابه في الأصول (إرشاد الفحول) وفتاواه المسماة (بالفتح الرباني) .

تفسيره : - وفتح القدير للشوكاني تفسير يجمع بين الرواية والاستنباط وفقه نصوص الآيات ، اعتمد فيه على فحول المفسرين كالنحاس ، وابن عطية ، والقرطبي . وهو متداول في جهات كثيرة من أنحاء العالم الإسلامي .
وصلى الله على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مناع القطان

استاذ التفسير لطلبة الشريعة

ومحاضر بالمعهد العالي للقضاء في الرياض

المراجع

اسم المؤلف	اسم الكتاب
السيوطي	١ - الإنقان في علوم القرآن
ابن حجر العسقلاني	٢ - الإصابة في تمييز الصحابة
خير الدين الزركلي	٣ - الأعلام
الباقلاني	٤ - اعجاز القرآن
الزركشي	٥ - البرهان في علوم القرآن
ابن جرير	٦ - تفسير الطبري جامع البيان
ابن كثير	٧ - تفسير القرآن العظيم
الزمخشري	٨ - الكشاف
محمد حسين الذهبي	٩ - التفسير المفسرون
ابن حجر العسقلاني	١٠ - تهذيب التهذيب
محمد عبده	١١ - رسالة التوحيد
ابن تيمية	١٢ - الرد على المنطقيين
ابن تيمية	١٣ - القرمزية
ابن تيمية	١٤ - اقتضاء الصراط المستقيم

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ابن تيمية	١٥ - الإكليل في التشابه والتأويل
ابن تيمية	١٦ - العقل والنقل
ابن القيم	١٧ - أعلام الموقعين
ابن القيم	١٨ - أقسام القرآن
مصطفى صادق الرافعي	١٩ - اعجاز القرآن
السيد محمد رشيد رضا	٢٠ - الوحي المحمدي
الفيروز أبادي	٢١ - القاموس المحيط
الراغب الأصبهاني	٢٢ - مفردات غريب القرآن
ابن قدامة	٢٣ - روضة الناظر
ابن عبد الشكور	٢٤ - فوائح الرحمون بشرح مسلم الثبوت
الغزالي	٢٥ - المستصفى
الزرقاني	٢٦ - مناهل العرفان
صبحي الصالح	٢٧ - مباحث في علوم القرآن
محمد عبد الله دراز	٢٨ - النبأ العظيم
محمد علي سلامة	٢٩ - جوهر البيان في علوم القرآن
محمد الخضر حسين	٣٠ - بلاغة القرآن
ابن تيمية	٣١ - مقدمة في أصول التفسير
حاجي خليفة	٣٢ - كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون
اسماعيل البغدادي	٣٣ - هدية العارفين
سيد قطب	٣٤ - في ظلال القرآن
العقاد	٣٥ - الفلسفة القرآنية
النووي	٣٦ - رياض الصالحين

محتويات الكتاب

٥	المقدمة :
٧	١ - التعريف بالعلم وبيان نشأته وتطوره
١٤	٢ - القرآن
١٧	تعريف القرآن
١٨	اسماؤه وأوصافه
٢٠	الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي
٢٢	الحديث القدسي
٢٣	الفرق بين القرآن والحديث القدسي
٢٤	الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي
٢٧	٣ - الوحي
٢٩	معنى الوحي
٣٠	كيفية وحي الله إلى ملائكته
٣٤	كيفية وحي الله إلى رسوله
٣٥	كيفية وحي الملك إلى الرسول
٣٧	شبه الجاحدين على الوحي

٤٦	٤ - المكي والمدني
٤٨	عناية العلماء بالمكي والمدني وأمثلة ذلك وفوائده
٥٤	فوائد العلم بالمكي والمدني
٥٥	معرفة المكي والمدني وبيان الفرق بينهما
٥٦	الفرق بين المكي والمدني
٥٧	مميزات المكي والمدني
٦٠	٥ - معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل
٦٤	أوائل موضوعيه
٦٦	٦ - أسباب النزول
٦٦	عناية العلماء به
٦٧	ما يعتمد عليه في معرفة سبب النزول
٦٨	تعريف السبب
٧٠	فوائد معرفة سبب النزول
٧٣	العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب
٧٦	صيغة سبب النزول
٧٨	تعدد الروايات في سبب النزول
٨٢	تعدد النزول مع وحدة السبب
٨٣	الاستفادة من معرفة أسباب النزول
	في مجال التربية والتعليم
٨٥	٧ - نزول القرآن
٨٥	نزول القرآن جملة
٩٠	نزول القرآن منجماً
١٠١	الاستفادة من نزول القرآن منجماً
	في التربية والتعليم

١٠٣	٨ - جمع القرآن وترتيبه
١٠٤	جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم
١١٠	جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه
١١٣	جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه
١٢٠	ترتيب الآيات والسور
١٢٠	ترتيب الآيات
١٢١	ترتيب السور
١٢٥	سور القرآن وآياته
١٢٦	الرسم العثماني
١٣٠	تحسين الرسم العثماني
١٣٤	٩ - نزول القرآن على سبعة أحرف
١٤٦	حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف
١٤٧	١٠ - القراءات والقراء
١٤٩	كثرة القراء والسبب في الاختصار على السبعة
١٥٢	أنواع القراءات وحكمها وضوابطها .
١٥٧	فوائد الاختلاف في القراءات الصحيحة
١٦٣	التجويد وآداب التلاوة
١٦٩	١١ - القواعد التي يحتاج إليها المفسر
١٦٩	الضمائر
١٧٢	التعريف والتنكير
١٧٥	الإفراد والجمع
١٧٦	مقابلة الجمع بالجمع أو بالمفرد
١٧٧	ما يظن أنه مترادف وليس من المترادف
١٧٨	السؤال والجواب

١٧٩	الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل
١٧٩	العطف
١٨٢	١٢ - الفرق بين المحكم والمتشابه
١٨٣	الإحكام العام والتشابه العام
١٨٤	الإحكام الخاص والتشابه الخاص
١٨٥	الاختلاف في معرفة المتشابه
١٨٦	التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل
١٨٧	التأويل المذموم
١٨٩	١٣ - العام والخاص
١٨٩	تعريف العام وضيق العموم
١٩٠	أقسام العام
١٩١	الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص
١٩٢	تعريف الخاص وبيان المخصص
١٩٤	تخفيض السنة بالقرآن
١٩٤	ما يشمله الخطاب
١٩٦	١٤ - الناسخ والمنسوخ
١٩٧	تعريف النسخ وشروطه
١٩٨	ما يقع فيه النسخ
١٩٨	ما به يعرف النسخ وأهميته
١٩٩	الآراء في النسخ وأدلة ثبوته
٢٠١	أقسام النسخ
٢٠٣	أنواع النسخ في القرآن
٢٠٤	حكمة النسخ
٢٠٤	النسخ إلى بدل وإلى غير بدل
٢٠٥	شبه النسخ

٢٠٦	أمثلة للنسخ
٢٠٩	١٥ - المطلق والمقيد
٢٠٩	تعريف المطلق والمقيد
٢١٢	١٦ - المنطوق والمفهوم
٢١٢	تعريف المنطوق وأقسامه
٢١٣	دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة
٢١٤	تعريف المفهوم وأقسامه
٢١٧	١٧ - اعجاز القرآن
٢١٨	تعريف الإعجاز وإثباته
٢٢٠	وجوه إعجاز القرآن
٢٢٢	القدر المعجز من القرآن
٢٢٣	الإعجاز اللغوي
٢٢٨	الإعجاز العلمي
٢٣٣	الإعجاز التشريعي
٢٣٩	١٨ - أمثال القرآن
٢٤٠	تعريف المثل
٢٤٢	أنواع الأمثال في القرآن
٢٤٥	فوائد لأمثال
٢٤٨	١٩ - أقسام القرآن
٢٤٩	تعريف القسم وصيغته
٢٥٠	فائدة القسم في القرآن
٢٥١	المقسم به في القرآن
٢٥١	أنواع القسم
٢٥١	أحوال المقسم عليه

٢٠ - جلد القرآن

٢٥٤

تعريف الجلد

٢٥٥

طريقة القرآن في المناظرة

٢٥٧

أنواع مناظرات القرآن وأدلتها

٢١ - قصص القرآن

٢٥٩

معنى القصص

٢٦٠

أنواع القصص في القرآن

٢٦١

فوائد قصص القرآن

٢٦١

تكرار القصص وحكمته

٢٦٢

القصة في القرآن حقيقة لا خيال

٢٦٤

أثر القصص القرآني في التربية والتثديب

٢٢ - ترجمة القرآن

٢٦٧

معنى الترجمة

٢٢٦٨

حكم الترجمة الحرفية

٢٦٨

الترجمة المعنوية

٢٦٩

حكم الترجمة المعنوية

٢٧٠

الترجمة التفسيرية

٢٧٢

القراءة في الصلاة بغير العربية

٢٣ - التفسير والتأويل

٢٧٧

معنى التفسير والتأويل

٢٧٩

الفرق بين التفسير والتأويل

٢٨٠

شرف التفسير

٢٤ - شروط المفسر وآدابه

٢٨١

شروط المفسر

٢٥ - نشأة التفسير وتطوره

- ٢٨٦ التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه
 ٢٨٩ التفسير في عهد التابعين
 ٢٩٢ التفسير في عصور التدوين
 ٢٩٥ طبقات المفسرين
 ٢٩٩ التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي
 ٢٩٩ التفسير بالمأثور
 ٣٠٠ الاختلاف فيه
 ٣٠١ تجنب الإسرائيليات
 ٣٠٢ حكم التفسير بالمأثور
 ٣٠٣ التفسير بالرأي
 ٣٠٤ حكم التفسير بالرأي
 ٣٠٦ الاسرائيليات
 ٣٠٨ تفسير الصوفية
 ٣٠٩ التفسير الإشاري
 ٣١٠ غرائب التفسير
 ٣١١ التعريف بأشهر كتب التفسير
 ٣١١ أشهر الكتب المؤلفة في التفسير بالمأثور
 ٣١٢ تفسير ابن عباس
 ٣١٣ جامع البيان في تفسير القرآن للطبري
 ٣١٦ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز
 لابن عطية
 ٣١٧ تفسير القرآن العظيم لابن كثير
 ٣١٨ أشهر الكتب المؤلفة في التفسير بالرأي

- ٣١٩ مفاتيح الغيب للرازي
 ٣٢٠ البحر المحيط لأبي حيان
 ٣٢١ الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري
 ٣٢٢ أشهر كتب التفسير في العصر الحديث
 ٣٢٣ الجواهر في تفسير القرآن للشيخ طنطاوي جوهري
 ٣٢٤ تفسير المنا - للسيد محمد رشيد رضا
 ٣٥٢ في ظلال القرآن لسيد قطب
 ٣٢٦ تفسير البيان للقرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطي

٢٦ - تراجم لبعض مشاهير المفسرين

- ٣٢٨ ابن عباس
 ٣٣٠ مجاهد بن جبر
 ٣٣١ الطبري
 ٣٣٢ ابن كثير
 ٣٣٣ فخر الدين الرازي
 ٣٣٤ الزمخشري
 ٣٣٥ الشوكاني
 ٣٣٧ المراجع
 ٣٣٩ الفهرس